وزارة الثقافة
احياء التراث العربي
٩٠

عيون الروضتين في أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي
المعروف بأبي شامة
٥٩٩ — ٦٦٥هـ = ١٢٠٢ — ١٢٦٧م

القسم الثاني

حققه

أحمد البيسومي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٢

عيون الروضتين في أخبار الدولتين

القسم الثاني

عيون الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية /
تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي
المعروف بأبي شامة؛ حققه احمد البيسومي .ــ دمشق : وزارة
الثقافة ، ١٩٩٢ . ــ ج ٢ ؛ ٢٤ سم . ــ (احياء التراث
العربي ؛ ٩٠) .

١ ــ ٩٥٦,٠٥٤٥ ش ا م ع ٢ ــ العنوان ٣ ــ أبو شامة
٤ ــ البيسومي ٥ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ١٩٩٢/١٢/٣٦١

ودخلت سنة سبعين وخمسمائة (١)

فعزم صلاح الدين على الخروج لتلافي الأمر ، فاعترضه أسطول صقليّة إلى الاسكندريّة ، ووثوب خارجي بالصعيد يلقّبُ بالكنز (٢) ، فتلبّث حتى انفصل أمرهما ، فقُتل الكنز ، وتفرّقت جموعه ، وغُنم رجال الأسطول وسلاحه ، ثم انهزم وأقلع عن الثغر ولله الحمد ، وكان أسطولاً عظيماً هائلاً ، وصل أوّله وقت الظهر ، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر ، وكان فيه ثلاثون ألف مقاتل بين فارس وراجل في ستمائة (٣) قطعة مابين شيني (٤) وطرّاد وبُطْسة وفيها آلات الحرب والحصار حتى المجانيق الكبار بحجارتها التي ترمى بها (٥) والدبابات (٦) وغيرها .

---

(١) انظر سنا البرق ١٦٩ - ١٧٦ والكامل ١ / ٤١٢ - ٤١٤ والروضتين ١/٢٣٤ - ٢٣٦ وشفاء القلوب ٨٣ - ٨٤ والبداية والنهاية ٢٨٧/١٢ - ٢٨٨ والسلوك ج١ ق١ ص ٥٥ - ٥٩ وفيه أن وصول الأسطول كان سنة ٥٦٩ .

(٢) الكنز . رجل من أبناء مصر نزح إلى السودان ، وكان مقدماً ، وأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، ويعدهم باعادة ملك البلاد والدولة المصرية (النوادر السلطانية ٤٧ والروضتين ٢٣٥/١ وشفاء القلوب ٨٣) .

(٣) في الكامل وسنا البرق والروضتين أن عدد قطع الأسطول مئتا شيني وست وثلاثون طريدة ، وستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب ، وأربعون مركباً تحمل الأزواد .

(٤) الشيني : سفينة حربية كبيرة ، فيها قلعة وأبراج (الخطط المقريزية ١٩٤/٢ - ١٩٥ ، الفتح القسي ١٩٠) .

(٥) المجانيق: مفردها منجنيق ، وهو آلة حربية تقذف بها الحجارة وكرات النار لدك الحصون وإحراقها (الروضتين ٢٣٥/١) .

(٦) جمع دبابة ، وهي تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتليها واتساعها يدفعها الرجال باتجاه الأسوار ، ولها كباش (الروضتين ٣٥/١) .

فلمّا خلا بال السلطان صلاح الدين من هذين الأمرين ، تجهّز للمسير إلى الشام (١) . وجاءته كتب جماعة من الأمراء الشاميين يحثونه على ذلك (٢) ، فأقبل حتى دخل دمشق وملكها ، وكأنّ الله تعالى له خلقها ، وسكن بدار العقيقي (٣) مسكن أبيه . ونزل أخوه سيف الإسلام (٤) بالقلعة واجتمع به أعيانها ، وخلص لولائه إسرارها وإعلانها ، وأصبح وهو سلطانها ، ثم صعد القلعة ، ونشر علم العدل والإحسان ، وعفّى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين — رحمه الله — من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرّمات ، ومدحه وحيش الأسدي (٥) بقصيدة منها (٦) :

(١) النوادر السلطانية ٣١ – ٣٢ ، الكامل ٤١٥/١ ، الباهر ١٧٦ – ١٧٧ ، الروضتين ٢٣٥/١ – ٢٣٧ ، سنا البرق ١٧٦ – ١٧٨ ، شفاء القلوب ٨٤ – ٨٥ ، البداية والنهاية ٢٨٨/١٢ .

(٢) منهم شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي ، وشمس الدين بن المقدم (سنا البرق ١٧٦ ، الروضتين ٢٣٦/١) .

(٣) دار العقيقي ، كانت دار نجم الدين أيوب بن شاذي قبل مغادرته لدمشق . انظر الكامل ج ١١ ص ٤١٦ – ٤١٨ ، سنا البرق ١٧٧ .

(٤) هو : سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي شقيق السلطان صلاح الدين ، فوض إليه صلاح الدين سنة (٥٧٨ هـ) أمور اليمن ، وبقي فيها إلى سنة (٥٩٣ هـ) حيث عاد في هذه السنة إلى مصر وتوفي في هذه السنة أيضاً . انظر : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٥ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٥) هو الأديب أبو الوحش ، سبع بن خلف بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن زين بن زياد بن المرار بن سعيد الأسدي الفقعسي . انظر خريدة القصر ج ١ ص ٢٤٢ .

(٦) انظر : خريدة القصر ج١ ص ٢٤٢ – ٢٤٤ ، الروضتين ج١ ص ٢٣٧ .

١ ـ قد جاءك (النصر)(١) والتوفيق فاصطحبا
فكُن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
٢ ـ لله أنتَ صلاح الدين من أسدٍ
أدنى فريسته الأيام إن وثبا (٥٥/و)
٣ ـ رأيتَ جلّق ثغراً لانظير له
فجئتها عامراً منها الّذي خرِبا
٤ ـ نادتك بالذلّ لمّا قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
٥ ـ أحييتها مثل ماأحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ماكان قد ذهبا
٦ ـ هذا الّذي نصر الإسلام فاتّضحت
سبيله ، وأهان الكفر والصُّلُبا

ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر وفي بعضها : (٢) « يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت ، وهاجرت ، وتزاحمت، وتكاثرت ، وتوافرت الأمراء والأجناد والأتراك والأكراد والعربان وراجل الأعمال وأعيان الرجال ، وورد كتاب من دمشق بعد كتاب وكلٌّ مخبر وذاكر وهو غائب وبكتابه حاضر يذكر : أنّ

(١) في الخريدة (السعد) .
(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٤١٥ ـ ٤١٧ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ ، (ويذكر المقريزي أن صلاح الدين قد تسلم توقيعاً من الخليفة المستضيء بأمر الله بسلطنة مصر والشام وغيرها) المقريزي ج ١ ق١ ٥٩ ـ ٦٠ .

البلاد ممكنة القياد مذعنة إلى المراد ، وأمّا الفرنج – خذلهم الله – فإنّا في هذه السفرة ، نزلنا في بلادهم نزول المتحكم ، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم ، وأدلجنا (١) وعيونهم متناومة ، وجزنا وأنوفهم راغمة ، ووطِئنا ورقابهم صُغر ، ومررنا وعيشهم مُرّ ؛ والله تعالى يزيدهم ذلاً ، ويجعل عداوة الإسلام في صدرهم غِلاً وفي أعناقهم غُلاً » .

ومن كتاب آخر :

ورحلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأوّل وقد توّجه صاحبها (٢)بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها ، ثم لَقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين ، رحمة الله عليه وأدام نعمته ، والأمير سعد الدين بن أنُز في يوم السبت السابع والعشرين ، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية ، ولم يتأخّر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه ومَنْ اعتقد بالقعود أنّه قد نظر لنفسه في العاقبة .

ولمّا كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر (٣) ، ركبنا على خيرة الله تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال ، فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرّفتهُم كيف يكون اللّقاء وعلّمتهُم ، ودخلنا البلد، واستقرّت بنا دار والدنا،رحمه الله،قريرة

---

(١) دلج (في لسان العرب) الدلجة:سير السحر ، والدلجة : سير الليل كله ، وأدلجو : ساروا في آخر الليل .

(٢) قصد بذلك : شمس الدين جاولي صاحب بصرى . انظر سنا البرق ١٧٦ .

(٣) وفي الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ (دخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر) .

عيوننا مستقراً سكون الرّعية وسكوننا ، وأذَعْنا في أرجاء البلد / (٥٥/ظ) النداء بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس ، وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، واليد المتعدية قد امتدّت إلى أحوالهم وأجحفت ، فشرعنا في امتثال الشرع برفعها ، وإعفاء الأمّة منها بوضعها .

ثمّ (١) رحل السلطان صلاح الدين ، فتسلّم حمص وحماة وبعلبك بعد حصار كلّ منها .

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ في وصف قلعة حمص وحصاره إيّاها : (٢) « والشيخ الفقيه قد شاهد مايشهد به من كونها نجماً في سحاب ، وعقاباً في عقاب ، وهامةً لها الغمامة عمامة وأنملةً(٣) إذا خضبها الأصيل كأنّ الهلال منها قلامه ، عاقدةً (٤) حبوةً ، صالحها الدهر على أن لايحلها بقرعه ، عاهدةً (٥) عصمةً ، صافحها الزمَنُ على أن لايروعها بخلعة ، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لاتطبع طبع حمص في العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة ، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين

---

(١) انظر : سنا البرق ١٨٠ – ١٨٢ ، النوادر السلطانية ٣٢ – ٣٣ ، الكامل ج ١١ ص ٤١٧ – ٤١٨ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣٧ – ٢٣٩ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) أنملة (في لسان العرب) بالفتح : المفصل الأعلى الذي فيه الظفر من الإصبع والجمع أنامل وأنملات وهي رؤوس الأصابع .

(٤) عاقدة (في لسان العرب) المعاقدة المعاهدة والميثاق .

(٥) عاهدت الله أن لا أفعل كذا وكذا وأهل العهد : أهل الأمة ، فاذا أسلموا سقط عنهم اسم العهد ومنه الذمي المعاهد الذي فورق فأومر على شروط استوثق منه بها ، وأومن عليها ، فان لم يف بها حل سفك دمه) . انظر لسان العرب .

الأقارب ، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثّرت فيها جدرياً(١) بضربها ، ولم تصل إلى السابع إلاّ والبُحران منذر بنقبها ، واتسع الخرق على الراقع ، وسَقط سعدها عن الطالع إلى مولد من هو إليها طالع ، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً ، وسيرت الجيأل (٢) بها فكانت سراباً ، فهنالك بدت نقوب يرى من دونها ماوراءها ، وحُشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها » . ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل (٣) : « قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية مايزاحم سبعة آلاف فارس ، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العدّ ، وبعد أن نرتّب أحوال حمص — حرسها الله — نتوجه إلى حماة ، والله المعين على مانتويه من الرشاد ، وننظفه من طرق الجهاد » .

ثم توجه (٤) السلطان بعد أخذه حمـــاة ، وحاصر مدينة حلب ، فراسل أهلها الحشيشية ، فجاء منهم جماعة على عزم الفتك بالسلطان ، فعُرفوا ، فقتلوا ، فراسل من بحلب الإفرنج ، وبذلوا لهم أموالاً وبلاداً ، وفكاك الأسرى الذين عندهم من عهـــد نور الدين فاجتمعوا وخرجوا ، فرحل عن حلب .

---

(١) الجدر (في لسان العرب) آثار ضرب مرتفعة على جلد الإنسان الواحد جدرة ، فمن قال الجدري نسبة إلى الجدر : وهي سلع تكون في البدن خلقة ، وقد تكون من الضرب والجراحات .

(٢) الجيأل (في لسان العرب) وهي الضبع على (فيعل) : جألت تجأل إذا جمعت .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

(٤) الكامل ج ١١ ص ٤١٨ — ٤١٩ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٢ ، شفاء القلوب ٨٦ .

ومن كتاب / فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل(١) : « قد أعلمنا المجلس : أنّ العدوّ ــ خذله الله ــ كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم ، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم ، وأنّه خرج إلى بلد حمص ، فوردنا حماة ، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه ، فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بجَبَله (مفتضحاً)(٢) بحيله ، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب ، وظفرٌ وإنْ كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، فإنّ العدو قد سقطت حشمته ، وانحطّت فيه همّته ، وولّى ظهراً كأنّ صدره يصونه ، ونكّس صليباً كانت ترفعه شياطينه ». (٥٦/و)

ثمّ أرسل السلطان الخطيب شمس الدين ابن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ، ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الفرنج في حياة نور الدين ، ثمّ فتح مصر واليمن وبلاد جمّةٍ من أطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسيّة بجميع ذلك ، وطلب في آخره تقليداً جامعاً للجميع ، وكلّ ماتشتمل عليه الولاية النوريّة ، وكلّ مايفتحه الله على يده ، فجاءه التقليد على ماطلب ونسخة الكتاب يقول في أوّله :

« فإذا قضى التسليم حقّ اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء . فليعُدْ وليُعدّ حوادث ماكانت حديثاً يُفترى ، وجواريَ أمور ،

---

(١) هو : الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي أخو السلطان ومعاونه في كل الأمور (ت ٦١٥ هـ بعلاقين . انظر وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٦ – ١٧٠ ، الذيل على الروضتين ١١١ – ١١٣ ، البداية والنهاية ١٣ ص ٧٩ – ٨٠ ، شذرات الذهب ٤ ص ٦٥ .

(٢) في الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ (متفحصاً) .

إن قال فيها كثيراً ، فأكثر منه ماقد جرى ، وليشرح صدراً منها لعلّه يشرح منّا صدراً ، وليوضح الأحوال المستسرّة ، فإنّ الله لايُعبد سرّاً .

ومن الغريب أن تسير غرائب
في الأرض لم يعلم بها المأمـــــولُ
كالعيس أقْتَلُ مايكون لها (الظما) (١)
والماء فوق ظهورهـــا محمـــولُ

فإنّا كنّا نقتبس النّار بأكفّنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير (٢) ، ونلقي السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفائح بصدورنا وغيرنا يدّعي التصدير ، ولا بدّ أن تستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بخط الألسن كما أخذنا بخط القلوب، وما كان العائق إلاّ أنّا كنّا ننتظر ابتداراً من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، (٥٦ / ظ) وإيجاباً للحقّ / يشاكل إيجابنا للسبق ، كان أوّل أمرنا أنّا كنّا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا نحن ، ووالدنا ، وعمّنا ، فأيُّ مدينة فتحت ، أو معقل مُلك ، أو عسكر للعدو كُسر ، أو مصافٍ معه ضرُب، فما يَجهل أحد صنيعنا ، ولا يجحد عدوُّنا أنّا كنّا نصطلي الجمرة ، ونملك الكرّة ، ونتقدّم الجماعة ، ونرتّب المقاتلة وندبّر التعبئة إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرّنا أن يكون لغيرنا ذكرها ،

---

(١) في الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ (الصدى) .
(٢) السمر (في لسان العرب) وهو الحديث بالليل .

وكانت أخبار مصر تتّصل [بنا] (١) بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير ، وبما دولتُها عليه من غلبة صغير على كبير ، وأنّ النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد صعد (٢) عن إقامة كلّ من قام وقعد ، والفرنج قد احتاج من تدبّرها إلى أن يُقاطعهم بأموال كثيرة لها مقادير خطيرة ، وإنّ كلمة السنة بها وإنْ كانت مجموعة فإنّها مقموعة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسمّاة فإنّهـا متحاماة ، وتلك البدع بها على مايُعلم ، وتلك الضلالات فيها على مايُفتي فيه بفراق الإسلام ويُحكم ، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللّحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نُصبت آلهةً تُعبد من دون الله وتُعظّم وتُفخّم فتعالى الله عن شبه العباد ، وويلٌ لمن غرّه تقلّب الّذين كفروا في البلاد ، فسمت همّتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ، ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها ، فسرنا إليها في عساكر ضخمة في جموع جمّةٍ بأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منّا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا ، فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت و «(لكلّ أجل كتاب)»(٣) ولكلّ أمل باب ، وكان في تقدير الله سبحانه أنّا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج

---

(١) سقط من الأصل (٥٧ / و) والإضافة عن الروضتين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) في الروضتين ج ١ ص ٢٤١ (ضعف) .

(٣) سورة الرعد ٣٨ .

بالمصريين غدرة في هدنة عظم (خطرها وخطبها) (١) ، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطـُّها ، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام في هذا الأوان بأنّا إنْ لم
(٥٧ / و) ندرك الأمر وإلاّ خرج عن اليـــد ، وإنْ لم ندفع / غريم اليوم لم نمهل إلى الغد ، فسرنا بالعساكر المجموعة وأمراء الأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان(٢) الأول: ماعلموه من إيثارنا للمذهب الأقوم وإحياء الحقّ الأقدم ، والآخر : مايرجونه من فك أسارهم وإقالة عثارهم ، ففعل الله ماهو أهله ، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطع حبله ، وضاقت به سُبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونُصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ماكان بأيديهم حاصلاً ، وأن يستنقذ ماصار في ملكهم داخلاً ، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفرة ، والحيلة في السرّ (فيهم) (٣) أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أعتام(٤) أعجام إنْ هم إلاّ كالأنعام، لايعرفون ربّاً إلاّ ساكن قصره(٥)

---

(١) في الروضتين ١ : ٢٤١ (خطبها وخبطها) .

(٢) مثنى مفردها ود ، الود : مصدر المودة ، الود الحب يكون في جميع مداخل الخير (لسان العرب) .

(٣) سقط من الأصل ٥٧ / ظ والإضافة عن الروضتين ١ : ٢٤١ .

(٤) يقال : عتم الليل وأعتم إذا مر قطعة من الليل (لسان العرب) وهنا قصد بها لونهم الأسود الذي يشبه سواد الليل .

(٥) قصد الخليفة الفاطمي .

ولا قبلة إلاّ مايتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحُمة وحميّة ولهم حواش لقصورهم ، بين داع تلطفَ في الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله(١) ، ومن بين كُتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل (٢) ، وخدّامٍ يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِحَل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير . ومهابة تمنع (مـن خطرات) (٣) الضمير ، فكيف (بخطرات) (٤) التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدولٍ إلى غير مراد الله سبحانه بالتنزيل ، وكفر سُمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويُحكم بغير حُكمه ، فما زلنـا نسحتُهم سحت المبـارد للشفار (٥) ، ونتحيّفهم (٦) تحيّف الليل والنهار للأعمار بعجائب تدبير لاتحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لاتحويها الأساطير ، ولطائف توصل ماكانت من حيلة البشر ، ولا مُقدرهم لولا إعانة المقادير . وفي/أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج دفعةً إلى بلبيس (٧) ودفعة إلى (٥٧ / ظ)

---

(١) خاتله : خدعه عن غفلة (لسان العرب) .

(٢) أسل (في لسان العرب) نبات له أغصان كثيرة دقاق بلا ورق ، والأسل من الأغلاث .

(٣) في الروضتين ١ : ٢٤٢ (مايكنه) .

(٤) المصدر السابق (بخطوات) .

(٥) الشفار : مفردها الشفرة من الحديد ماعرض وحدد (لسان العرب) .

(٦) تحيف ماله : نقصه وأخذ من أطرافه . وتحيف الشيء مثل تحوفته إذا تنقصته من حافاته (لسان العرب) .

(٧) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢٦٧ .

دمياط وفي كلّ منهما وصلوا بالعدد الأكثر والجيش الأوفر وخصوصاً في نوبة دمياط ، فإنّهم نازلوها بحراً في ألف مركبٍ مقاتل وحامل، وبرّاً في مائتي ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين ، يُباكرونها ويُراوحونها ، ويُماسونها ويُصابحونها القتال الّذي يَصلبه الصليب ، والقراع الّذي ينادي به الموت من مكان قريب ، ونحن نقاتل العدوّين الباطن والظاهر ، ونصابر الضدّين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره ، وأيّدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد ، فأخرجناهم من القاهرة تارةً بالأوامر المرهقة لهم [وتارة](١) بالأمور الفاضحة منهم [وطوراً](٢) بالسيوف المجردة وبالنار المحرقة حتى بقي القصر ومَنْ به من خدم ومن ذريّة قد تفرّقت شيعته وتمزّقت بدعه ، وخفتت دعوته وخفيت ضلالته ، فهنالك تمّ لنا إقامة الكلمة والجهرَ بالخطبة والرفع للواء (السواد)(٣) الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم بقائه ، لأنّه عُوجل لفرط روعته،ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ، ولمّا خلا ذرعنا ورحُب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفّار ، فلم تخرج سَنة إلاّ عن سُنّة أُقيمت فيها برّاً وبحراً مركباً وظهراً إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ماخطر أهلُ الإسلام فيها مُذ أُخذت من أيديهم ، ولا أُوجفت عليها ولا فيها ركابهم ، مذ ملكها أعاديهم ،

---

(١) سقط من الأصل (٥٨ / و) والاضافة عن الروضتين ١ : ٢٤٢ .

(٢) سقط من الأصل (٥٨/ و) والاضافة عن الروضتين ١ : ٢٤٢ .

(٣) في الروضتين ١ : ٢٤٢ (الأسود) .

فمنها ماحكمت فيه يد الخراب ، ومنها ماستولت عليه يد الاكتساب ، ومنها : قلعة بثغر أيلة (١) كان العدوّ قد بناها في بحر الهند (٢) وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم فسبى (٣) منه خلقاً ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ، أن يقوم به من نارُه غير برد وسلام» . ثم قال: (٥٨ / و)

«وكان باليمن ماعُلم من [أمر] (٤) ابن مهدي الضالّ الملحد المتبدع المتمرّد وله آثار في الإسلام ، وثأرٌ طالبهُ النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنّه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهنّ بالثمن البخس ، واستباح منهنّ كلّ مالا يقرّ لمسلم عليه نفس ، ودان ببدعةٍ صعبة ، ودعا إلى قبر أبيه وسمّاه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها (٥) ، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها ، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلّفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة ، وسار إليه فأخذناه ولله الحمد ، وأنجح فيه القصد والكلمة هنالك بمشيئة الله تعالى إلى الهند سامية ، وإلى مايقتضى الإسلام عذرته متمادية ، ولنا في الغرب أثر أغرب ، وفي أعماله أعمالٌ دون مطلبها مهالك ، كما يكون المهلك دون المطلب ،

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول – الحاشية رقم ٢ ص ٣١٠ .

(٢) ربما قصد به مايسمى في عصرنا ببحر العرب والمؤدي إلى البحر الأحمر الذي تتاخم شواطئه الشرقية شبه جزيرة العرب .

(٣) في الروضتين : ١ : ٢٤٢ (فساء) .

(٤) من الروضتين ١ : ٢٤٢ .

(٥) أجاحها : أهلكها .

وذلك أنّ بني عبد المؤمن(١) قد اشتهر أنّ أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عمر ،وجيوشهم لاتطاق وأمرهم لايشاق ، ونحن بحمد الله قد تملّكنا مايجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيّرنا إليها عسكراً بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : برقة (٢) قفصة (٣) قسطيله (٤) توزر (٥) كلّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ، أمير المؤمنين سلام الله عليه ولا عهد للإسلام بإقامتها ، وتنفّذ فيها الأحكام بعملها المنصور وعلامتها؛ وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهدهم وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكباً كلّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً ، ويرجو منّا وعداً ويخاف وعيداً ، وقد صدرت

---

(١) هو عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ، وأقام صرحها السياسي وغير السياسي،وابن تومرت المؤسس العقائدي لحركة الموحدين ، توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ) بمدينة سلا .

انظر البداية والنهاية ١٢ ص ٢٤٦ ، شذرات الذهب ٤ ص ١٨٣ .

(٢) برقة (في ياقوت): اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية واسم مدينتها إنطابلس وتفسيره : الخمس مدن ..) . نقول : هي إقليم كبير في الشمال الغربي من القطر الليبي وعاصمته مدينة طرابلس .

(٣) قفصة (في ياقوت) هي بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام ، مختطة في أرض سبخة لاتنبت إلا الأشنان والشيح ...) . ونقول : هي حالياً تقع في القطر التونسي إلى الشمال من شط الجريد .

(٤) قسطيلة (في ياقوت) مدينة في الأندلس وهي حاضرة نحو كورة البيرة ... وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين وبها تمر قسب كثير يجلب إلى أفريقية ....

(٥) توزر (في ياقوت) مدينة في أقصى أفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد معمورة بينها وبين نفطة عشرة فراسخ وأرضها سبخة وبها نخل كثير .

عنّا بحمد الله تقاليدها وألقيت إلينا مقاليدُها ، وسيرنا الخلع والمناشير والألوية بما فيها من الأوامر والأقضية ، فأمّا الأعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الّذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم/ (٥٨/ظ) الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر والجالوت الأكفر ، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ومناقلات ظاهرة وسريّة ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كلّ واحدٍ منهما يُظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهاداة ومن مفاضحة إلى مناصحة ، حتى أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يُخف أمرها ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية ، كان حين علم بأنّ صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغُلبا وقُسرا وهُزما وكُسرا ، أراد أن يظهر قوّته المستقلة ، فعمّر اسطولاً استوعبَ فيه ماله وزمانه فله الآن خمس سنين يكثر عدّته ، وينتخب عُدّته إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمرٌ رائع وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حَمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجله وما هو إلاّ إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش مااحتفل ملك بنظيره لولا أنّ الله خذله ، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويّة كلّ هؤلاء تارة يكونون غزاةً لاتطاق ضراوة ضُرّهم ، ولا تُطفأ شرارة شرّهم ، وتارة يكونون سُفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الحكّام المرهوبة ، وما منهم الآن إلاّ مَنْ يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ،

وكلّهم قد قرّرت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة على مانُريد ويكرهون وعلى مانؤثر وهُم لايؤثرون ، ولمّا قضى الله سبحانه بالوفاة النورية وكنّا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج بانياس، وأشرفوا على اجتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها ، استصرخ بنا صاحبها فسرنا
(٥٩ / و) مراحل اتّصل بالعدوّ أمرها ، وعُوجِل / بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ماانتظم حكمها ثمّ عدنا إلى البلاد ، وتوافيت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء،وتشتت الأمور وتقطّعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكلّ جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيّفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعُوقبوا وصُودروا ، والمماليك الأعماد الّذين خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجُعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور ، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف ، وساءت (١) سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكلّ واحد يتّخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً ، وعلمنا أنّ البيت المقدّس إنْ لم تتيسّر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يُجرّد العزم في قلعه ، وإلاّ نبتت عروقه واتّسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهممُ القادرين بالقعود آثمة (٢) وإنّا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدوابّ التي بها على الجهاد القوّة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة

---

(١) في الروضتين ج ١ (وسارت) ص ٢٤٣ .
(٢) في الروضتين ج ١ (أئمه) ص ٢٤٣ .

واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متّسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع والأوقات مساعدة ، وأصلحنا مافي الشام من عقائد مختلّة وأمور معتلـــة وآراء فاسدة وأمراء متحاسدة وأطماع غالبة وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فإنّا أولى به من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كلّ مايقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد وهو تقليد جامع بمصر والمغرب واليمن والشام ، وكلّ ماتشتمل عليه الولاية النورية ، وكلّ مايفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا /وسيوف عساكرنا ، ولمن (٥٩ / ظ) نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً جامعاً ، يضمن للنعمة تخليداً والدعوة تجديداً مع ماينعم به من السمات الّتي فيها الملك؛وبالجملة: فالشام لاينتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدّس ليس له قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منّا خصماً لايملّ السوء حتّى يملّوا ، وقرناً لايزال محرّم السيف حتّى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حسنُ الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده،وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ، ويد كلّ مؤمن تحت بُرده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الأقصى الّذي أسرى الله إليه بعبده » .

ومن كتاب آخر فاضلي أيضاً إلى الديوان ببغداد في تعداد ماله من الأيدي (١) : « والّذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك الّتي دوّخها ، وسُنن الضلال الّتي نسخها ، وعقود الإلحاد الّتي فسخها ،

---

(١) الروضتين ج١ ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

ومنابر الباطل التي رحضها (١)،وحجج الزندقة التي دحضها ، فللّه عليه المنّة فيه إذ أهّله لشرف مشهده ، وما فعله إلاّ لوجهه،ويد الله كانت عون يده،وإلاّ فقد مضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحرّكت للفلك في قلعها نابضة،وغبرت الأحوال على تلك البدعة، وما ثارت لأفراسها مرابضه ، فشُكر يد الله فيما أجراه على يده ، منها أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفّار. وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوّحت (٢) من الكفر خضراء دمنه » . ومن كتاب آخر يذكر فيه إعادة الخطبة بمصر للدولة العباسية : « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها ، فقضى من الأمر ماقضى.وأسخط من لله تعالى في سخطه الرضا. وجعل وجه لابسي السواد مبيضّاً ، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ، ودوّخت عليه الأمم ، وشفى الصدور . وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تجارة لن تبور » . ومن كتاب آخر فاضلي أيضاً : « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلاّ وعداً كان انعقد

(٦٠ / و) بينه وبين نور الدين ، رحمه الله في أن يتجاذبا/ طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكريي برّه وبحره ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره ، فلمّا قضى الله تعالى بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور ، واشتهرت للمسلمين عورات ، وضاعت ثغور ، وتحكّمت الآراء الفاسدة ، وفورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفّار محمولةٌ إليها جزى المسلمين ،

---

(١) الرحض (في لسان العرب) الغسل . رحض يده والإناء والثوب وغيرها يرحضها رحضاً : غسلها .

(٢) صوح (في لسان العرب) تصوح البقل وصوح : تم يبسه ، وقيل : إذا أصابته آفة ويبس .

والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد. يشكون ضيق حلقات الاسار . وتطرّق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية ، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطّة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار ، وسيّروا الصليب ومن كُسِيَ مذابحهم بقمامة ،وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ، ونفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صُوَر من يصوّرونه ممّن يسمونهم القدّيسين وقالوا : إنّ الغفلـــة إن وقعت أوقعت فيما لايُستدرك فارطه . وأنّ كلاً من صاحب قسطنطينية ، وصاحب صقلية وملك الألمان ، وأصحاب الجزائر (١) : كالبندقية (٢) والبيشانية (٣) والجونية (٤) وغيرهم . قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيل القويّة ، وللإسلام بأمير المؤمنين أعزّ ناصر لاسيّما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقّاً ، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلقاً» .

وخرج (٥) عسكر الموصل لقتال السلطان في هذه السنة بعد رحيله عن حلب ،فالتقى العسكران عند قرون حماة في شهر رمضان فانكسر المواصلة ، فنزل السلطان على حلب مرّة ثانية وحاصرها ، فصالحوه على أن أخذ المعرّة وكفر طاب وبارين والسكة والخطبة لابن نور الدين رحمهم الله تعالى .

---

(١) في الروضتين ص ٢٤٤ (وملوك ماوراء البحر وأصحاب الجزائر) .

(٢) البندقية : مدينة إيطالية تقع في الشمال الغربي من بحر الأدرياتيك . (انظر مصور إيطاليا في الأطلس) .

(٣) نسبة إلى برشلونه وهي مدينه إسبانية تقع في الشمال الشرقي من إسبانيا على ساحل البحر الأبيض المتوسط . (انظر مصور إسبانيا في الأطلس) .

(٤) نسبة إلى مدينة جنوا الإيطالية الواقعةإلى الغرب من إيطاليا على ساحل البحر الأبيض المتوسط (انظر الأطلس مصور إيطاليا) .

(٥) انظر : سنا البرق ١٨٦ — ١٨٨ ، النوادر السلطانية ٣٢ — ٣٣ ، الكامل ج ١١ ص ٤٢١ — ٤٢٢ ، الروضتين ج ١ ص ٢٤٨ ، شفاء القلوب ٨٦ — ٨٧ .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين (١)

وقد تقرّر العماد الكاتب الأصفهاني نائباً عن القاضي الفاضل لصلاح الدين رحمه الله في كتابة الإنشاء ، ومدح العماد المذكور (٦٠ / ظ) السلطان بقصيدة من جملتها / :

وللناس (٢) بالملك الناصر الصّلاح صلاحٌ ونصرٌ وخيرُ
هو الشمس أفلاكه في البلاد ومطلعه سرجه والسـريرُ
إذا ماسطا أو جبى واجتبى فما اللّيث ما حاتم ماثبيرُ ؟

وله يمدح القاضي الفاضل من جملة قصيدة في معنى استنابته عنه هذه :(٣)

١ — عاينت طود (٤) سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضلِ
٢ — ورأيت سحبان البلاغة ساحباً
ببيانه ذيل الفخار لوائلِ
٣ — (خلف الحصافة)(٥) والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائلِ

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، سنا البرق ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) خريدة القصر ج١ ص ١٩ — ٢٩ ، الروضتين ج١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧

(٣) انظر الروضتين ج١ ص ٢٥١ ويذكر أبو شامة أن العماد مدح بها القاضي الفاضل في أول لقاء له مع القاضي الفاضل في حمص .

(٤) الطود (في لسان العرب) الجبل العظيم .

(٥) في الأصل (٦١ / و) : (أبصرت قساً في) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ . وقد أثبتنا ما هو صحيح عن الروضتين ج١ ص ٢٥١ ، لأن هذا هو صدر البيت الذي يقول فيه :

(أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً فعرفت أني في فهاهة باقل)

٤ — بحر من الفضل الغـــزير خضمـــه
(طافي)(١) العباب ومـــاله من ساحلِ
٥ — وجميع مافي الأرض سبعة أبحـــرٍ
وبحوره تسمــــى بعشر أنـــاملِ
٦ — في كفّه قــلم يعجّل جريَـــه
ماكان من أجلٍ ورزقٍ آجــلِ
٧ — يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حدّاه بل جريُ القضاء النـــازلِ
٨ — نابت كتابَتهُ منـــاب كتيبـــةٍ (٢)
كفلت بهزم كتائب وجحـــافِلِ
٩ — فعدوّه في عَـــدوه ووليُّـــــه
في عدلهِ أكرم بعـــادٍ عـــادلِ
١٠— ريّان من ماء التقى صادٍ إلى
كسب المحامد وهي خـــير مناهلِ
١١— ياواحد العصر الذي بذ الـــــورى
فضـــلاً بغير مشابهٍ ومشـــاكلِ
١٢— مالي وجاه الجـــاهلين فأغنـــني
عنهم كفـيَتهـــم وجُد بالجـــاه لي

(١) في الروضتين ج١ ص ٢٥١ (طامي) .
(٢) الكتيبة : قطعة عسكرية يبلغ تعداد مقاتليها حوالي ١٥٠ مقاتل .

١٣– أرجوك معتنياً لدى السلطان بـي
كرماً فمثلك يعتني بأماثلِ
١٤– قرّر لي الشغل المبجّل مخلّياً
بالي من الهمّ المقيم الشاغلِ

(١) وجاء رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان . وكان العام جدباً ، فأذن للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم . وسار معهم القاضي الفاضل ،واعتمد على العماد الكاتب فيما كان بصدده ، وواظب (٦١ / و) السلطان على الجلوس في دار العدل / وعلى الصيد . ثمّ أنفذ في طلب العسكر المصري بسبب أنّ المواصلة أنكروا على الحلبيّين مصالحتهم للسلطان ، وساروا جميعاً لقتال السلطان . فالتقى بهم ثانياً فكسرهم ثانياً . ثم فتح جملة من البلاد الّتي حوالي حلب . منها : بزاعا (٢) ومنبج وعزاز .

(٣) ووثبت الحشيشية على السلطان مرّة ثانية وهو على عزاز فجرحوه وقُتلوا . ثمّ نزل على حلب وضيّق على أهلها .

ومن كتاب طويل فاضلي إلى بغداد عن السلطان : (٤) « يطالع بأنّ الحلبيّين والموصليّين لمّا وضعوا السلاح ، وخفضوا الجناح ،

---

(١) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٥٢ – ٢٥٧ ، سنا البرق ص ١٩٤ – ٢٠٩ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول – الحاشية رقم ١ ص ١٨٩ .

(٣) انظر : الكامل ١١ : ٤١٨ – ٤١٩ ، الروضتين ١ : ٢٥٨ – ٢٥٩ ، سنا البرق ٢١٠ – ٢١٢ ، المقريزي السلوك ج ١ ق ١ ٦٠ – ٦٢ ، شذرات الذهب ٤ . ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٤) الروضتين ١ : ٢٥٤ ، سنا البرق ١٩٥ – ١٩٦ .

اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيّين في التبكارات (١) إلى الكفر ، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها والأيمان فبذلوها ، وسار رسولنا وحلّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده وأمراء مشهده يميناً جعل الله فيها حُكماً ، وضيّق فيها (٢) المجال على من كان حنيفاً مسلماً ، وعاد رسوله يسمع منّا اليمين ، فلمّا حضر وأحضر نسختها أومأ بيده ليخرجها ، فأخرج نسخة يمين، كانت بين الموصليّين والحلبيّين مضمونها الاتّفاق على حزبنا والتداعي إلى حربنا والتساعد على إزالة خطبنا والاستنفار لمن هو على بُعدنا وقربنا ، وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأول ، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول وقلنا : هذه يمين عن الأيمان خارجة ، (وأردتُ عَمْراً وأراد الله خارجة) (٣) ، وانصرف الرسول عن بابنـا ، وقد نزهنا الله تعالى أن يكون اسمه معرّضاً للحنث العظيم والنكث الذميم ، وعلمنا أن الناقد بصير ، والآخذ قدير ،والمواقف الشريفة النبوية — أعلاها الله تعالى — مستخرجة الأوامر إلى الموصلي ، إما بكتاب مؤكد بأن لاينقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وإمّا أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه » .

---

(١) في الروضتين (البيكارات) .

(٢) في الروضتين (في نكثها) .

(٣) مثل جرى بعد المؤامرة المزعومة حول قتل أطراف الخلاف على الخلافة وهم : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ،وعمرو بن العاص ، وكان خارجة قاضياً يصلي بالناس فقتله الخارجي ظناً منه أنه عمرو بن العاص ، فذهب بعد ذلك مثلا .

(٦١ / ظ) ثم ذكر أمر الفرنج ، ثم قال : «والمملوك بين / عدوّ إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً ولا ينوون لما استُحفظوا حفظاً ، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلاّ بلاده ولا يقارعهم إلاّ أجناده) . ثم طلب خروج الأمرِ بخطاب جميع ملوك الأطراف ، أن يكونوا له على المشركين أعواناً ، وأن يمتثلوا أمر نبينا — صلّى الله عليه وسلّم — في أن يكونوا بنياناً (١) ، فيعضدوه إذا سعى ، ويلبّوه إذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدّس الذي طابت النفوس عن ثأره، وتطأطأت الرؤوس تحت عاره ، وصارت القلوب صخرة لاترقّ على صخرته ، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرّته ، فإن قعدت بهم العزائم ، وأخذتهم في الله لومة لائم ، فلا أقلّ من أن لايكونوا أعواناً عليه ، يلفتونه عن قصده ، حريصين على إيصال المكروه إليه » . ومن كتاب فاضلي أيضاً إلى العادل أخي السلطان (٢) يخبره بأنّ السلطان لم يتألّم بوثوب الحشيشية عليه وهي المرّة الثانية : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله تعالى للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلاّ خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها ، واندملت لساعتها والركوب على رسمه والحصار لاعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله مايُضيق صدراً ولا مايشغل سراً » .

---

(١) قصد الحديث النبوي الشريف (إن المؤمن كالبنيان ....) انظره في البخاري : صلاة ٨٨ ، أدب ٣٦ ، مظالم ٥ ، ابن الحجاج : بر ٦٥ ، الترمذي : بر ١٨ ، النسائي : زكاة ٦٧ ، ابن حنبل ج٤ ١٠٤ — ٤٠٥ — ٤٠٩ .

(٢) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٥٨ .

قال ابن أبي طي : (١) لمّا ملك السلطان صلاح الدين منبج في التاسع والعشرين من شوّال سنه إحدى وسبعين ، صعد الحصن ، وجعل يستعرض أحوال ابن حسّان (٢) وذخائره ، فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار ، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماينآهز ألفي ألف دينار ، فحانت من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً : يوسف يوسف(٣) فسأل عن هذا الاسم ؟ فقيل : له ولد يحبّه ويؤثره اسمه يوسف ، وكان يدّخر هذه /الأموال (٦٢ / و) له ، فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت ماخُبىء لي ، فتعجّب الناس من ذلك .

(٤) ووصل إلى السلطان في هذه السنة أخوه شمس الدولة توران‌شاه من اليمن ، وأرسل اليه كتاباً فاضلياً أوّله : «أنا يوسف ، وهذا أخي قد مَنّ الله علينا »(٥). وفي آخره « ولقد أحسن عدنان المبشّر ، إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغرس في القلوب مايسرّنا ويسرّه جنى غرسه » .

وفيها : دخل قراقوش(٦) غلام‌تقي‌الدين إلى المغرب ، ففتح بلاداً .

---

(١) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) هو : ابن حسان المنبجي الذي وقف تحت حصن قلعة جعبر وخاطب صاحبها أثناء حصار الأتابك زنكي سنة ٥٤١) . انظر القسم الأول ص ١٩٦ .

(٣) في الروضتين يذكر كلمة (يوسف) مرة واحدة .

(٤) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، سنا البرق ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥) من الآية ٩٠ من سورة يوسف .

(٦) هو : بهاء الدين قراقوش الأسدي متولي القصر بمصر وهو تركي الأصل (ت ٥٩٧ هـ) .

انظر الروضتين ١ : ٢٦٨ ، والذيل ص ١٩ ، شذرات الذهب ٤ : ٣١٣ - ٣١٤ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢ .

وفيها (١) : توفي الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ، صاحب التاريخ الكبير لدمشق .

وفيها (٢) : قتل صديق بن جولة : صاحب بصرى وصرخد .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين (٣)

ففيها : صالح السلطان الحلبيّين والمواصلة ، وأهل ديار بكر صلحاً عاماً ، وسار إلى بلاد الحشيشية(٤) ،فحصر حصنهم مصيات(٥) ، فشفع فيهم خاله شهاب الدين الحارفي(٦) صاحب حماة لأنّهم جيرانه ، فرحل عنهم وقد انتقم منهم ، وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع ، فخرج

---

(١) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٦١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٩ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٤ .

(٢) هو شمس الدين صاحب بصرى وصرخد صديق ابن جولي . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ . سنا البرق ١٧٦ .

(٣) انظر الروضتين ج١ ص ٢٦١ ، سنا البرق ٢١٧ — ٢١٩ ، السلوك ج ١ ق١ ٦٢ — ٦٣ .

(٤) قصد بها (الإسماعيلية) .

(٥) مصيات بالفرنجية مصياط Messiat : قلعة ومدينة صغيرة في وسط وغرب سورية ،تقع فوق تل متدرج الانحدار في الشعاب الشرقية من جبال النصيرية. والمدينة الصغيرة محاطة بسور واق بسيط . تقع القلعة عند نهايتها الشرقية وتتماشى أسوارها الخارجية مع الخطوط العامة للمرتفع الصخري المتطاول الذي تنتصب فوقه . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ، وكذا معجم البلدان .

(٦) هو : شهاب الدين محمود بن تنش الحارفي صاحب حماة ، خال السلطان صلاح الدين يوسف (ت ٥٧٣ هـ) . انظر الروضتين ج١ ص ٢٦١ — ٢٧٥ ، والأصل ٦٥ / ظ ص ٢٧٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٩ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٦ ويذكره (تكش) .

إليهم ابن المقدّم (١) من بعلبك، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسيرٍ، وأحضرهم عند السلطان وهو محاصر مصيات .

وفيها (٢) : توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة ، وجلس ابن أخيه ضياء الدين (٣) مكانه ، ثمّ استعفى من القضاء ، وتولاّه شرف الدين بن أبي عصرون (٤) ومحيي الدين ابن الزكي (٥) كأنّه نائبه وولايته بتوقيع سلطاني ، ثمّ استقلّ به محيي الدين هذا في سنة سبع وثمانين . وفيها (٦) : توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء الذي تقدّم ذكر رسائله إلى بغداد؛ وهو أوّل خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية ، وكان جواداً ممدحاً، يقصده الشعراء فيكثر جوائزهم، وترسّل إلى الديوان غير مرّة .

وفيها (٧) : خرج السلطان إلى مصر رابع ربيــع الأوّل ،

---

(١) انظر ترجمته في القسم الأول – الحاشية رقم ١ ص ٤٠٣ .

(٢) انظر الروضتين ج ١ ص ٢٦٢ ، سنا البرق ص ٢٢٢ – ٢٢٥ .

(٣) هو : ضياء الدين بن القاسم تاج الدين الشهرزوري . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٦٢ ، سنا البرق ٢٢٢ .

(٤) هو : شرف الدين أبو سعد ، عبدالله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي ، المشهور بابن أبي عصرون (ت ٥٨٥ هـ) . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٦٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٠٩ ، سنا البرق ص ٢٢٤ ، والحاشية رقم ٣٢٤ في شفاء القلوب ص ١٢١ .

(٥) هو : محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين . انظر سنا البرق ٢٢٩ ، الروضتين ج ١ ص ٢٦٣ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص٣٤٦ .

(٦) الروضتين ج ١ ص ٢٦٣ ، سنا البرق ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٧) النوادر السلطانية ص ٣٤ ، الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ – ٢٦٨ ، سنا البرق ص ٢٣١ – ٢٣٣ و ٢٣٩ – ٢٤٠ . السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٣ .

ودخل القاهرة في السادس (١) والعشرين منه ، وأمر بإدارة السور على البلدين وببناء المدرسة بالتربة الشافعية ، واتخاذ بيمارستان بالقصر ، ووقف عليهما وقوفاً ، وأبطل منكراً ،وأشاع معروفاً/، (٦٢ / ظ) وأضرب عن ضرائب فمحاها ، وهبّ إلى مواهب فأسداها ، واهتمّ بفرائض ونوافل فأدّاها .

ثمّ (٢) خرج في شعبان إلى ثغري دمياط والإسكندرية ، وتردّد إلى الحافظ أبي طاهر السلفي (٣) رحمه الله ثلاثة أيام للسماع ، وشاهد ماااستجدّه من السور الدائر ، وأراد أن لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفّار والجهاد في المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه،وتغيّرت آلاته ، فأمر بتعميره وجمع له من الأخشاب والآلات أشياء كثيرة ، وكان له بدمياط بُنًى كثيرة غير الأسطول، ثمّ عاد إلى القاهرة ومدحه العماد بقصيدة : منها (٤) :

ويوسف مصر بغير التقى
وبذل الصنائع لم يوصف

فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تُجْرِها ينظف

---

(١) في الروضتين ج ١ ص ٢٦٦ (سادس عشر) .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ، سنا البرق ٢٤١ –٢٤٣ .
(٣) هو : الشيخ الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن سلفة السلفي (ت ٥٧٦ هـ) . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٦٩ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٧١ ، معجم البلدان ج ١ ص ٧٨ .
(٤) انظر الروضتين ج ١ ص ٢٦٩ .

وأهد إلى الأسـبتار (١) البتـار
وهُدّ السقوف عـلى الأسقُفِ
وخـلّص من الكفر تلك البـلاد
يُخلّصـكَ الله في المـوقفِ

وقال العماد (٢) : في هذه السنة أيضاً يمدح عزّ الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وهو ابن أخي السلطان ، وأخو تقي الدين عمر ، بقصيدة حسنة منها :

١ — شادن كالقضيب لـدن المهزّه
سلبت مقلتاه قـلبي بغمزه

٢ — كلّما رمت وصله رام هجري
وإذا زدت ذلّةً زاد عـزّه

٣ — للصبا من عذاره نسج حسنٍ
رقم (الحُسن) (٣) في الشقائق طرزه

٤ — وعزيز عـليّ أن اصطـباري
فيه قد عزّه الغـرام وبزّه

٥ — مارأى مارأيت مجـنون ليلى
في هـواه ولا كثيّر عـزّه

(١) انظر تعريفها في حواشي القسم الأول — حوادث سنة ٥٨٣ .
(٢) انظر خريدة القصر ج ١ ص ١١٩ — ١٢٨، الروضتين ج١ ص ٢٦٧ .
(٣) في الروضتين (المسك) .

٦ ــ ماذكرنا الفسطاط إلاّ نسينا
مارأينا بالنـيربين والأرزه

٧ ــ فمها (١) الجيزة الجوازي لهـا الميـ
زةُ حسناً على ظباء المـزه

منها :

٨ ــ ونصيري عليه نائل عزّ الديـ
ـن ذي الفضل خلّـد الله عزّه

٩ ــ فرّغ الكنز (٢) من ذخائر مالٍ
مالئاً من نفائس الحمد كـنزه

١٠ــ همّة مستهـامة بالمعـالي
للدنايـا أبيّـة مشمئزّه/ (٦٣ / و)

قال العماد (٣) : ووفد إلى السلطان إلى مصر في هذه السنة علم الدين أبو علي الحسن بن سعيد الشاتاني (٤) ، وهو من أدباء الموصل ، وشعرائها ، وفصحائها ، وظرفائها ، ومدحه بقصيدة حسنة مطلعُها (٥) :

---

(١) في الروضتين (فها) .
(٢) في حاشية الأصل (٦٣/و) يشرح معناها (الكثر) .
(٣) سنا البرق ٢٤٩ – ٢٥٠ .
(٤) هو : أبوعلي الحسن بن سعيد بن عبدالله ، الملقب علم الدين ، وشاتان من نواحي ديار بكر ، مقامه بالموصل ومقر أهله أيضاً (ت٥٩٩هـ) انظر : تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ١٧٧ ،ابن خلكان ج ١ ص ١٤٠ ، في معجم البلدان يذكر وفاته سنة ٥٧٩ انظره في شاتان ، خريدة القصر ج ٢ م ص ٣٦١ ومابعد ، الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .
(٥) انظر : الخريدة ج ٢ ص ٣٦٤ ، سنا البرق ٢٥٠ ، الروضتين ج ١ ٢٧١ ويذكرها في عام ٥٧٣ هـ .

١ – (غدا) (١) النصر معقوداً برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بهـا أحرى

٢ – يمينك فيها اليُمن واليُسر في اليسرى
فبُشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

فجمع له عزّ الدين من الأمراء ألف دينار .

وكانت أعلام السلطان صفراً وفيها يقول بعض الفضلاء (٢) :

١ – إذا (اسود) (٣) خطب دونه الموت أحمر
أتت بالأيادي البيض أعلامه الصفر

٢ – (فمذ) (٤) ظهرت منصوبة جزمت بها
ظهور العدى من رفعها (لخفض الكفر) (٥)

٣ – (ولملا) (٦) تجوز الأرض شرقاً ومغرباً
ولله في إعـــلاء رتبته سرّ

وفيها (٧) : أبطل السلطان المكس الذي كان بمكّة على الحجاج، وعوّض صاحب مكّة عن ذلك أن يحمل إليه في كلّ سنة ثمانية آلاف

(١) في الخريد (أدى) .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٢٧١ .
(٣) في الروضتين (وأسود) .
(٤) في الروضتين (وقد) .
(٥) في الروضتين (الخفض والجر) .
(٦) في الروضتين (وأضحت) .
(٧) الروضتين انظر ج٢ – ص ٢٣ .

إردب حنطة إلى ساحل جُدّة . وقرّر أيضاً حمل غلاّت إلى المجاورين بالحرمين والفقراء ومن هناك من الشرفاء ، ووقف لذلك وقوفاً خلّد بها إلى قيام الساعة معروفاً .

وفيها : وصلت أساطيل ثغري دمياط والإسكندرية بسبي الكفّار ، وقد أوفت على ألف رأس .

وفي هذه السنة (٢) : قدم السلطان مؤيد الدولة أبو الحارث (٣) أسامة بن مرشد بن سويد الملك أبي الحسن علي بن منقذ الكناني ، ومدحه بأبيات منها :

١ ــ حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا

٢ ــ لأنّي حييت إلى أن لقيت بعـ
ـد العدوّ صديقاً حبيباً

فأكرمه السلطان كثيراً ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وبلغ من العمر ستاً (٤) وتسعين سنة ، لأنه توفي في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وإليه كانت النهاية في الشجاعة والبلاغة والكرم .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤ .

(٢) سنا البرق ٢٢٦ – ٢٢٨ ، وفي الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ يذكر أنه مدح بهما الملك الصلاحي عام سبعين عند مقدم أسامة من حصن كيفا إلى دمشق ، وكذا في الخريدة ج ١ ص ٤٢٩٨ – ٤٩٩ ، البداية والنهاية ١٢ ص ٣٣١ – ٣٣٢ ، شذرات الذهب ٤ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ،

(٣) في خريدة القصر ج ١ ٤٩٨ – ٤٩٩ (أبو المظفر) ، الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

(٤) في سنا البرق ٢٢٨ (ومات خمس وثمانين) .

وولده أبو الفوارس (١) من هو كان جليس السلطان وأنيسه . ولأسامة هذان البيتان المشهوران في سنّ انقلعت :

١ – وصاحب (٢) لاأملّ الدّهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهدٍ / (٦٣ / ظ)

٢ – لم ألقه مذ تصاحبنا (فمذ نظرت)(٣)
(عيني إليه) (٤) افترقنا فرقة الأبد

وقال العماد : ومن عجيب مااتّفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي ، وقد توفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وهي :

١ – وصاحب لاأملُّ الدّهرَ صحبته
يشقى لنفعي وأجني ضُرّه بيدي

٢ – أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصـ
ـري ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي

٣ – أخلو ببيتي من خالٍ بوجنته
مراده زائد التقصير للمُددِ

---

(١) هو : عضد الدين أبو الفوارس ، جليس السلطان صلاح الدين وأنيسه . انظر سنا البرق ص ٢٢٨ ، الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) انظر خريدة القصر ج ١ ص ٤٩٩ – ٥٠٠ ، سنا البرق ٢٢٧ ، الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) في الخريدة (فحين بدا) وكذا في الروضتين وسنا البرق .

(٤) في الخريدة (لناظري) وكذا في الروضتين وسنا البرق .

٤ ــ لم ألقه مذ تصاحبنا (فمذ وقعت)(١)
(عيني عليه)(٢) افترقنا فرقة الأبدِ

قال : فالأشبه أنّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غيّر فيهما كلمات ، وقد وجدت الأول على صورة أخرى (وصاحب ناصح لي في معاملتي) ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنُسبا إليه ، ويجوز أن يكون اتفّقا اتفّاقاً والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين (٣) :

فاهتمّت بالغزاة همّة السلطان إلى غزة وعسقلان ، فخرج ثالث شهر جمادى الأول (٤) ، ونزل في آخره على عسقلان(٥) فسبى وسلب وغنم وغلب ، وجمع هناك من كان معه من الأسارى فضرب أعناقهم ، وتفرّق عسكره في الأعمال مُغيرين ومبيدين ، فلما رأوا أنّ الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا ، وتوسّط السلطان البلاد ، واستقبلّ مستهلّ جمادى الآخرة بالرملة (٦)

---

(١) في الروضتين (فحين بدا) وكذا في سنا البرق .

(٢) في الروضتين (لناظريَ) وكذا في سنا البرق .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٣٤ ــ ٣٥ ، الروضتين ج٢ ص ٢٧١ ــ ٢٧٤ ، سنا البرق ٢٥٢ ــ ٢٥٩ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤ ــ ٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٧ .

(٤) في الروضتين (فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأول) .

(٥) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية ٣ ص ٢٢١ .

(٦) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٣١٠ .

راحلاً ليقصد بعض المعاقل . فاعترضه نهر عليه تلّ الصافية (١) . فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافية فما شعر إلاّ بالفرنج طالبة بأطلابها حازبة بأحزابها ، قد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم وسرايا المسلمين في الضيـــاع مغيرة . ولرحى الحرب عليهم في دورهم مُديرة ، فوقف تقي الدين (٢) وتلقّاهم بصدره ، فقُتل من أصحابه عدّة ، وأصيب له ولد اسمه أحمد . وهلك من الفرنج أضعافهم . وصوّب العدوّ حملتهم على السلطان فثبت ووقف .

قال العماد : وسمعته يوماً يصف تلك النوبة ، ويشكر من جماعته الصحبة ويقول : رأيت فارساً يحثّ نحوي حصانه ، وقد صوّب إلى نحري سنانه فكاد يُبلّغني / طعانه ومعه آخران قد جعلا شأنّهما (٦٤ / و) شأنَه ، فرأيت ثلاثة من أصحابي ، خرج كلّ واحد إلى كلّ واحد منهم بادروه وطعنوه . وقد تمكّن مــن قربي فما مكّنوه ، وهم : إبراهيم بن قنابر ، وفضل الفيضي ، وسويد بن غشم ، وكانوا فرســان العســكر ، وشجعــان المعشر ، واتّفق لســعادة السلطان أنّ هؤلاء الثلاثة رافقوه ومافارقوه ، فما زال السلطان يسير ويقف إلى أن لم يبق من ظنّ أنّه يتخلّف ، ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسّفوا

---

(١) تل الصافية (في ياقوت) حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرمله .

(٢) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٤٤٩ .

السلوك في تلك الرمال والأوعاث (١) والأوعار (٢) ، وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار ، وأذن ذلك بتلف الدواب وترجّل الركاب ، ولغوب (٣) الأصحاب ، وفُقد كثير ممّن لم يُعرف له خبر ، ولم يظهر له أثر ،وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى(٤) وأخوه الظهير ومن كان في صحبتهم ، فضلّ الطريق عنهم ، وكانوا سائرين إلى وراء فأصبحوا بقرب الأعداء ، فأكمنوا في مغارة ، وانتظروا من يدلهم من بلد الإسلام على عمارة ، فدلّ عليهم الفرنج من زعم أنّه يدلّ بهم ، وسعى في أسرهم وعطبهم فأسروا ، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلاّ بعد سنين بنحو سبعين ألف دينار (٥) وفكاك جماعة من الكفار . قال : وما اشتدّت هذه النوبة بكسره ولا عدم السلطان نصره ، فإنّ النكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها ، وأدركت كلّ نفس مؤمنة مشتهاهـــا ، لكن الخروج من تلك البلاد شتّت الشمل ، وأوعر السهل ، وسُلك مع عدم الماء والدليل الرمل ، ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامة والهداية إلى

---

(١) الوعث : المكان السهل الدهش تغيب فيه الأقدام ، الطريق العسر الشاق .

(٢) الوعر : المكان الحزن الغليظ (ضد السهل) .

(٣) اللغوب (في لسان العرب) التعب والإعياء .

(٤) هو الفقيه الأمير ضياء الدين عيسى الهكاري ، كان من أصحاب أسد الدين شيركوه ، ودخل معه إلى مصر ، وبعد وفاة شيركوه لازم السلطان صلاح الدين إلى أن مات في ركابه سنة (٥٨٥ هـ) بمنزلة الخروبة بالقرب من عكا ونقل إلى القدس ودفن فيها . (انظر سنا البرق ص ٢٥٨ — ٣٢٩ وحاشيتها رقم ٩ ص ٢٥٨ ، البداية والنهاية ١٢ ص ٣٣٤ .

(٥) في الروضتين ج ١ ص ٢٧٣ (بستين أو سبعين) .

الاستقامة ، أنّ الأجلّ الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانيّة والأدلاء ، وأنّهم ماكانوا يفارقونه في الغداء والعشاء ، فلمّا وقعت الواقعة ، خرج بدوابّه وغلمانه وأصحابه وأدلاّئه وأثقاله ، وبثّ أصحابه في تلك الرمال والوهاد والتلال حتى أخذ خبر السلطان وقصده، وأوضح بأدلاّئه جدده ، وفرّق ماكان معه من الأزواد على المنقطعين ، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين ، فسهل ذلك الوعر ، وآنس بعد الوحشة القفو/وجُبر الكسر ، ودخل (٦٤ / ظ) القاهرة منتصف الشهر ، ونابت سلامته مناب الدهر .

وقال القاضي ابن شدّاد(١) : خرج السلطان يطلب الساحل، حتى وافى الفرنج على الرملة [وكان](٢) مقدّمهم البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب ، فإنّه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله ، وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان قدس الله روحه صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أنّ المسلمين كانوا قد تعبوا تعبئة الحرب ، فلمّا قارب العدوّ . رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة ، والميسرة إلى جهة (القلب) (٣) ، ليكونوا حالة اللّقاء وراء ظهورهم تلّ معروف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة ، هجم عليهم الفرنج وقدّر الله كسرهم ، فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلّوا في الطريق ، وتبدّدوا ، وأُسر

---

(١) انظر النوادر السلطانية ص ٣٤ — ٣٥ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٤ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٧ .

(٢) مابين القوسين من النوادر السلطانية لتوضيح المقصود .

(٣) في النوادر السلطانية ص ٣٥ (الميمنة) .

منهم جماعة منهم : الفقيه عيسى وكان وهناً عظيماً جبره الله بوقعة حطّين المشهورة ولله الحمد .

وفي (١) العشرين من جمادى الأول نزل الفرنج على حماة بسبب وصول كند كبير من البحر إلى الساحل ، فنصر الله أهل الإسلام بعد حصارهم لها أربعة أيام فانهزم الملاعين ، ونزلوا على حصن حارم ، فرحّلهم عنه ابن نور الدين بقطيعة بذلها لهم .

وخرج السلطان من مصر يوم عيد الفطر، واستناب بمصر أخاه العادل ، ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شوّال ، ومن كتاب فاضلي إلى بغداد : « خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غدراً صريحاً مقدّرين أن يُجهزوا على الشام ، لما كان بالجدب جريحاً ، ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأول ، فخرج إليهم أصحابنا ، وتضمّن كتاب سيف الدين — يعني المشطوب — أنّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل مابين فارس وراجل، شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم النصر والظهور ، ثمّ انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصلب ، (٦٥ / و) وتحطيم الأصلاب / مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة ، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب » .

ومن كتاب آخر فاضلي أيضاً (٢) : « وأمّا نوبة العدوّ في الرملة فقد كانت عثْرة علينا ظاهرها وعلى الكفرة باطنها ، ولزمتنا مانسي من اسمها ، ولزمهم مابقي من عزمها ، ولا دليل أدلّ على

---

(١) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ .

القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام تخوض بلاد الفرنج بالقوافل الكثيرة والحشود الكثيرة والحريم المستور والمال العظيم الموفور » .

وفي(١) هذه السنة: قُتل العدل أبو صالح بن العجمي(٢) وكمشتكين الخادم (٣)، وهما كانا صاحبي دولة ابن نور الدين (واختبط) (٤) أمره بعد ذلك وتوفّي أيضاً الشهاب محمود الحارفي (٥) خال السلطان صلاح الدين، وكان صاحب حماة، فأعطاها السلطان بعد مدّة لتقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه بن أيوب، كما سيأتي .

وفيها :(٦) في ذي القعدة لسبع بقين منه ولد للسلطان ولد سمي داوداً، فكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنئه به من جملة كتاب : « وهذا الولد المبارك، وهو الموفى لاثني عشر ولداً بل لاثني عشر نجماً متوقداً، قد زاده الله في أنجمه على أنجم يوسف (٧) عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حُلماً ورآهم

(١) انظر : النوادر السلطانية ص ٣٥، الباهر ص ١٧٨، الروضتين ج ١ ص ٢٧٥، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٩ .

(٢) هو : العدل أبو صالح بن العجمي وزير الصالح ومشيره . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٦ ص ٣٠٦ من القسم الأول .

(٤) كذا في الأصل ٦٥ / ظ . وفي الروضتين (تخبط) وكذا في النوادر السلطانية ٣٥، انظر الباهر ١٧٨، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٧ .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٦ ص ٣٠ .

(٦) انظر الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٧) قصد بها رؤيا يوسف عليه السلام في سورة يوسف آية ٤ (إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) .

ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجوداً وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدوداً » .

قال العماد : وورد من القاضي الفاضل كتاب تاريخه (شهر ذي الحجة)(١) سنة ثلاث وسبعين ، ذكر فيه فصولاً متعددة منها : « للمولى أولاد وقد صاروا رجالاً ، ويجب أن تستجند للقلاع رجالاً ، كما فعل السابقون إعماراً وأعمالاً ، وقيل: القلاع أنوف من خلها شمخ بها مافي الرجال على النساء ، آمين) . ثمّ ذكر في آخره أبياتاً في ذكر السلام على الملك العزيز ابن السلطان وهي (٢) :

١ — مملوك مولانا ومملوك ابنه
وأخيه وابن أخيه والجيرانِ

٢ — طيّ الكتاب إليه منه إجابة
لسلام مولانا ابنه عثمانِ

٣ — والله قد ذكر السلام وأنّه
يجزي بأحسن منه في القرآنِ/ (٦٥ / ظ)

٤ — وغريبة قد جئت فيها أوّلا
ومن اقتفاها كان بعدي الثاني

٥ — فرسولي السلطان في إرساله
والناس رسلهم إلى السُّلطانِ

(١) في الروضتين ج ١ ص ٢٧٧ (منتصف ذي الحجة) .
(٢) الروضتين ج١ ص ٢٧٧ .

وفي(١) العشر الأول من ذي القعدة من هذه السنة ، قُتل عضد الدّين ابن رئيس الرؤساء (٢) وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة ، وكان قد توجه إلى الحج ، فوقف له في مضيق قطفتا (٣) غربيّ دجلة ، كهل في يده قصّة يزعم أنّه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده ، فأومأ ليوصل قصّته فقتله ، وبدر كمال الدين أبو الفضل ابن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه ، وكان مع الملحد رفيقان له ، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات ، والآخر ولد قاضي القضاة ، وقُطّع الملاحدة وأحرقوا ، واستقل ظهير الدين أبو بكر منصور ابن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة — وهو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي إنْ شاء الله في سنة خمس وسبعين — ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان ، تتضمّن التوّجع لقتل الوزير عضد الدين ومن جملتها : (وما ربّك بظلاّم للعبيد)(٤) فقد كان — عفا الله عنه — قتل ولدي الوزير ابن هبيرة (٥) وأزهق أنفسهما وجماعة لاتحصى :

---

(١) انظر : سنا البرق ٢٨٤ — ٢٩٠ ، الروضتين ج ١ ٢٧٨ .

(٢) هو : الوزير أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله ابن المظفر ابن رئيس الرؤساء الوزير أبي القسم علي بن المسلمة ، روى عن ابن الحصين وجماعة ، ووزر للمستضيء ، ولقب عضد الدين . انظر الكامل ج ١١ ص ٣٦٠ ، سنا البرق ٢٨٤ ، شذرات الذهب ج٤ ص ٢٤٥ .

(٣) في الروضتين ج ١ ص ٢٧٨ بـ(وطفتا) ، قطفتا (في ياقوت)هي محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد مجاورة لمقبرة الدير التي فيها قبر الشيخ معروف الكرخي بينها وبين دجلة أقل من ميل .

(٤) سورة : فصلت آية ٤٦ .

(٥) هو : الوزير عون الدين بن هبيرة وولديه هما : عزالدين محمد وشرف الدين أبو البدر ظفر) . انظر الكامل ج ١١ ص ١٦٢ و ١٨٩ و ٢١٣ و ٢٥٧ — ٢٦٥ ، و ٣٦٠ — ٣٦٢ ، والحاشية في سنا البرق ص ٢٨٨ .

(مَنْ يَرَ يوماً يُرَ به (١)
والدهـــر لا يُغترّ بــــــــــه

وهذا البيت بيت ابن المسلمة (٢) عريق في القتل وجدّه هو المقتول بيد البساسيري (٣) في وقت إخراج الخليفة القائم (٤) في أيام الملقّب بالمستنصر بمصر فهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة ، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة ، كما قال دريد (٥) : (أبى القتل إلاّ آل صِمّة) . والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة ، وقد ختمت له السعادة بما ختمت له به الشهادة . لاسيّما وهو خارج من بيته إلى بيت الله ، قال الله سبحانه :(٦) : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) / . (٦٦ /و)

(١) في الروضتين ج ١ ص ٢٧٨ (من ذا يسر بذنبه) .

(٢) هو : رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر وزير القائم بأمر الله قتل (سنة ٤٥٠ هـ) . انظر الكامل ج ٩ ص ٦٤٠ — ٦٥٠ .

(٣) هو : الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبدالله البساسيري التركي ومنسوب إلى بسا : مدينة بفارس ، قتل سنة (٤٥١ هـ) . انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٧٦ — ٧٩ و ٨٤ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، معجم البلدان ج ١ ص ٤١٢ .

(٤) هو : القائم بأمر الله أبو جعفر عبدالله بن القادر بالله أحمد بن اسحاق بن المقتدر العباسي (ت ٤٦٧ هـ) . انظر الكامل ج ٩ ص٤١٧ — ٤١٨ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ١١٠ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٢٦ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) هو : دريد بن الصمة واسمه : معاوية بن الحارث بن بكر بن علقة (مع اختلاف في نسبه) انظر الأغاني ج ١٠ ص ٣ — ٤٠ ، سنا البرق ص ٢٨٨ — ٢٨٩.

(٦) سورة النساء آية ١٠٠ .

١ — إن المساءة قد تسرّ وربّما
كان السرور بما كرهت جديراً

٢ — إنّ الوزير وزير آل محمـــد
أودى فمن يشنأك كان وزيراً (١)

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال (٢) وزير أبي العبّاس السفاح (٣) ، وكان القاضي الفاضل كثيراً ماينشده :

وأحسن من نيل الـــوزارة للفـــتى
حـــياةٌ تريه مـــصرع الـــوزراء

والذي(٤) أشار إليه الفاضل رحمه الله من قضية جدّ عضدالدين ابن رئيس الرؤساء هو : ماذكر أبو الفضل محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه المذيّل : أنّ البساسيري حبس رئيس الرؤساء وزير الخليفة ، ثمّ أخرجـــه وعليه جبّـــةٌ صوف وطرطور مـــن لبد أحمر وفي رقبته مخنقة جلود وهو يقرأ : (قل اللّهم مالك الملك) الآية (٥) ويردّدها ، وطيف به على جمل في هذه الحالة ، ثمّ

---

(١) الشاعر هو : سليمان بن المهاجر العتكي . انظر سنا البرق ٢٨٩ ، تاريخ الموصل ص ١٤٥ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) هو : أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمذاني أول من تلقب بالوزير في الإسلام قتل سنة (١٣٢ هـ) . انظر الطبري ج ٧ ص ٤٢٩ — ٤٣١ .

(٣) هو : أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي أول خلفاء بني العباس (ت ١٣٦ هـ) . انظر الطبري ج ٧ ص ٤٢٩ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) انظر الحدث في الكامل ج ٩ ص ٦٤٤ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٧٨ — ٧٩ .

(٥) سورة آل عمران آية ٢٦ .

نُصب له خشبة بباب خراسان ، ثمّ حُطّ الجمل وخيط عليه جلد ثور سلخ في الحال ، وعُلّق في فكّيه كلاّبان من حديد ، واستقى في الخشبة حيّاً، ولبث إلى آخر النهار يضطرب، ثمّ مات رحمه الله ، قال العماد (١) : وكان القاضي ضياء الدين الشهرزوري (٢) قد سار في الرسالة إلى بغداد ، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير عضد الدين . ووافق ذلك وفاة ابن عمّه القاضي عماد الدين أحمد ابن القاضي كمال الدين الشهرزوري وكان شاباً ، وجاء كتاب القاضي الفاضل يذكر ذلك وفيه :

يُدلّى ابن عشرين في لحده
وتسعون (٣) صاحبُها راتعُ

اعتُبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل
وعُمّرَ الوالد مع ذيول المشيب المشتمل

ليُعلم أنّ الشيب ليس بمُسلم
وأنّ الشباب الغضّ ليس بمانع

وليكون العبد حذراً من بغتات الآجال في كل الأحوال. والله تعالى يطيل للمولى العمر ، كما أطال له في القدر ، ويسمع منه ولا يسمع فيه ، ويبقيه سنداً للدين / الحنفي ، فإنّ بقاءه يكفيه . (٦٦ / ظ)

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٧٨ ، سنا البرق ٢٩١ - ٢٩٢ .
(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من القسم الأول .
(٣) في الروضتين ج ١ ص٢٧٨ (والتسعون) .

قال العماد(١) : وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا(٢) ، فشكوت ضرسي وعدمت أنسي . فرجعت مع عزّ الدين فرخشاه(٣) لحُمّى عرته ، فشكى منها أنّها لاتزور إلاّ نهاراً جهاراً ، وأنّها لاتفارق بعرقٍ ، على الضدّ ممّا قال المتنبي (٤) ، فنظمت فيه كلمة منها في وصف الحُمّى :

١ ـ وزائرة (٥) وليس بهـا (حياء)(٦)
فليس تزور إلاّ فـي النهـارِ

٢ ـ ولو رهبت لدى الأقدام جوري
لما رغبـت جهـاراً في جـواري

٣ ـ أتت والقلبُ في وهج اشتياق
ليُظهر ماأواري من أوارِ (٧)

---

(١) انظر الروضتين ج ١ ص٢٧٧ ، سنا البرق ص ٢٨٣ .

(٢) قارا (في ياقوت) اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق .

(٣) هو : الملك عزالدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٥٧٨ ﻫ) انظر البداية والنهاية ١٢ ص ٣١١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٢ ، الروضتين ج ٢ ص ٣٣ .

(٤) هو : الشاعر المشهور أحمد بن الحسين بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي المعروف بالمتنبي قتل (٣٥٤ ﻫ) . انظر سنا البرق ص ٨٣ ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٥٦ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ١٣ ، تاريخ الأدب العربي للفاخوري من ص ٥٩٤ ومابعد .

(٥) انظر الروضتين ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، سنا البرق ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٦) في الروضتين ج ١ ٢٧٧ (حياة) .

(٧) الأوار (في لسان العرب) بالضم : شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها والعطش ، وقيل الدخان واللهب .

٤ ــ ولو عرفتْ لظى سطوات عزمي
لكانت من سطاي على حذارِ

٥ ــ تُقيم فحين تبصر من أناتي (١)
ثبات الطود تسرع في الفرارِ

٦ ــ تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورتها إزاري (٢)

ومنها :

٧ ــ أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على الممالك والديارِ

٨ ــ أحُمّاك استعارت لفح نار
لعزمك لم تزل ذات استعار

ــ آخر المجلّد الأوّل من الروضتين إلى هنا ومن هنا المنتقى من المجلد الثاني منها ولله الحمد ــ

ثم دخلت سنة أربع وسبعين (٣) :

ففيها : أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة ، فخرج إليها

(١) الأناة : الحلم والوقار والتؤدة .

(٢) الإزار : الملحفة وكل مايسترك .

(٣) انظر الكامل ج ١١ ص ٤٥٠ ، الروضتين ج ٢ ص ٥ ، سنا البرق ٣٠٦ – ٣٠٧ و ٣١١ – ٣١٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ٦٦ .

متولي عسكر حماة وهو صاحب (١) بو قبيس (٢) فأسر المقدّمين وسفك بسيفه دم الباقين ، وجاء إلى السلطان بظاهر حمص وساق معه الأسارى فأمر بضرب أعناقهم ، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين ، قال العماد : وكتب النوّاب بدمشق إلى السلطان : (أن الأموال ضائعة ، وأنّ الأطماع فيها رائعة ، وأنّ في أرباب الصدقات أغنياء لايستحقونها ، وما لهم رقبة من الله يتّقونها ، وأنّ أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها ، وأنّ المصلحة تقتضي إفراد جهات لما يسنح من مهمات ، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار (٣) ، فقال / لي : (اكتُب عليها جميعها (٦٧ / و) بالإمضاء ، ولا تُكدّر على ذوي الآمال موارد العطاء (فقلت : أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال : لا بل نزّهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارّة ، والآمال بها سارة .

قال (٤) : ووردت من القاضي الفاضل كتب من بعض فصولها : « وأمّا سور القاهرة ، فعلى ماأمر به المولى شُرع فيه ، وظهر العمل ، وطلع البناء . وسَلكتُ به الطريق المؤديّة إلى الساحل بالمقسم (٥) والله تعالى يعمّر المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين،وسوراً

---

(١) هو : الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين ، صاحب حصن بوقبيس، انظر سنا البرق ص ٣٠٦ ، وفي الروضتين ج٢ ص٥ (ابن حمار تكسر) وهو تصحيف وما ذكره العماد هو المرجح .

(٢) أبو قبيس (في ياقوت) حصن مقابل قلعة شيزر . معروف .

(٣) في سنا البرق ٣١٢ (مبلغ أحد عشر ألف دينار ومائتين) .

(٤) انظر الروضتين ج٢ ص ٢ — ٣ ، سنا البرق ص ٢٩٦ — ٢٩٧ و ٣٠١ .

(٥) انظر تاريخ بناء سور القاهرة في الخطط المقريزية ج١ ص ٣٧٧ — ٣٨٠.

بل سواراً يكون للإسلام محلّى الضدّين ، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل الثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله». ومنها : « وأمّا تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة الّتي خرج من بيته لأجلها ، وتجدد العوائق الّتي لاتوصل إلى آخر حبلها ، فللمولى نيّة رشده ، وأليس الله العالم بعبده ؟ وهو سبحانه لايسأل الفاعل عن تمـام فعله ، لأنه غير مقدور لـه ولكن عن النيّة ، لأنّها محلّ تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى في أسباب الجهاد ، وتنظيف الطرق إلى المراد ، فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمَدها ، وهو منه على أملٍ في نجح موعدها ، والثواب عـلى قدر مشقته ، وإنمّا عظم الحج لأجل جهده وبُعد مشقتـه ، ولو أنّ المولى فتـح الفتوح العظام في أقلّ الأيام ، وفصل القضية بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام ، لكانت تكاليف الجهاد قـد قضيت ، وصحائف البرّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار (طُويت) (١) . وفيها في ذكر أولاد السلطان « لاقطع الله تلك العادة من سلامة وصحة وعافية ، شملت موالينا أولاده السادة،
(٦٧ / ظ) أطاب الله الخير إليهم عن المولى وإلى المولى / عنهم ، وعجّل لقاءه لهم ولقاءهم له ، فإنّه من يلق منهم : كلٌّ منهم ملك دستُه برجه ، وفارس مهده سرجه ، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها ، وريحان الحياة وزهرتها ، وإنّ قلباً وسع فراقهم لواسع ، وإنّ طرفاً نام على البعد عنهم لهاجع ، وإنّ ملكاً ملك تصبره عنهم لحازم ، وإنّ

---

(١) في نسخة المغرب « طويل » .

نعمةَ الله فيهم انعمةٌ بها العيش ناعم ، أما يشتاق جيد المولى أن يتطوّق بدُررهم ؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروى بنظرهم ؟ أما يحنُ قلبه على قلبه ؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ماخرج من حَبّه ؟ وللمولى أبقاه الله أن يقول :

ومامثل هذا الشوق تحمل مضغــه
ولكنّ قلبي في الهوى « بقلوب »(١)

وفي أخرى أيضاً : « والملوك الأولاد في كفالة العافية ، لا رُفعت عنهم كفالتها وعليهم جلالة السلطنة لافارقتهم جلالتها وكلّ من الموالي السادة الأمراء الأولاد (والقلادة (٢) كلّها) جوهر وكلّهم المقدم ، وليس فيهم بحمد الله من يؤخّر على ماعوّد الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية ولزوم المستقبل منهم لمشهد الكتاب ولموقف الآماج (٣) ومخائل (الظفر) (٤) فيهم من تحت ليل الصبا أنور دلالة من ضوء السراج والله تعالى يمد في عمر المولى إلى أن يرى مــن ظهورهم مارأى جــدّهم رحمه الله في أهل بيته من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعة ، وملوك الإسلام الذين منهم للإسلام أكاسرة وتبابعة ، (وما فيهم) (٥) عند العلا صغير وصغار أبناء الكبار كبارُ نجوم الأرض، وذرّية بعضها من بعض، والخلف الصالح المحض ، وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوّة والتقى ،

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٣ (متقلب) .
(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٣ (والقادة كلهم) .
(٣) الأمج (في لسان العرب) شدة الحر والعطش والأخذ بالنفس .
(٤) في المصدر السابق (الخفر) .
(٥) في المصدر السابق (وكافيهم) .

ويوم الحرب ويوم العرض » . ومنها (وأما المأمورية في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها ، وإغلاق أبوابها ، وتحصين كلّ مبتوتة من عصمة ، وتطهير كلّ موسوعة بوصمة ، فالله تعالى يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه / وحمل الخلق على منهاج (٦٨ / و) شرعه وأدبه » .

قال العماد (١) : وفي المحرّم من هذه السنة توفي الحكيم مهذّب الدين أبو الحسن علي بن عيسى ، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذّباً، ومن الملوك لتفرده بفضله مقرّباً .

وفيها : توفي أيضاً الأمير نجم الدين بن مصال ، وحجّ القاضي الفاضل في هذه السنة من مصر ، وركب البحر ، ثم رجع سالماً، ولأبي الحسن الذروي (٢) من قصيدة فيه عند عوده من الحج (٣) :

١ — إن تكن غبت عنه والله يبقيـ
لك لأمثاله فما غبت قلبا

٢ — سرت والرأي فيه منك مقيم
وبعثت الدعاء في الليل كتبا

وعمّر (٤) الفرنج حصناً على مخاضة بيت الأحزان(٥) وبينه وبين

---

(١) انظر : سنا البرق ٣٠٥ — ٣٠٦ ، الروضتين ج ٢ ص ٥ — ٧ .

(٢) هو : أبو الحسن علي بن يحيى ، المعروف بابن الذروي (ت ٥٧٧ هـ) . انظر الأصل ١٥٢/و ، ص ١٨٩ .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٧ .

(٤) انظر سنا البرق ص ٣١٣ — ٣١٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٦ — ٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٠ .

(٥) بيت الأحزان (في ياقوت) بلد بين دمشق والساحل (الفلسطيني) سمي بذلك لأنهم زعموا : أنه كان سكن يعقوب أيام فراقه ليوسف .

دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، وكان هذا الحصن للداويّة . وكانوا يقوّون مَن فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين ، فراسل السلطان الفرنج في هدمه ، وبذل لهم مائة ألف (١) دينار فلم يفعلوا ، فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ، ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه ، ففعل كما سنذكره في أخبار السنة التي بعد هذه إن شاء الله .

وكان (٢) هذا العام جدباً ، فوجّه السلطان أخاه الأكبر تورانشاه (٣) من الشام إلى مصر بمن ضعف من الأجناد، وكان قد سلّم إليه بعلبك ، فرتّب فيها نوابه ،ولمّا رجع السلطان من توديعه ، أغار في طريقه على بلاد الفرنج ، وقصد الحصن الذي بنوه ، ورجع بالأسرى والغنائم ، وخيّم بمروج الشعراء(٤) ، ثمّ انتقل إلى بانياس ، وبلغت الخيم إلى حدود بلد الكفرة ، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة ، وكان في كلّ يوم يركب بحجة الصيد ، وينزل على النهر ، ويجرّد فرسان الجياد والقهر ، ويسيّر قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت ، حتى يحصدوا غلاّت العدوّ، وما يبرح مكانه حتى / يعودوا بجمالهم وأحمالها ،حتى خفّ زرع الكفار . (٦٨ / ظ)

---

(١) في سنا البرق (ستين ألف دينار مصرية وبلغ المبلغ مائة ألف) وفي الكامل (ستين ألف دينار مصرية) .

(٢) انظر سنا البرق ٣١٩ — ٣٢٤ ، الروضتين ج ٢ ص ٨ .

(٣) انظر ترجمته في القسم الأول — الحاشية رقم ١ ص ٤٢٥ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول — الحاشية رقم ٢ ص ٢٣٩ .

وفي (١) مستهلّ ذي القعدة كانت وقعة هنفري (٢) ومقتله ، وذلك أنّ الأخبار تواترت بأنّ الفرنج قد تجمّعوا في جمع عظيم ، وأنّهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرّة ، فقدّم السلطان ابن أخيه عزّ الدين فرخشاه على عساكر دمشق فلقي الفرنج ، فقُتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدّميهم ، وطُلب الملك فطرح حصانه وجُرح فرسانه ، وجاء الهنفري ليحميه ، فوقعت فيه جراحات، وقُتلت عدّة من الرجال والخيّالة ، ورجعت الفرنج بخزي عظيم ، ليس فيهم إلاّ مجروح ، وكلّ يوم ترد بشرى بموت مقدّم من جراحةٍ أصابته ، ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق ، فخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلاّ ورؤوسهم وأسراهم قد جيء بهم ، فرجع مظفراً منصوراً ، وذلّت الفرنج بعدها ، وانكسرت لموت الهنفري ، ثمّ سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه فأزعجهم ، وذعرهم ، ثمّ عاد على عزم العود إليه .

ودخلت سنة خمس وسبعين (٣) :

والسلطان نازل إلى تل القاضي (٤) ببانياس ،فأجمع رأيه مع بقيّة

---

(١) انظر : سنا البرق ص ٣١٧ – ٣١٩ ، الروضتين ج ٢ ص ٦ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٧ .

(٢) هو : (Honfroi) صاحب بانياس جنوب غربي دمشق ، وقتل أيضاً صاحب الناصرة . انظر الحاشية رقم ٢١ في السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٧ .

(٣) انظر سنا البرق ٣٢٥ – ٣٢٧ ، الروضتين ج ٢ ص ٨ – ٩ ، الكامل ج ١١ ص ٤٥٥ – ٤٥٦ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٢ – ٣٠٣ ، السلوك ج ١ ق ١ (وكان نازلا على بانياس) ص ٦٧ – ٦٨ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٤٩ .

(٤) تلة القاضي : تلة واقعة بالقرب من قرية بانياس السورية على الحدود الفلسطينية بجانب نهر بانياس ، وهي تقع حالياً ضمن الأراضي المحتلة (زيارة ميدانية) .

المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ، ويستوعبوا مابقي في أيديهم من الغلاّت في يوم واحد ، ثمّ رجعوا فرحلوا صوب البقاع ، فنهضوا ليلة الأحد ثاني شهر محرّم فلمّا أصبح جاءه الخبر : بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم ، وأنزل الله نصره على المسلمين، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهزمت رجالتهم في أوّل اللّقاء . فكان من جملة الأسرى : مقدّم الداوية (١) ومقدّم الإسبتارية وصاحب طبرية وأخو صاحب جبيل وابن القومصية (٢) وابن بارزان (٣) صاحب الرملة وصاحب جينين وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية (٤) وعدّة كثيرة من خيّالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدّمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيف / وسبعين سوى (٦٩ / و) غيرهم ، ثمّ قُدّمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى . قال العماد : وأنا جالس بقرب السلطان ، أستعرضهم بقلمي ومن ألطاف الله تعالى : أنّا وخواصّه الحاضرين ، لم نزد على عشرين والأسرى قد أنافوا على سبعين ، وقد أنزل الله علينا السكينة ، وخصّهم بالذّلة المستكينة ، وطلع الصباح ورُفع المصباح ، وقمنا وصلّينا بالوضوء

(١) هو : أود (Ede désaint - Amand) . انظر حاشية سنا البرق في ص ٣٢٨ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٨ .

(٢) هو : هوك بن القومصية (Hugede Tibériade) صهر قومص طرابلس . انظر حاشية سنا البرق في ص ٣٢٨ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٨ .

(٣) هو : بدوين بن بارزان . انظر سنا البرق ص ٣٢٨ ، وفي الكامل ج ١١ ص ٤٥٥ (ابن بيرزان) ، السلوك ج١ ق١ ٦٨ (بادين بن بارزان) .

(٤) مرقية : (في ياقوت) قلعة حصينة في سواحل حمص كانت خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند وأقطعهم القطائع .

الّذي صلينا به (العشاء) (١) ، ثمّ عُرِض الباقون من الأسرى ، ثمّ نُقلوا إلى دمشق فأمّا ابن بارزان : فإنّه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية(٢) وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه عيسى (٣) من نوبة الرملة عندهم من المأسورين ،فالتزم إدراكهُ ، وأن يؤدي من قطيعة المذكورين القطيعة التي بها فكاكه، وأمّا ابن القومصية فإن أمّه استفكّته بخمسة وخمسين ألفاً من الدنانير الصورية ، وأمّا أوَد مقدّم الداوية فإنّه انتقل من سجنه إلى سجّين (٤) ، فطُلبت جيفته فأخذوها بإطلاق أسير من مقدّمي المؤمنين ، وطال أسر الباقين ، فمنهم من هلك وهو عانٍ ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان ، وهذه هي وقعة مرج عيون وكان العدوّ في عشرة آلاف مقاتل ، وانهزم ملكهم مجروحاً .

وكان (٥) لعزّ الدين فرخشاه فيها بلاء حسن ، حكى حسام الدين تميرك بن يونس ، وكان مع عزّ الدين المذكور قال : كنّا في أقل من ثلاثين فارساً قد تقدّمنا العسكر ، فشاهدنا خيل الفرنج في ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء ، فأشار عزّ الدين بأن نعبر النهر إليهم ، ففعلنا ، ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم .

---

(١) في سنا البرق ٣٢٨ (العتمة) .

(٢) نسبة إلى صور وهو الدينار الذي ضرب أيام الدولة الفاطمية . انظر حاشية سنا البرق في ص ٣٢٩ .

(٣) انظر القسم الثاني الحاشية رقم ٤ ص ٤٠ .

(٤) هو واد في جهنم ، والسجين : الصلب الشديد من كل شي «(لسان العرب) .

(٥) سنا البرق ص ٣٣٠ — ٣٣١ ، الروضتين ج٢ ص ٩ — ١٠ .

قال ابن أبي طي : نزل السلطان على تل القاضي ببانياس على المرج الذي يُعرف بمرج عيون ، وأنفذ في ثاني المحرّم قطعة من عسكره مع عزّ الدين فرخشاه ، ليشنّ الغارة على بلاد الفرنج فلمّا أصبح ركب يستوقف أخبار فرخشاه ، فما هو إلاّ أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعي / هاجّة على (٦٩ / ظ) وجوهها من الغياض والأودية ، فقال : هذه غارة ، فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب ، فوصل بعض الرعاة فأخبر : أنّ الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه ، على هيئة المتغفلة ، فسار حتى أشرف على الفرنج ، فإذا هم في ألف رمح ، فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فُرشت الأرض منهم ، وألقى جماعة منهم سلاحهم ، وسلّموا أنفسهم أسارى ، ونجا ملك (١) الفرنج هارباً ، ويُقال : إنّه وقع به فرسهُ فحمله أحد خيّالته على ظهره ، ثمّ رجع السلطان إلى معسكره وسيفه يقطر دماً ، وجلس لاستعراض الأسارى .

وفي (٢) يوم هذه الكسرة : ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة(٣) ، فاستولى عليها وعلى أخرى ، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السبي ، فما أقرب مابين النصرين في المصرين ، وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين الأمرّين ، لقد عمّ النصر وتساوى فيه البرّ والبحر ، وكان تقي الدين عمر غائباً عن وقعة مرج عيون هذه ، واتّفقت له وقعة أخرى في هذه السنة قريباً من هذه

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٠ هو (هنفري) .

(٢) انظر : سنا البرق ٣٣٠ — ٣٣٢ ، الروضتين ج ٢ ص ٩ — ١٠ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣) البطسة : ضرب من السفن .

نُصيرَ فيها . وذلك أنّ قلج أرسلان (١) سلطان الروم ، طلب حصن رعبان (٢) وادّعى أنّه من بلاده ، وإنمّا أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده ، وأنّ ولده الملك الصالح قد أنعم به عليه فلم يفعل السلطان ، فأرسل قلج أرسلان عسكراً مجمّعاً في عشرين ألفاً لحصار الحصن ، فلقيهم تقي الدين ومعه سيف الدين علي المشطوب في ألف مقاتل فهزمهم . وكان تقي الدين لمّا قارب رعبان أخذ معه جماعة حتّى أشرف على عسكر قلج ليلاً ، فرآهم قد سدّوا الفضاء وهم آمنون ، فقال تقي الدين لأصحابه : هؤلاء على ماترون ، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرّق في جوانب عسكرهم ونصيح فيهم ، فإنّهم لايثبتون لنا ، فأجابوه إلى ذلك . فأنفذوا واحداً إلى باقي عسكره ، وأمرهم أن يتفرّقوا أطلاباً ، وأن يجعل في كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات ، فإذا سمعوا الضجّة ضربوا بكوساتهم ،
(٧٠ / و) وجدّوا في السير / حتّى يلحقوا به ، ففعلوا ماأمرهم به ، ثمّ إنّه حمل فيهم وصرخ أصحابه فلمّا سمعوا الضجّة ظنّوا أنّهم فوجئوا بعالم عظيم ، فلم يكن لهم ، إلاّ أن جابوا في كواثب خيولهم عرياً . وطلبوا النجاة ، وتركوا خيامهم وما فيها بحالها ، فلمّا أصبح جمع المأسورين ومنّ عليهم بأموالهم ، وسرّحهم إلى بلادهم ، وقيل : إنّ الخبر بهذه الكسرة ، وصل إلى السلطان في اليوم الّذي كسر فيه الفرنج على مرج عيون فتوافت البشارتان إلى البلاد ، ولم يزل تقي

---

(١) هو : عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجقي . انظر الباهر ص ١٦٠ .

(٢) رعبان (في ياقوت) مدينة بالثغور بين حلب وسمسياط قرب الفرات وهي قلعة تحت الجبل .

الدين يُدل بهذه النصرة ، فإنّه هزمَ بآحادٍ ألوفاً ، وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفاً .

وفي(١) شهر ربيع الأوّل خرّب حصن بيت الأحزان ، جمع السلطان له جموعاً ، وزحف إلى الحصن بعد العصر ، فما أمسى المساء إلاّ وهم قد استولوا على الباشورة (٢) ، وانتقلوا بكليّتهم عليها ، وباتوا طول اللّيل يحرسون ، وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرّة ، وإذا الفرنج قد أوقدوا خلف كلّ باب ناراً ليأمنوا من المسلمين اغتراراً ، فاطمأنّ المسلمون وقالوا : مابقي إلاّ نقب البرج ، ففرّقه السلطان على الأمراء ، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه ، لكن ماانقضى ذلك اليوم ، إلاّ وقد تمّ نقب السلطان (٣) ، وغُلّق وحُشي بالحطب وحُرق ، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرض السور تسعة أذرع فما تأثّر بذلك ، فاحتاج السلطان في الغد إلى إطفاء النيران ليتمّ نقبه ، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار ، فحمل الناس القرب ، ونقلوا الماء حتى أغرقوا تلك الثقوب ، فخمدت النار فعاد نقّابوها وقد بردت ، فخرّقوا الثقب وعمّقوه ، وفتحوه ، وفتقوه ، وشقوا حجره وفلقوه ، ثمّ حشوه وعلّقوه ، واستظهروا فيه يومين ثمّ أحرقوه ، واشتدّ

---

(١) انظر : سنا البرق ص ٣٣٣ — ٣٣٨ ، الكامل ج ١١ ص ٤٥٦ — ٤٥٧ ، الروضتين ج ٢ ص ١١ — ١٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٩.

(٢) الباشورة : والجمع بواشير : وهي الحائط الظاهر من الحصن ، يختفي وراءه الجند عند القتال . انظر دوزي ج ١ ص ٨٩ .

(٣) قصد النقب في الجانب الشمالي من السور والذي كان من نصيب مجموعة السلطان. انظر سنا البرق ص ٣٣٤ .

الحرص عليه ، لأنّ الخبر أتاهم بأنّ الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في
جموع كثيرة ، فلمّا أصبح انقضّ الجدار وتباشر الأبرار ،
وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطباً ، فلمّا وقع الجدار ،
دخلت الرياح / فردّت النار عليهم ، فأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، (٧٠ / ظ)
فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، فلمّا خمدت
النيران ، دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من
الحديد من جميع أنواع الأسلحة وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها ،
وجيء بالأسرى إلى السلطان ، فمن كان مرتدّاً أو رامياً ضربت
عنقه ، وأكثَرَ مَنْ أُسر قتله في الطريق الغزاة المتطوّعة ، وكان
عدّة الأسرى نحو سبعمائة ، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم ،
وسُيِّر باقي الأسارى إلى دمشق ، وأقام السلطان في منزله حتى هدّوا
الحصن إلى الأساس ، وطُمّ جبّ ماء معين . كانوا حفروه في وسطه ،
ورُمي فيه القتلى ، وكان مدّة المقام على الحصن أيام فتحه وبعدها
أربعة عشر يوماً ، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور
وبيروت وغيرها فأغار عليها ، وأرجف قلوبهم بوصوله إليها ،
ثمّ رجع إلى دمشق ومرض جماعة من ذلك الوباء ، لأنّ الحرّ
كان شديداً ، وأنتنت جيف القتلى ، وطوّل السلطان المقام عليه بعد
فتحه لأجل تتميم هدمه ، فتوفي أكثر من عشرة أمراء ، وعاد
المشهد اليعقوبي (١) كما كان مزوراً وبتكبير المسلمين وصلواتهم

---

(١) قصد : مزار النبي يعقوب وعودته خراباً كما كان .

معموراً ، ولأبي الحسن بن الساعاتي (١) من قصيدة في مدح السلطان (٢) :

١ – وقفتَ على حصن المخاض وإنّه
لموقف حقّ لايوازيه موقفُ

٢ – وما رجعت أعلامك الصفر ساعةً
إلى أن غدت أكبادها السود ترجفُ

٣ – كبا من أعاليه صليب وبيعة
وشاد به دين حنيف ومصحفُ

٤ – أيسكن أوطان النبيّين عصبة
تمين لدى أيمانها (حين)(٣) تحلفُ

٥ – نصحتكم والنصح (فيالدين)(٤) واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسفُ

---

(١) هو : أبوالحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الدمشقي (ت ٦٠٤ هـ). انظر الكامل ج ١١ ص ٤٥٧ ، الروضتين ج٢ ص ١١ و ٨٤ و١٠٦ ،وفيات الأعيان ج٣ ص ٧٣ – ٧٤ ، والحاشية رقم ٣٥١ في شفاء القلوب ص ١٢٦ ، الغصون اليانعة ص ١١٨ .

(٢) انظر سنا البرق ٣٣٨ ، الروضتين ج ٢ ص ١١ – ١٢ ، الكامل ج ١١ ص ٤٥٨ .

(٣) في سنا البرق (وهي) وكذا في الكامل والروضتين .

(٤) في الكامل ج ١١ ص ٤٥٨ (والنصح للدين) ، وفي الروضتين ج ٢ ص ١٢ (والدين في النصح) .

وقال العماد :

١ ـ هلاك (١) الفرنج أتى عاجلاً
وقد آن تكسير صلبانها

٢ ـ ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمّرت بيت أحزانها / (٧١ / و)

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف حصن بيت الأحزان وفتحه (٢) : « هذا وقد عُرّض الحائط إلى أن زاد على عشرة أذرع ، وقُطعت له عظام الحجارة ، كلّ فصّ منها من سبعة أذرع إلى مافوقها وما دونها ، وعدّتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لايستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقلّ في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصمّ المرغم بها أنوف الجبال الشمّ ، وقد جعلت سقيّته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبَهُ بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لايتعرض لهدمه » .

ومنه في وصف النار قال : « وبات الناس ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنّار به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ومن ورائه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة ، ومِنعَتُهُمْ قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسجُ الظلماء

(١) انظر سنا البرق ص ٣٣٨ ، الكامل ج ١١ ص ٤٥٧ . الروضتين ج ٢ ص ١١ .

(٢) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٣ .

قد استحال جلّناراً (١) ، والشفق قد عمّ اللّيلة فلم يختصّ آصالاً (٢) وأسحاراً (٣) ، ونفحاتّها الحميميّة وقودها الناس والحجارة ، والملأ ينادي طبريّة بلسان مصابها : إيّاك أعني واسمعي ياجارة ، فولجت (٤) النّار موالج يضيق منها الفِكر ، ويعجز عنهـا الأبَر (٥) ونقلت البناء من العين إلى الأثر وقـال الكفر : إنّهـا لإحدى الكُبَر . وخولِف المثل : إنّ السعادة لتلحظ الحجر ، وأغنى ضوءها لسان كلّ إمّعة (٦) أن يسأل هـذا وهـذا ما الخبر ؟ وقذفت بشرر كالجمالات الصُّفر ، وزفَرت بغيظ تُعفّر له خدود الجبال الصُّفر ، وتلحقها بالكثب العُفر ، وبات الليل والنهار (٧) يثله ، وكلّمـا أغمده الخمود جعل الوقود يسلّه إلى أن بدأ الصباح ، كأنّه منها أمتار الأنوار ، وانشقّ الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار فحينئذ تقدّم الخادم ، فاقتلع بيده الأحجار من أُسّها ، ومحا حروف البنيان من طرسها (٨) ، وتبعه الجيش ورفاقه وكافّة من اشتمل عليه نطاقه » / . (٧١ / ظ)

---

(١) جل الشيء وجلا له : معظمه . (أي قد أصبح معظمه ناراً) .

(٢) آصال (في لسان العرب) كأنه جمع أصيلة وأصل : العشي .

(٣) السحر والسحر (في لسان العرب) آخر الليل قبيل الصبح والجمع أسحار .

(٤) ولج (في لسان العرب) الولوج : الدخول .

(٥) أبر (في لسان العرب) أصلح .

(٦) الإمعة (في لسان العرب) الذي لا رأي له ولا عزم فهو يتابع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء ، والهاء فيه للمبالغة والأصل : الإمع .

(٧) في الأصل ٧١ / ظ (يتسله) وهو تصحيف وماثبتناه عن الروضتين ونسخة المغرب . يثله (في لسان العرب) : هدمه وهو يحفر أصل الحائط ثم يدفع فينقاض وهو أهول الهدم .

(٨) الطرس (في لسان العرب) الصحيفة ، ويقال : هي التي محيت ثم كتبت ، ويقال هو الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد عليه الكتابة .

وفيها : توفي الخليفة الإمام المستضيء بأمر الله (١) ، وولي ابنه الناصر لدين الله أبو العبّاس أحمد . وذلك في أوائل ذي القعدة . وفي سابع عشره قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطّار (٢) ، ووكّل به وبأتباعه ، وقُتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه أحد الأعوان بباب النوى ، وكان قد نُزعت الرحمة من قلبه ، فَقُطّع قطعاً ، وشُدّ في رجله(٣) حبل وسحبته العامّة في الدروب ، ثمّ أحرقوه ، وفي حادي عشر منه حُمل ابن العطّار ميّتاً ، وعلم به العامّة ، فرجموا تابوته بالآجر ، فألقاه الحمّالون وهربوا ، فأخذه العامّة وشدّوا في رجله شريطاً ، وسُحب في جميع بغداد ومنافذها ودورها ، وقُطّع لحمه قِطعاً .

وتوجّه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم (٤) إلى البهلوان بن الدكن (٥) شحنة همذان لأجل إقامة الخطبة بها للإمام الناصر ،

---

(١) هو : أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف المقتفي محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدي العباسي (ت ٥٧٥ هـ) . انظر سنا البرق ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ، الكامل ج ١١ ص ٤٥٩ — ٤٦١ ، الباهر ١٧٩ ، الروضتين ج ٢ ص ١٥ — ١٦ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٤ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٧٠ .

(٢) هو : ظهير الدين أبو بكر منصور بن الحسين العطار صاحب المخزن قتل (٥٧٥ هـ) . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٥ .

(٣) في الكامل ج ١١ ص ٤٦٠ (ذكره) .

(٤) هو : شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم بن إسماعيل . أنظر سنا البرق ص ٣٤٣ ، الروضتين ج ٢ ص ١٦ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٧٠ .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١٥ (ايلدكن) .

فتوقّف عن ذلك ، فهاجت العامّة عليه فخطب (١) له . فجاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان أنشأ لطيف سطرها فلان والحال في الجنوح كقصّة نوح من قرأ السورة عرف الصورة .

وفي (٢) هذه السنة اشتدّ الغلاء ، وكثر الوباء ببغداد وغيرها حتّى ذُكر أنّ رجلاً بواسط ذبح بنتاً له وأكلها ، وآخر بقَرَ بطن صبيّ وأخذ كبده فشواها وأكلها قاله : ابن الجوزي .

قال : وفي رابع عشر ربيع الآخر منها ، زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل ، فلمّا أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال ، فتصادمت ووقع منها الحجارة ، وسقطت قلاع كثيرة ، وهلكت قرى بمن فيها ، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعاً فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما .

ثم دخلت سنة ست وسبعين (٣) :

ففيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابنَ لاون ، لأنّه كان استمال قوماً من التركمان ، حتّى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ، ثمّ صبّحهم بغدره ، وحصلوا بأسرهم في أسره ، فدخل السلطان بلاده ، وأذلّ أعوانه وأجناده ، ونصر الله المسلمين بالرعب ، فأحرق قلعة شامخة تعرف بالمانقير (٤) من الخوف ،

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦ (ووثب أهل المذكور وخطبوا) .

(٢) انظر الروضتين ج٢ ص ١٦ .

(٣) انظر : سنا البرق ٣٤٧ — ٣٤٩ ، النوادر السلطانية ٣٥ — ٣٦ ، الروضتين ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٥ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٧٠ — ٧١ .

(٤) في الروضتين (المناقير) لم أعثر على تعريف بها .

(٧٢ / و) وبادر المسلمون إلى إخراج/مافيها من الغلاّت والآلات ، فتقوّوا بها، وتمّموا هدمها إلى الأساس ، ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً آلات نحاس وفضّة وذهب لها زمن طويل ، وأذعن الأرمني وذلّ ، وبذل للسلطان جملة من المال ؛ وأنّه يطلق مَنْ عنده من الأسارى ، فلم يرض السلطان بما بذله ، فزاد في المال وأنّه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم ، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك ، ورجع مؤيداً منصوراً .

ومن (١) كتاب فاضلي إلى السلطان عقيب هذه القصّة، وكان قد بلغه أنّ السلطان قد عزم على الحجّ(٢) : « جعل الله الملوك ذمّة لسيفه، وشرّد منام الأعداء منهم بطيفه ، وآمن أهل الإسلام بعدله من جور الدهر وحيفه . وأشهده موقف الحجّ الأكبر ، وزان بمحضره مشهد خيفه ، وجعل وفده الأكرم في هذه السنة في وفده وضيفه ، وهنّأه بما فتح الله عليه من محبة الجهاد وما آثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد وما تبع ذلك من نيّة الحج ، بلّغه الله منه المراد».

ولما (٣) وصل السلطان إلى حمص أتاه الفقيه مهذّب الدين عبدالله ابن أسعد الموصلي المعروف بابن الدّهان (٤) ومدحه بقصيدة مطلعها :

---

(١) في حاشية الأصل ٧٢ / ظ العبارة (إنشاء يناسب الحاج) .

(٢) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٩ .

(٣) انظر: سنا البرق ص ٣٤٨ – ٣٤٩ ، الروضتين ج ٢ ص ١٦ – ١٧ .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١٦ يذكر اسمه (عبيد الله) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ ، انظر خريدة القصر ج ٢ ص ٢٧٩ ، ومابعدها ، والأصل (٧٢/ظ) .

١ ـ أما وجفونِك المرضى الصحـــاح
وسكرة مقلتيك وأنــت صــاحي
٢ ـ لقد أصبحتَ في العشّاق فــرداً
كما أصبحتَ فــرداً في المــلاحِ
منها :
٣ ـ يهزّ الغصن فوق نقى ويــرنو
بحدّ ظبىً ويبســم عن أقـــاح
٤ ـ وقد غرس القضيب على كثيب
فــأثمر بالظــلامِ وبالصــباحِ
٥ ـ ومال مــع الوشاة ولا عجــــيب
لغصن أن يميــل مع الريـــاحِ
ومنها :
٦ ـ قطعنا اللّيــل في عتب وشكوى
إلى أن قيــل حيّ على الفـــلاح
٧ ـ ولاح الصــبح يحكي في ســناه
صلاح الدين يوسف ذا الصــلاحِ
منها :
٨ ـ ولمّا ضاق حــــدٌ عــن مــداه
لقينــــاه بآمـــال فِســـاح
٩ ـ فمن هرمٌ وكعب وابن سعــدى
رعــاء الشاء والنّعــم المراحِ ؟
١٠ـ جواد بالبـــــلاد ومــا حوته
إذا جــادوا بألبــان اللّقاح / (٧٢/ظ)

وفيها : (١) توفي الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن إبراهيم السلفي بالإسكندرية . (٢) وشمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بالإسكندرية أيضاً (٣) . وصاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، وولي مكانه أخوه عزّ الدين مسعود بن مودود . وكتب السلطان صلاح الدين بالإنشاء العمادي إلى بغـداد (٤) وكان الكتاب إلى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم كتاباً من جملته : « قد عُرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبويّة ، بما لم يختصّ به أحد ، وامتدّت اليد منّا في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعياء ، وخلّفناهم للردى، حيث دُعوا بلسان الغواية خلفاء ولا خفاء أنّ مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مُضيمة ، وعاينت كلّ عظيمة ، حتى أنقذها الله عزّ وجلّ بنـا من عبيد بني عُبيد (٥) ، وأطلقها

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٦ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٧ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٢) انظر : سنا البرق ص ٣٤٩ ، الروضتين ج ٢ ص ١٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٦ – ٣٠٧ ، شذرات الذهب ج ٤ ص٢٥٥ .

(٣) انظر : سنا البرق ص ٣٥٦ – ٣٥٧ ، الروضتين ج ٢ ص١٧ ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٠٥ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٤) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٧ ، .

(٥) عنى : عبد الله المؤسس للدولة الفاطمية في شمال أفريقية ، حيث كان مؤرخو السنة يطلقون عليه : عبيد الله ، تصغيراً ، لأن في التصغير تحقيراً (انظر : زكار : التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢١٨ ، وكتابه أيضاً : العصر العباسي من ص ٢٢٠ ولغاية ٢٢٥ حول قيام الدولة الفاطمية) .

بمطلّقات أعنتنا إليها من عناء كلّ قيد وفيها شيعة القوم وهم غير مأموني الشرّ إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والأفرنج من البرّ والبحر بها مطيفة ؛ فمن حقّها أن يتوفّر عسكرها ، فلو حصل — والعياذ بالله — بها فتق لأعضل رتقه ، واتّسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ، وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها وله مدّة خمس سنين في بيكارها منتقماً من كفّارها متحمّلاً لمشاقّها على غلاء أسعارها » . ومنه (١) : « وكم بين من يحارب للكفر(٢) ويحمل إليهم قواصم الآجال وبين من تتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال ، هذا مع مانعدّ في الملّة الحنيفيّة والدولة (٣) الهادية العباسيّة من آثار لايُعد مثلهاأوّلاً : لأبي مسلم(٤) لأنّه أقدم ثمّ خامر ووالى ثمّ ولّى ، ولا آخراً لطغرلبك (٥) فإنّه نصر ونصب ثمّ حجر وحجب ، وقد عرف مافضّلنا الله به عليهما في نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، وتطهير المنابر مـــن رجس الأعداء ، ولم نفعـــل مافعلنا لأجل الدنيـــا غير أنّ

---

(١) في الروضتين : يورد نص الكتاب في أحداث سنة (٥٧٧) ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) في الروضتين ج ٢ (الكفر) ص ٢٣ .

(٣) في الروضتين ج ٢ (الدولة) ص ٢٣ .

(٤) هو : عبد الرحمن بن شيروان بن اسفنديار أبو مسلم المروزي، ويقال له : أمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (قتل سنة ١٣٧ هـ) . انظر : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠ ومن ص ٦٢ لغاية ٦٧ ، شذرات الذهب ج١ ص ٢٠٥ .

(٥) هو : رعيم قبائل الغز أو الأغز ، الذي تمكن من احتلال بغداد في عام (١٠٥٥م) وهزم حكامها من البويهيين (ت ٤٥٥ هـ — ١٠٦٠ م) انظر : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٨٨ — ٨٩ ، وفي شذرات الذهب ج ٣ يذكر اسمه (محمد بن ميكال أبو طالب) ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، رافق : العرب والعثمانيون ص ١ — ٢ .

(٧٣ / و) التحدّث/بنعمة الله شكر واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق بها على السجية غالب » .

ورجع (١) السلطان إلى مصر مرةّ ثانية في رجب ، واستناب بالشام ابن أخيه عزّ الدين فرخشاه بن شاهنشاه . وسار معه شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم . وكان قد ورد رسولاً إليه من بغداد فركب من هناك البحر إلى مكّة .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين (٢) .

والسلطان مقيم بالقاهرة . وقد عيّن لسماع الأحاديث النبوّية ميقاتاً، وجمع به من العلم والعلماء عنده أشتاتاً .

وفيها (٣) : توفي بحلب الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين رحمهما الله في الخامس والعشرين من رجب ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس ،وكان يقال : إنّ موت الملك الصالح صغيراً كان من كرامات نور الدين رحمه الله ، فإنه سأل الله تعالى : أنْ لايعذّب شيئاً من أجزائه بالنار وولده جزؤه ، فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة ، رحمهما الله . قال ابن الأثير :

---

(١) انظر الخبر مطولا في : سنا البرق ص ٣٥٢ — ٣٥٦ ، وكذا في الروضتين ج٢ ص ١٩ .

(٢) انظر الخبر مفصلا في : الروضتين ج ٢ ص ٢١ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٨ .

(٣) انظر الخبر مفصلا في : الكامل ج ١١ ص ٤٧٢ — ٤٧٤ ، وكذا في الروضتين ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ ، النوادر السلطانية ص ٣٦ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٨ .

ولم يبلغ عشرين سنة (١) ، ولمّا اشتدّ مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها ، فقال : لاأفعل حتّى أستفتي الفقهاء ، وكان عنده علاء الدين الكاشاني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، يعتقد فيه اعتقاداً حسناً ويكرمه ، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها ، فقال له : ياعلاء الدين إنْ كان الله سبحانه وتعالى قد قرّب أجلي أيؤخره شرب الخمر ؟ قال : لا والله ، قال : واللهلالقيت الله وقد استعملت ماحرّمه علّي .

قال المؤلف : لعلّه ذكر له أنّ من العلماء من ذهب إلى جواز التداوي بها ، وإلاّ فالمعروف من مذهب أبي حنيفة رحمه الله خلاف ذلك ، إلاّ أن يكون الكاشاني (٢) ترجّح عنده مذهب غيره فأتى به والله أعلم .

ثمّ قال ابن الأثير : فلمّا أيس من نفسه حلّف الأمراء لابن عمّه (٣) صاحب الموصل ، ولمّا مات سار إليها صاحب الموصل المذكور ، واستولى على حلب وما كان بيد ابن نور الدين ، وكانت حلب داخلة في تقليد السلطان المتقدّم ذكره ، ولكنّه كان تركها رعاية لابن نور الدين .

فكتب السلطان إلى بغداد كتاباً من جملته (٤) : « دخل حلب

---

(١) في الكامل ج ١١ (وعمره نحو تسع عشرة سنة) ص ٤٧٢ .

(٢) في الروضتين ج ٢ هو : (علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي) ص ٢١ .

(٣) هو عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . انظر الخبر مفصلا في الكامل ج ١١ ص ٤٧٣ ، وكذا في الروضتين ج ٢ ص ٢١ – ٢٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص٤٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٩ .

(٤) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٢٤ – ٢٥ بتصرف يسير في اللفظ .

(٧٣ / ظ) مستولياً ، وحصل بها متعدّياً . وعقود الخلفاء لاتُحلّ / والسيوف في وجوه أوليائها لا تُسلّ ، وأنّه وإن فتح باب المنازعة أدنى من ندامة وأبعد من سلامة ، وخرق مايعي على الواقع . وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالع ، وليس الاستيلاء بحجّة في الولايات لطالبها ، ولا الدخول إلى الدار يوجب ملك غاصبها ، إلاّ أن تكون البلاد كالديار المصريّة حين فتحها الخادم وأهله . حيث الجمعة مستّريبة ، والخلافة في غير أهلها غريبة ، والعقائد لغير الحق مستجيبة ، فتلك الولاية أولى من مُنحها من فتَحها ، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها ، وأمّا حلب التي الكلمة فيها عالية والمنــابر فيهــا بالاسم الشريف حالية . فإنّما تكون لمن قُلِّدَها ولمن بالحقّ تسلّمَها لا لمن بالباطل تسنّمها ، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها ولم يشاور ، ولوجها ولم يناظر ، ولكنّه أتى البيوت من أبوابها ، واستمطر القطار من سحابها » .

ومنه : « وإنّ المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية . واتّخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، ووواســطة بينهم وبــين الفرنج الكافرين ، ووعدوهم بقلاع من يد الإسلام تُقلع ، وضياع من فيء الإسلام توضع ، وبدارِ دعوةٍ بحلب يُنصب فيها علم الضلال فيُرفع ، ويالَلعَجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه ومن العبد يبني مُلكها بنفسه وبماله وذويه وهي تراقب أعداءه (١) فيه ودعواه في رسائلهم وغوائلهم . ليست بدعوى لايقول شاهدها ولا هي بشناعةٍ لايهتدي قائدها ، هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٢٤ (أعلاه) .

عند القومص (١) ملك الفرنج، وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سُيّرت ولاستيجاب الولاية طرق ، أمّا السبق إلى التقليد فللخادم السبق ، وأمّا العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحقّ . وأمّا بالآثار بالطاعة/فله فيها (٧٤ / و) مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق ، ومتى استمرّت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك . وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك ، وأحوجت قابض الأعنّة إلى أن يُعليها الجدد ، ويُرسلها العراك وطريق الصلاح والمصالحة الأيمان والمشار إليهم لايلتزمون ربقتها ، ولا يوجبون صفقتها وكفى بالتجريب ناهياً عن الغِرة (ولا يُلدغ المؤمن إلاّ مرّة) (٢) وإذا اجتمعت في الشام أيدٍ ثلاث : يد غادرة ويد ملحدة ويد كافرة ، نهض الكفر بتثليثه ، وقصرت عن الإسلام يدُ مغيثه . ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه . وما يريد الخادم إلاّ مَنْ تكون عليه يد الله وهي الجماعة ، ولا يؤثر إلاّ مايُقرب به إليه وهي الطاعة ، ولا يتوخى إلاّ ماتقوم به الحجّة ويوم تقوم الساعة » .

قال العماد : وتوجه السلطان إلى الإسكندرية بعد شهر رمضان من هذه السنة ، وشاهد الأسوار التي جدّدها والعمارات التي مهدّها ، وقال السلطان يغتنم حياة الشيخ الإمام أبي الطاهر بن عوف :

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٢٤ (القمص) .

(٢) قصد به الحديث النبوي الشريف (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) انظر : المعجم المفهرس ج ١ ص ٣٢٢ .

فحضرنا عنده ، وسمعنا عليه موطأ (١) الإمام مالك (٢) رحمه الله بروايته عن الطرطوشي . وتمّ له ولأولاده السماع به ثمّ عاد إلى القاهرة في ذي القعدة (٣) . وكتب القاضي إلى السلطان يهنئه بهذا السماع : « أدام الله دولة الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولـــة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها . وأوزع الخلق شكر نعمته فيه ، فإنّها نعمة لايُوصل إلى شكرها إلاّ بإيزاعه ، وأودع قلبه نورَ اليقين ، فإنّه مستقر لايودَع فيه إلاّ ماكان مستنداً إلى إيداعه ولله في الله رحلتاه وفي سبيل الله يوماه وما منها إلاّ
(٧٤ / ظ) أغر محجل والحمد لله/الذي جعله ذا يومين : يوم يُسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يُسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول: يطلب حديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . فيجعل أثره عيناً لايُستر وفي الثاني: يحفل لنصره شريعة هداه على الضلال ، فيجعل عينه أثراً لاتظهر ، وقد استغرب الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه ، والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه ، وصنفوا في ذلك تصانيف ، قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه، والرفع من أقدار أهلها والتنويه ، فقالوا : رحل فلان لسماع مسند فلان ، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان ، هذا وصاحب الرحلة قد نصّب نفسه للعلم ، وشغل

---

(١) الموطأ : أول مؤلف إسلامي معروف باق ، وهو ثمرة اتجاه التدوين في عصر مالك بن أنس ، وهو كتاب حديث وفقه . انظر مالك: لأبي زهرة ص ١٧٥ – ١٨٧ .

(٢) هو : مالك بن أنس بن مالك أبي عامر الأصبحي اليمني ، وأمه اسمها العالية بنت شريك الأزدية (ت ١٧٩ هـ) انظر مالك :لأبي زهرة ص ١٨ – ٢٨ .

(٣) في حاشية الأصل ٧٤ / ظ العبارة (إنشاء فاضلي تهنئه) .

به دهره . ووقف عليه فكرَهُ ، فلا يتجاذب عنان همّته الكبائر ،
فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمور دينه
به معذوقة ، إذا هاجر إلى بقيّة الخير في أضيق أوقاته ، وترك للعلم
أشدّ ضروراته ، ووهب له أياماً مع أنّه في الغزاة يحاسب لها نفسه
على لحظاته وساعاته ، وما يحسب المملوك أنّ كاتب اليمين كتب
للملك قط في طلب العلم إلا للرشيد هارون (١) رحمة الله عليه
على أنّه خلط زيارة نبوّته بطلب ، ورحل بولديه (٢) إلى مالك رحمة
الله عليه لسماع الموطأ الذي اتّفقت الهمتّان الرشيدية والناصرية على
الرغبة في سماعه والرحلة لانتجاعه ، وقد كان الرشيد (سـأل)
مالكاً أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلساً خاصاً لاستماع
مصنّفه، فقال له مامعناه : إنّها سنّة ابن عمّك، صلّى الله عليه وسلّم،
وغيرك من سترها ومثلك من نشرها ، فهذه رحلة ثانية في الزمان
وأولى في الإيمان ، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين ، ويقوم
فيها مقام الرشيد ، ويقوم عليُّه وعثمانُه مقام المأمون والأمين ،
وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة

(١) هو : هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب ، أبو محمد ، ويقال : أبو جعفر ، مع خلاف في تاريخ ولادته ، بويع بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة (ت ١٧٣ هـ) . انظر : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢٢٢ ، شذرات الذهب ج ١ ص ٣٣٣ .

(٢) قصد ولدي الرشيد وهما : محمد الأمين أمه زبيدة ، وعبدالله المأمون من جارية اسمها : مراجل . انظر : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٢٢ ، شذرات الذهب ج ١ ص ٣٤٠ .

(٧٥ / و) المصريّين . فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية / فهو بركة عظيمة ومنقبة كريمة . وذخيرة قديمة . وإلاّ فليُلْتمس . وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمه الله ، كان أيضاً فيها وهو ممّا يُتبرّك بمثله ، ويعلم به فضل العلم . لاخلا المولى ، أبقاه الله، من فضله وقف المملوك علـى مابُشّر به من صنـع المولى وتوفيقه . وصحّة مزاجه في طريقه وانقطاع ماكان من دم واسترواح القلب من كلّ هم ، وقد استُفتحت هذه الطريق بكلّ فألٍ مباركِ البُكر والفألُ مأثور عن سيد البشر ،فمن ذلك صحّة جسمه فلتهبه الصحّة ، وفسحة قلبه مادامت له الفسحة ، وانقطاع الدم وطريقهُ إلى الشام ينقطع بها الدم ، ويتّصل النصر له وينتظم السلم ، وأخرى أنّه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه ، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه والله تعالى محقق الخير ، ويصرف الضير ، ويبارك لمولانا في المقام والسير » .

وفي (١) هذه السنة ولّى السلطان أخاه سيف الإسلام اليمن ، وتوجّه إليها .

قال العماد (٢) : وفيها وصل إلى السلطان من دمشق العَلَم خطيب المزّة ، وكان قد زوّر على السلطان مثالاً يتضمّن له مالاً ، ورفعه إلى عزّ الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه وهمّ بالإيقـاع به ، فقصد السلطانَ بمصر ، وأطلعه على حاله فما اكترث ، وقال: تحقق مازوّرت ، وأمر بأن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار. رحمه الله .

---

(١) انظر : الكامل ج١١ ص ٤٨٠ — ٤٨١ ويذكره في أحداث سنة ٥٧٨ هـ ، الروضتين ج٢ ص ٢٦ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٩ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٦ .

قال : وكان له – يعني السلطان – إمام يصلي به وهو يكتب مثل خطّه . فأطلق به أموالاً وأصلح ، وأنجح تزويره لأصدقائه أحوالاً ، ولايشك صاحب ديوان ولا متولّي خزانة في أنّه صحيح . فلمّا دام سنين انكشف . وشارف التلف . وجلس إخوة السلطان وأمراؤه عنده يغرونه بـه فقلت له بالعجمية (سراً تهبه للقرآن) : فقال : نعم ، فنفس من خناقه ، وأمر بإطلاقه ، وأبقى عليه خيره حين استبدل به/غيره ، وصار للعادل إماماً،وبقي شغله معه مستداماً . (٧٥ / ظ)

وفيها : توفي كمال الدين بن الأنبـاري (١) النحوي ببغداد ، وأبو الحسن علي بن يحيى المعروف بابن الذّرَوي الشاعر بمصر (٢) .

وفيها (٣) : غدر الفرنج ونقضوا عهدهم ، واستولوا عـلى تجّار في البحر وغيرهم ، وسهّل الله تعالى بطسة لهم عظيمةً من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له : بُوليه (٤) ، تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم ، وأتباعهم ، وهم على قصد زيارة القدس والساحل ، وتكثير حزب الباطل ، فألقتهم الريح

---

(١) هو كمال الدين ابن الأنباري النحوي العبد الصالح أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبيدالله الشافعي (ت ٥٧٧ هـ) ببغداد . انظر الكامل ج ١١ ص ٤٧٧ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٢٠ ، شذرات الذهب ج٤ ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ج ٢ ص ١١٣ ومابعد مع مختارات من أشعاره .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٢٦ – ٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٢ .

(٤) ربما قصد بها نابولي وهي ميناء يقع في الجنوب الغربي من ايطاليا . انظر الأطلس مصور ايطاليا السياسي .

إلى ثغر دمياط ، فغرق منهم الشطر ، وشمل البـاقين الأسر ، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستمائة وستة وسبعين نفساً ، واتفق ذلك أمام الاهتمام بالمسير إلى الشام ، وشرع في الاستعداد لذلك .

ثمّ دخلت سنة ثمان وسبعين (١) .

ففي خامس المحرّم منها : رحل (٢) السلطان مـن البركة قاصداً إلى الشام ، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام ، قال العماد : وكان السلطان صلاح الدين عشيّة توديعه لأهل مصر وعوده إلى الشام جالساً في سُرادقه ، وكلّ ينشد بيتاً في الوداع ، فأخرج مؤدب أولاده رأسه وأنشد مُظهراً له فضله ورافعاً به محلّه :

تمتّـع من شميم عـرار نجد
فما بعد العشيـة من عـرار

فلمّا سمعه خمد نشاطه ، وتبدّل بالانقباض بساطه ، ونحن مابين مغضَب ومغضب ينظر بعضنا إلى بعض ، ولا يقضىٰ العجب من مؤدب ترك الأدب ، فكأنّه نطق بمـا هو كائن في الغيب ، فإنّ السلطان ماعاد بعدها إلى الديار المصرية ، حتى اتّصل بنجح المنى إلى المنيّة .

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٢٧ – ٢٨ ويذكر خروج السلطان إلى الشام في أحداث سنة ٥٧٨ هـ ويذكر أن الوداع للسلطان كان في سنة ٥٧٧ هـ ، وكذا في البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٧٧ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٢٨ (دخل) .

وأخذ (١) السلطان على طريق صدر (٢) وأيلة في المفاوز ، وسمع الفرنج بمسيره من مصر ومعه خلق من التجّار ، فاجتمعوا بالكرك (٣) للقرب من الطريق ، لعلّهم ينتهزون فرصة أو يقتطعون من القافلة قطعة ، فخرج عزّ الدين فرخشاه (٤) من دمشق ، واغتنم خلوّ ديارهم ، فأغار على بلاد طبريّة (٥) / وعكا (٦) ، وافتتح (٧٥ / و) دبّورية (٧) . وجــاء إلى حبيس جلدك (٨) بالسواد وهو شقيف (٩) يشرف على بلاد المسلمين ففتحه ، وأسكنه المسلمين ، فبقي عيناً على الكفار بعدما كان لهم ، ورجع بالأسرى والغنائم مظفّراً منصوراً ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من الأنعام .

ودخل السلطان دمشق سابع عشر صفر (١٠) ، ثمّ خرج في

---

(١) انظر : النوادر السلطانية ٢٧ ، الكامل ج ٢١ ص ٤٧٨ .– ٤٨٤ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٨ – ٣٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ – ٣١١ ، السلوك ج١ ق ١ ص ٧٨ – ٧٩ .

(٢) صدر (في ياقوت) بضم أوله وفتح ثانيه : قرية من قرى بيت المقدس .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢٩١ .

(٤) انظر ترجمته في القسم الثاني الحاشية رقم ٣ ص ٤٩ .

(٥) طبرية (في ياقوت) هي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهي في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وكذا بينها وبين بيت المقدس ، وبينها وبين عكا يومان .

(٦) عكا (في ياقوت) عكة : اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن وهي من أحسن بلاد الساحل في أيامنا – أي زمن ياقوت – هذه وأعمرها .

(٧) دبورية (في ياقوت) بليد قرب طبرية من أعمال الأردن .

(٨) حبيس جلدك (في ياقوت) : قلعة بالسواد من أعمال دمشق .

(٩) الشقف (في لسان العرب) : الخزف المكسر .

(١٠) في البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ (سابع صفر) .

ربيع الأول وأغار على بلاد طبرية وبيسان (١) ، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب (٢) ، واستشهد جماعة من المسلمين ولكن كانت الدائرة على الكافرين ، ورجع السلطان بحمد الله ظافراً .

ثم بلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ، ليشغلوا السلطان عن قصدهم ، فحمله ذلك على التوجه إلى بلاد الشرق مرّة ثانية ، فتوجّه على سمت بعلبك،وخيّم بالبقاع ، وكان قد واعد أسطول مصر أن يتجهّز إلى بلاد الساحل ، فبلغه الخبر أنّه قد وصل إلى بيروت ، فبادره السلطان بعسكره جريدة (٣) قبل أن يفوت ، فلمّا وصل رأى أنّ أمر بيروت يطول ، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب ، وظافر من غنيمتها بما طلب ، فأغار السلطان على تلك البلاد ورجع ، ثم (أعاد)(٤) فرخشاه إلى دمشق ، ورحل إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثمّ حماة ، واستصحب معه ابن أخيه تقي الدين أخا فرخشاه (٥) ، فلمّا قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبوري بن علي كوجك ،

---

(١) بيسان (في ياقوت) : مدينة بالاردن بالغور الشامي ويقال : هي لسان الأرض وهي بين حوران وفلسطين .

(٢) حصن كوكب (في ياقوت) : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، حصينة رصينة ، تشرف على الأردن ، فتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد .

(٣) الجريدة (في لسان العرب) التي قد جردها من الصغار ويقال : تنق إبلاً جريدة أي خياراً شداداً . وهنا قصد خيار عسكره .

(٤) كذا في الأصل ٧٥ / ظ . (ولعلها عاد) .

(٥) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة (ت ٥٨٧ هـ) انظر : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٦ .

صاحب حرّان حينئذ ، فاجتمع بالسلطان . وصار في خدمته من جملة الأعوان ، وأشار عليه أن يعبر الفرات ، ويجوز ماوراءها ، ويترك حلب إلى مابعد ذلك ، لئلاّ يشغله عن غيرها ، بعد أن كان نزل عليها ثلاثة أيام ، فعبر الفرات وأخذ الرقّة ، ونصيبين (١)، والبيرة(٢) ، والرها (٣) ، وسروج (٤) ، وشحن على الخابور (٥) وأقطعه ، وتواصلت أخبار وصوله إلى الخابور ومانشر في البلاد من العدل لمّا فتحها ، ففتحت رأس عين (٦) ، ودورن (٧) . وماكسين (٨) ، وغيرها .

ومن كتاب فاضلي إلى الديوان ببغداد عن السلطان عند عبوره الفرات (٩) : « خدَم الخادم متوالية إلى الأبواب خلّد الله سلطانها شارحاً لأحواله ، ومعتبراً/بها من صالح أعماله،ومتوقّعاً من الأجوبة (٧٥/ظ)

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٧ ص ١٩٣ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ١٩٣ .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢٠٦ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ١٩٣ .

(٥) الخابور : نهر ينبع من الأراضي التركية ، ويمر في الأراضي السورية لمحافظة الحسكة ويرفد الخابور نهر الفرات إلى الجنوب الشرقي لمدينة دير الزور . انظر أطلس مصور القطر السوري .

(٦) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٤ ص ١٨٧ .

(٧) دورن لم أعثر على تعريف بها . والأرجح أنها واقعة في أقصى الشمال الشرقي من القطر السوري .

(٨) ماكسين (في ياقوت) بكسر الكاف : بلد بالخابور قريب من رحبة مالك ابن طوق من ديار ربيعة .

(٩) انظر : ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٢ - ٣٢ .

عنها مايهيىء له من أمره رشداً . ويفرّق الأعداء إذا كادوا يكونون عليه لبداً ، فإنّ الآراء الشريفة ، لولم تفصح عنها الإنشاءات ، وتتضمّنها الإجابــات والابتداءات . لأفصحت عنهــا موالاة الخادم ، التي استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خُطْبَتها (١) ، وردّت الأسماء الشريفة إلى أوطانها من المنابر بعد طول غربتها . فتلك الأعمال كالهجرة . ولكلّ امرىءٍ ماهاجر إليه، ونيّة المرء ثوبهُ ، فلا يلبس إلاّ ماخلعته النيّة عليه . وكتاب الخادم الآن من البيرة بعدما قطع الفرات . وكان من لايقرب العزائم ماهو بعيد ، ولا يلقي السمع وهو شهيد . يظن أنّ ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده ، وأنّه ينسى عزيمة رأيه ، إذا ذكر مدّته . وهول مدّه ، وكيف ماكان هذا المُحرج المُخرج ، فقد أحسنت إلى الخادم إساءته إليه ، وقرّبه من محلّ دار السلام . بل الإسلام . فما أكثر ماقال : السلام عليه ، واستشرف حنــانه مــن جنابه أمنــاً وذعراً أوجبتهما الموالاة والمهــابة ، وطالعت عينــه أنــواء وأنــواراً تنسب إلى بركاتهمــا كلّ ســحابة . وكــاد ينــزل عــن السروج (٢) والأكوار (٣) ، ويقبّل الثرى لأجل شرف الجوار ، ويستنفد غلّته بماء الفرات ، لأنّه يمرّ بتلك الديار ، ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار ، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام،

---

(١) قصد الخطبة للخليفة العباسي في مصر .

(٢) السروج (في لسان العرب) جمع السرج : رحل الدابة .

(٣) الأكوار جمع الكور بالضم ؛ الرحل ، وقيل : الرحل بأداته (انظر لسان العرب) .

الّذي هو أعمّ وأعمر(١) للأقطار من القطار(٢)، وتنوّر دار الإسلام من منزلته، فأدناه النظر العالي وأسلفته آماله حوز الفوز بما قربه نجياً من قربها، والآمال أمالي، والله تعالى يشرّف أرضاً هو واطئها ويرعى سروجاً هو كالئها، ويسعد به أمّة هو بارّها طاعة لمن هو بارئها».

ومنه في ذكر المواصلة ورعاياهم: «ويشكون أنّهم مع جوار دار الخلافة المعظمة، لايسلك فيهم سنّتها، ولا يقتفي فيهم شرائعها/ (٧٦ / و) وسننها، ونما إلى الخادم من تفاصيل المغارم التّي تلزم الفريقين، ويُعدل بها، عن أقصد الطريقين ما يروّع السامع، ويسمع الرائع ويسجّل عليهم بالخلاف. ويشهد لهم بالانحراف لأنّهم إنْ ادّعوا تقليداً فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتّبعوا، ونقضوا وما افترضوا. ومثلوا بالحقّ وما امتثلوا، وأمروا بكفّ الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلّها وقد خلطوها، وبرعاية أمّة النبي — صلّى الله عليه وسلّم — وقد أسخطوه فيها وأسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لامن ادّعاها، والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من رعاها، وأيُّ عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأيُّ ولاية لمأمورٍ بأن يجمع أهل الفرقة ففرّق أهل الجماعة، فالجندي تؤكل الأرض باسمه ولاشيء بيديه، والعامّي يرفع رأسه إلى السماء استغاثة بما لايمهل الله عليه. ولقد تعجّب الخادم من إشفاف الأنفس الغنيّة، إلا أنّها فقيرة والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة (يومَ يُحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بهـا

---

(١) أعمر (في لسان العرب) أعمر: جعله أهلا، ومكان عامر: ذو عمارة.

(٢) القطار: جمع قطر وهو: المطر. والقطر: ماقطر من الماء وغيره، واحدته قطرة، والجمع قطار. (انظر لسان العرب).

جباههم وجنوبهم وظهورهم) الآية (١) . هـــذا إلى طامّة أخـــرى لاتقوى عليها الجنوب ولا تدّر عليها الحلوب . ولايُنام على شهر بارقهـــا وإن كان الخلوب (٢) . وهو أنّ الخادم بلغــه أنّهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها ، وبذلوا الطاعة لها ، وقد أُمروا بالامتناع منها ، وهذا نصّ في الخلاف لايدخله التأويل ، وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل ، وكلّ صغيرة من هذه الكبائر وكلّ واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية ، ويجرح العدالة ، ويسلب الرشد . ويثبت الضلالة ، ويمضي بـــه الوليُّ فيما هو له ماض . ويبعث عزمه فيقضي ماهو قاض ويُسخطه ، وكيف لايسخط ؟ والمولى غـــير راض ، ويَغيظه بمـــا لاعذر له لمغتاظ متغاض وما أنهى الخادم ممّا اتّصل به إلاّ الأوائل والأطراف ، ولا عوّل إلاّ على ماصححته النفس دون ماخيّله / الإرجاف (٣) وإذ قد ساق الله تعالى إلى هذه الولاية حظها من معدلة ، كان الزمان بها طويلاً مطلُه ، وأنشأها سحاب إحسان كان بعيداً عليها هطلهُ ، فقد كُفيت الخواطر الشريفة ماكانت به على اهتمامها . كما يجب للأمّة على إمامها ، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها ، وبيده يُجلب نفعها ، ويُجلى ضرّها ، وقد تجدّدت الدولة الشريفة قوّة واستظهار ، وبسطة واقتدار ، وسيف به يُناضل من يسيء الجوار ، ولسان يُجادَل به من يريد الدار » . (٧٦ / ظ)

---

(١) سورة التوبة الآية ٩ .

(٢) الخلوب (في لسان العرب) الخداع .

(٣) أرجف (في لسان العرب) خفق . اضطرب اضطراباً شديداً .

ثمّ (١) توجّـــه السلطان إلى الموصل فحصرها ، فاستشفع صاحبها عليه بالديوان ، فرحل إلى سنجار (٢) فأخذها ، وأخذ دارا (٣) وغيرها ، وجاءه صاحب حصن كيفا وصـــار من أتباعه فأقطعه أعمال الهيثم، ثمّ وهبه قلعة الحُديدة بقرب نصيبين ، ووعده بفتح آمد (٤) له . (٥) واجتمع صاحب خلاط ، وصاحب ماردين، وصاحب الموصل ، وصـــاحب أرزن (٦) وبدليس (٧) وغيرهم من عسكر حلب ، وجمعوا جموعاً ، وعزموا على لقاء السلطان ، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين ، يقـــالُ لهـــا : حرزم (٨) ، فجمع السلطان عساكره ، وسار إليهم بعد عيد الأضحى ، فلمّا وصل رأس عين ، وسمعوا بمجيئه تفرّقوا وافترقوا .

---

(١) انظر : النوادر السلطانية ص٣٧ – ٣٨ ، الكامل ج١١ ص ٤٨٤ – ٤٨٩، الروضتين ج ٢ ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ١٨٤ .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ١٨٤ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ١٨٧ .

(٥) في الكامل ج ١١ ص ٤٨٩ هم : قطب الدين ألبي صاحب ماردين ، وعز الدين صاحب الموصل ، وشاه أرمن صاحب خلاط .

(٦) أرزن : (في ياقوت) بالفتح : مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة حصينة ، وكانت من أعمر نواحي أرمينية، وهي الآن – أي زمن ياقوت – ظاهر عليها الخراب .

(٧) بدليس (في ياقوت) بالفتح ثم السكون وكسر اللام وياء ساكنة وسين مهملة : بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة ....

(٨) حرزم (في ياقوت) بالفتح ثم السكون وزاي مفتوحة وميم : اسم بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة .

وفي جمادى الأول من هذه السنة توفي بدمشق نائب السلطنة ، بهاء عزّ الدين فرخشاه (١) ابن أخي السلطان ، أخو تقي الدين عمر صاحب حماة ، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات ، فأقرّ ولده الأمجد على بعلبك وأعمالها . وأنفذ شمس الدين بن المقدم والياً على دمشق وأعمالها مكانه .

قال العماد : كان عزّالدين فرخشاه من أهل الفضل ، وتفضّل على أهله ، ويغني الكرام عن الابتذال بكرم بذله ، ومن أخصّ خواصّه ، وذوي اصطفائه ،واستخلاصه الصدر الكبير ،العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي (٢) ، أوحد عصره ، ونسيج وحده ، وقريع دهره ، وعلاّمة زمانه ، وحسان إحسانه ، ووزير دسته ، ومثير وقته ، وجليس أنسه ، ورفيق درسه ، وشعاع شمسه ، وحبيب
(٧٧/و) نفسه ، قال : ولي/ في هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية ، وعارضها تاج الدين الكندي بكلمة بديعة في وزنها ورويّها ، وحسن زيّها فأمّا كلمتي فهي (٣) :

١ - بينْ أمرَّ حلاوةَ العيش الشّهي
وهوىً أحال غضارةَ الزّمن البهي

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٩ .

(٢) هو : أبو اليمن ، زيد بن الحسن بن زيد الكندي ،تاج الدين ، البغدادي المولد والمنشأ ، الدمشقي الدار والوفاة (ت ٦١٣ ﻫ) انظر الحاشية رقم ٢ في خريدة القصر ج ١ ص ٣١١ ، الروضتين ج ٢ ص ٣٤ ، والذيل ص ٩٥ - ٩٩ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) انظر القصيدة ونقيضها في : خريدة القصر ج ١ ص ١٢٠ - ١٣٣ ، الروضتين ج ٢ ص٣٤ - ٣٥ .

٢ ــ وصبابة لاأستقلُ بشرحهــــــا
عن حصرها حصرَ البليغ المـِــــدرَهِ

٣ ــ أأحبّتي إن غبت عنكم فالهــوى
دان لقلــب بالغــرام مولّــــهِ

٤ ــ أُنهي إليكــم أنّ صبري مُنتاءٍ
بل منتهٍ ، والشوق ليس بمنتــهِ

٥ ــ أمّا عقود مدامعي فلقــد وهت
وأبت عقود الودّ مـنيّ أن تهي

٦ ــ ولقد دُهيت ببينكــم فاشتقتكــم
يامن لمشــتاق ببينكُم دُهــــي

٧ ــ في شوقكم أبد الزمانِ تفــكّري
وبذكركم عند الكرامِ تفكّهــي

٨ ــ لو قيل لي : ماتشتهي من هذه الد
نيا ؟ لقلت : سواكم لاأشــتهي

٩ ــ ماكان أرفه عيشتي وألذّهــــا
من ذا الّذي يبقى بعيش أرفــــهِ

١٠ــ ومن السفاهــة أنني فارقتكــــم
من أين ذو الحلم الّذي لم يسفــهِ

وذكر نقيضها قال : وأوّل القصيدة التاجيّة :

١ — هل أنت راحم(عَبرتي)(١)(وتولّهي)(٢)
ومجـير صبّ عند مأمنه دهـيَ

٢ — هيهات يرحم قاتـل مقتـوله
وسنانه في القلب غير منهنـهِ

٣ — مَن بلَّ من داء الغرام فـإنّني
مذ حلّ بي(مرض)(٣) الهوى لم أنقهِ

٤ — إنّي بليت بحبّ أعنـد سـاحر
بلحاظه رخص البنان بَرهرَهِ (٤)

٥ — أبغي شفاء تدلّهي من دلّـهِ
ومتى يرق مدللٌ لمـدلّهِ

٦ — يامفرداً بالحسن إنّك منتـهٍ
فيه كما أنا في الصبابة منتـهِ

٧ — قد لام فيك معاشر أفأنتهي
باللوم عن حبّ الحياة وأنـت هي

---

(١) في الخريدة (عبرة) .
(٢) في الخريدة (قوله) .
(٣) في الخريدة (داء) .
(٤) البرهره (في لسان العرب) الأبيض .

٨ ــ أبكي لديه فإن أحسّ بلـــوعة

وتشهّـــق أوما بطرف مقهقـــهِ / (٧٧ / ظ)

٩ ــ أنا من محاسنـــه وحـــالي عـــندَهُ

حـــــيران بين تفكّهٍ وتفكّـــهِ

١٠ــ ضدّان قد جُمعـــا بلفظٍ واحـــــد

لي في هـــواه بمعنيين موجـــهِ

يقال : تفكّهت بالشيء : أي تمتّعت به ، وتفكّهت : تعّجبت ، ومنه قوله تعالى (فظلتم تفكّهون) (١) .

وفي شوّال من هذه السنة : كانت نصرة الأسطول (٢) المتوجّه إلى بحر القلزم(٣) لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز ، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك ، لمّا صعُب عليه ماتوالى عليه من نكاية أصحابه المقيمين بقلعة أيلة(٤) ، وهي في وسط البحر ، لاسبيل عليها لأهل الكفر ، أفكر في أسباب احتياله له ، وفتح أبواب اغتياله ، فبنى سُفناً ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثمّ ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، ووقف منها مركباً على جزيرة القلعة ، فمنع أهلها من استقاء الماء ، ومضى البـــاقون في مراكب نحو عيذاب (٥) ، فقطعوا طريق

(١) الآية ٦٥ من سورة الواقعة (لونشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون) .

(٢) بقيادة : حسام الدين لؤلؤ . انظر الروضتين ج ٢ ص ٣٥ ، والأصل ٧٨ / و .

(٣) قصد : البحر الأحمر .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (٣) ص ٣١٠ .

(٥) انظر تعريفها في القسم الأولا لحاشية رقم (٤) ص ٣٠١ .

التجّار وشرعوا في القتل والنهب والإسار ، ثمّ توّجهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذّر على الناس وجه الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبويّة منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها العـادل أخو السلطان ، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤاً ، فعمّر في بحر القـلزم مراكب بالرجـال البحريّة ذوي التجربة ، من أهل النخوة للدّين والحميّة ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فحرق السفينة وأسر جندها ، ثمّ عدى إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودُل على مراكب العدوّ ، فتبعها فوقع بهـا بعد أيّام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجّار ، وردّ عليهم كل ماأخذ منهم ، ثمّ صعد إلى البرّ فوجد أعراباً ، فركب خيلهم وراء الهاربين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجّ ، فساق منهم أسيرين إلى منى (١) كما يُساق الهدي ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى ، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم/ وقطع أسبابهم ، بحيث لايبقى منهم (٧٨ / و) عين تطرف ، ولا أحد يتخبر طريق ذلك البحر أو يعرف. ومن كتاب عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي (٢) :

« وصل كتابه المؤرّخ بخامس ذي القعدة ، المسفر عن المسفر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسّم (٣) من الآثار ، وهي نعمة تضمنت

---

(١) منى (في ياقوت) بالكسر والتنوين : في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم ، سمي بذلك لما يمنى به من الدماء أي يراق . نقول : هي من الأماكن المقدسة عند المسلمين وهي الآن من مدن المملكة العربية السعودية .

(٢) الكامل ج ١١ ص ٤٩٠ – ٤٩١ ، الروضتين ج ٢ ص ٣٦ – ٣٧ .

(٣) تبسم (في لسان العرب) وهو أقل الضحك وأحسنه .

نعماً ونصرة جعلت الحرم حرماً وكفاية ماكان الله ليؤخّر معجزة نبيّه — صلّى الله عليه وسلّم — بتأخيرها ، وعجيبة من عجائب البحر الّتي تُحدث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب لؤلؤاً فيهـا إلاّ سهماً أصاب ، وحُمد مُسددُه ، وسيفاً قطـع وشكر مجرّدهُ،ورسولاً عليه البلاغ ، وإن لم يُجهل ماأثرته يده ، وقد غبطناه بأجر جهـاده ، ونجح اجتهـاده ، ركب السبيلين بـراً وبحراً ، وامتطى السابقين مركباً وظهراً،وخطا (١) أوسع الخطو وغزا ، فأنجح الغزو ، وحبّذا العنان الّذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكسرة (٢) أنفق » . ومـن كتاب آخر إلى بغداد (٣) : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، وافتضّوا من البحر بكراً ، وعمّروا مراكب حربيـة ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد ، واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة، لمّا أومض إليهم مـن خلل العواقب ، وما ظنّ المسلمون إلاّ أنّهـا الساعة ، وقد نُشر مطويُّ أشراطها (٤) ، والدنيا قد طُوي منشور

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٣٦ (وخطافا) .

(٢) في الروضتين ج٢ ص ٣٦ (الكرة) .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ . ولا بد لنا من لفت نظر القارىء إلى أن القاضي الفاضل في كتابه هذا إلى بغداد ، قد عقد مقارنة بين محاولة أبرهة الحبشي الاستيلاء على مكة وتدمير الكعبة الشريفة ، وإلى ماأصابه وجيشه من غضب الله تعالى وذلك في القرن السادس الميلادي . وبين مايحصل في القرن الثاني عشر للميلاد ومحاولة الصليبين الاستيلاء على البحر الأحمر والموانىء الهامة فيه للسيطرة على الموانىء الهامة على سواحل اليمن والحجاز واستباحة الأماكن المقدسة والسيطرة على تجارتها .

(٤) أشراط (في لسان العرب) من الأضداد يقع على الأشراف والأرذال .

بساطها ، وانتُظر غضب الله لغنـاء بيته المحرّم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم — صلّى الله عليه وسلّم — ورجوا أن تشحذ البصائر آيةٌ كآية هذا البيت ، إذ قصده أصحـاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة الّتي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ، فأمّا الفريق الّذي قصد قلعة أيلة فإنّه قدّر أن يمنع أهلها من مورد
(٧٨ / ظ) الماء الّذي/ به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب(1) الشباه (2) ، وأمّا الفريق القاصد سواحل الحجـاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حجّه ، ويحول بينه وبين فجّه ، ويأخذ تجّار اليمن ، وكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح والعياذ بالله المحارمَ ، ويهيّج جزيرة العرب لعظيمة دونها العظائم ، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب ، وفرّقها عـلى الفرقتين ، وأمرهم بأن تطوى وراءهم الشقتين ، فأمّـا السائرة إلى قلعة أيلة ، فإنّها انقضّت على مُرابطي المـاء انقضاض الجوارح على بنات المـاء (وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء) (3) ، فأخذت مراكب العدوّ برمّتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلاّ من تعلّق بهضبة

---

(1) مشبوب (في لسان العرب) إذا كان الرجل أبيض الوجه أسودالشعر ، وأصله من شب النار إذا أوقدها فتلألأت ضياء ونوراً .

(2) لعلها الشباب .

(3) ربما قصد الآية ٨–٩ من سورة الجن (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً).

وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصّوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم . فلم ينج منهم إلاّ من ينهي عن المعاودة ؛ ومن قد علم أنّ أمر الساعة واحدة ، وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادت في البحر الحجازي إلى رابغ (١) سواحل الحوراء ، فأخذت تجّاراً وأخافت رفاقاً ، ودلّها على عورات البلاد (من الأعراب من هو أشدّ كفراً ونفاقاً) (٢) ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأُخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ، ومقاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلاً ، ويقتنصونهم أسراً وقتلاً ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً نهاراً وليلاً ، حتى لم يتركوا عنهم مخبراً ، ولم يُبقوا لهم أثراً ((وسيق الّذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً)) (٣) ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعين أسرى .

ثمّ دخلت سنة تسع وسبعين (٤) .

ففيها : تسلّم السلطان آمد (٥) بالأمان بعد حصارٍ ، ثم وهبها بأعمالها وما فيها من الأموال والذخائر لنور الدين محمد بن قرا

---

(١) رابغ (في ياقوت) : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور .

(٢) قصد بها الآية ٩٧ (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم) سورة التوبة .

(٣) سورة الزمر آية ٧١ .

(٤) انظر : الكامل ج ١١ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ ، النوادر السلطانية ٣٨ ، الروضتين ج ٢ ص ٣٩ — ٤٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٨٠ .

(٥) في الكامل : (كان المتولي لأمرها والحاكم فيها : بهاء الدين ابن نيسان ؛ وكان صاحبها ليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان) .

رسلان(١) صاحب حصن كيفا ، وحلّفه على أن يُظهر بها العدل ، ويقمع الجور ، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان من معاداة الأعداء ومصافاة الخلاّن ، ثمّ إنّ رسل ملوك الأطراف اجتمعت عند السلطان ، كلّ منهم يطلب لصاحبه الأمان ، وأن يتخذه من جملة
(٧٩ / و) الأعوان ، فمنهم : صاحب / ماردين ، وصاحب ميافارقين ، وهما قريبا ابن قرا رسلان ، فردّ السلطان كلّ رسول بسؤله ، وأجاب إقباله بقبوله .

وكان قد ورد على السلطان قبل فتح آمد تقليد من الخليفة بها ، فكتب بعد أخذها إلى الديوان بالإنشاء الفاضلي : « ورد إلى الخادم التقليد الشريف بولاية آمد ، فلمّا رآه مستقراً عنده ، قال : هذا مفتاحها وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد ، وقال : هذا مصباحها وتناوله فما ظنّه إلاّ كتاباً أنزل عليه من السماء في قرطاس ، وما تيقّنه إلاّ نوراً يمشي به في الناس فسار به ولولا العادة مااستصحب جندياً ، وعوّل عليه ولولا الرتبة لما تقلّد هندياً(٢) ، وطرق بابه بإقليده ولولاه مااستطاع الأولياء أن يُظهروه وما استطاعوا له نقباً ، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاثة رسائل ، فلو كان ذا سمع أصغى ، ولو كان ذا لُبٍ لبّى ، فلمّا انقضت ضيافة أيام النذارة ، واحتقر من بآمد نار الحرب جاهلاً (أنّ وقودها الناس والحجارة)(٣) ، عَمدَ لها في اليوم الرابع فزلزل عمدها ، وقاتلها فأزال جلدها

---

(١) هو : أبو محمد بن قرا أرسلان بن أرتق بن أكسب . انظر معجم البلدان آمد .

(٢) (في لسان العرب) يقال سيف مهند وهندي وهند واني إذا عمل ببلاد الهند وأحكم عمله .

(٣) ربما قصد الآية (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) البقرة الآية ٢٤ .

وزيل جلمدها ، ثمّ رأى أنّ الشوكة ربما أصابت غير ذات الشوكة من جندها ، وأنّ المسلم قد أمن عذاب الحريق ، ولا يأمن [أن](١) تحرقه القسي من السهام بشرار زندها ، فعدل إلى منجنيقه الّذي أمّل صاحبُها [منه] (٢) منجنيقه ، ورأى أنّ سوط سطوته يضرب الحجر ، ويُضرب عن أن يباشر البشر ، وتلك الأبرجة قد شمخت بأنفها ، ونأت بعطفها ، وتاهت على وامقها (٣) ، وأغضت عين رامقها ، فهي في عِقاب لوح الجوّ كالطائر ، إلاّ أنّ المنجنيق أغر مَنْ بها عُقابيه (٤) ، وضغمها بمخلبيه ، وخيّم أمامها يُخاصمها، وقام إلى الغيرَ يحاكمها ، ويضرب بعصاه الحجر ، فتنبجسُ من النقوب أعين لاترسل الماء ، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة ، وتنهل الظماء ، ولم تزل كذلك أياماً حتى محي من الشرفات شنب ثغرها ، وتناوبها كأس فتك تبيّن بهزّ أبراجها آثار سكرها ، وعلت الأيدي الرامية لها ، وغُلّت الأيدي المحامية عنها ، فلم يبق على سورها من يفتح جفناً ، وشنّ المنجنيق عليها غارته إلى أن صارت شناً / (٧٩ / ظ) وفضّت صناديق الحجارة المقفلة ، وفصّلت منها أعضاء السُور المتّصلة ، ووجب [القتال] (٥) لئلاّ يُظّنّ بالخادم أن لاجُنّد إلاّ جَندله،فأوعز بالتقدّم إليها ، ودخول النقّابين فيها ، فأثخنت جراحاً بالنقوب، وهتك الحجاب من أضالع البلد فكاد يوصل إلى [ماوراءها

(١) مابين القوسين إضافة عن نسخة المغرب .

(٢) ما بين القوسين الإضافة من نسخة المغرب .

(٣) مؤق وأمواق وموق وجمعه مواق ، ومؤق العين مؤخره ، ومأقها مقدمها (لسان العرب) .

(٤) العقاب (في لسان العرب) حجر يستنشل على الطي في البئر أي يفصل .

(٥) في الأصل ٨٠ / و غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .

من القلوب](١) . ومنه ثمّ ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين وصاحب [أرزن](١) وبدليس وغيرهم على قصد الخادم(٢) : (ونزلوا تحت الجبل ، فلمّـــا صحّ عندهم قصده ظنّوه أنّه واقع بهم ، فأخذوا أعنة الفرار بقوّة ، وذكروا مافي لقائه من عوائد ، كانت عندهم مخوّفة وعنده مرجوّة ، وســار كلّ فريق على طريق بنيّة عدوٍّ وفعل صديق » . ثمّ قال : « والخادم يقول : مهما أرادت فيه الآراء الشريفة أتاه ، ومهما نوت فيه من إحسان قرّب عليه مانواه ، فهذه آمد لمّا أرسل إليه مفتاحها وهو التقليد فتحها ؛ وهذه الموصل لمّا تأخر عنه المفتاح مُنعها وما مُنِحها ، ولو أعين به لعظمت على الإســلام عائدته ، وظهرت في رفع مناره فائدته ، لأنّ اليد كانت تكون به على عدوّ الحقّ واحدة ، والهمّة لآلات النصر واجدة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يميّز بين أوليائه ، وينظر أيّهم أبرّ بأوليائه ، وأشدّ على أعدائه ، وأقوم بحقّه وحقّ آبائه (وأثبت رأياً ورويّة في مواقف راياته ومجالس آرائه ، وأعظم إقداماً على ملحدين كلّهم كان ينازعه رداء علائه ، وكان السابق من ولاة الدولة العباسيّة ، قاصر السيف عن أن يُســِـغ الغصة بمائه) (٣) ، وأيّهم أترك للفراش الممهّد ، وأهجرُ في سبيل الله لراحة ، وأصبر في جهاد عدوّ الله على مضض جراحه ، وأسلى عن ريحانة فؤاده ، وأكثر ممارسة لحيّة واد ، فيختار لهذه الأمة التي جعلها الله لها إماماً وأميراً أسعد من أجرى في طاعـــة ضامراً ، وملأ بولائه ضميراً ،

(١) في الأصل ٨٠ / و غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٠ – ٤١ بتقديم وتأخر .

(٣) مابين القوسين لم يرد في الروضتين ج ٢ ص ٤٠ – ٤١ .

فمن عدله أن يولّي عليها العدل الذي يُقر عينَها . ومن فضله أن لاينسى الفضل بينها ، وقد ورد ذلك المنشور بآمد ، فأورد الميسور ، فإن ورده المنشور المشار إليه بالجزيرة وما وسعت ، فإنّه نور على نور ، وما يحسب الخادم أن كيداً للعدوّ الكافر / أكْيَد ،ولا جهداً (٨٠ / و) لأهل الضلال أَجْهد ، ولا عائدة بغيظ رؤساء أهل الإلحاد أعودُ من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام ، وإلاّ فلينظر هل يشق على الكفار من يد أحد سواه من ولاة الإسلام ؟ فكلّ ذي سلطان هو الطـاعم الكاسي المحمّى بالمناصل لا الحامي المكفيُّ لا الكافي ، يقضي عمره وهو لايشهد الطعن إلاّ في الميدان ، ولا يتمثّل الهام طائراً [لولا] (١) الكرّة في الصوبجان ، ولا يشـقى بسهمـه إلاّ قرطاسه ، ولا يحظى برفده [إلاّ أكياسه](٢) ، فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدين إلى معالم حقّه [الأولى ، وأطال يد] (٣) سلطانه الطُولى إلى أن تأخذ الأمور مأخذها عدلاً واعتدالاً [وسلماً وقتالاً] (٤) ، فيعود إلى الإسلام عوائد ارتياحه وأيامُ منصوره وسفّاحه» (٥) . ومن كتاب فاضلي أيضاً إلى وزير بغداد : « أصدر هذه الخدمة إلى المجلس السامي معولاً على كرمه فيما جملته من اللبانة مستغنياً بشهرة الحال المتجدّدة عن الإبانة ، فإنّ آمد قصر الأمد بها في الظفر بها وإنقاذها من المظالم التي كانت تلبس نهارها بقبّة غيهبها ، وسار إليها ببقية العساكر الذين ساروا إلى الشام وأقاموا قبالة

(١) في الأصل ٨٠ / ظ غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .
(٢) في الأصل ٨٠ / ظ غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .
(٣) في الأصل ٨٠ / ظ غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .
(٤) في الأصل ٨٠ / ظ غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .
(٥) في الأصل ٨٠ / ظ غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .

الكفار بعدّةٍ اقتصر عليها أكثرها من عساكر الديار المصريّة على بُعد تلك الديار ، ليظهر لمن نوى المناواة ، ويتبيّن لمن كان على منافاة الملاقاة ، أنّ رجالاً من مصر فتحوا آمد بعد سنة من البيكار وبعد غزوتين قد طُولع بهمـا في تواريخهما إلى الكفّار ، ففي ذلك مايغُص الحاسد ، ويغضُ الحاقد ، ويعلم أنّ في أولياء الدولة من ردّ كلّ مارد ، فلمّا خلّ بعقوقها (١) أراد أن يُجري الأمر على صوابه ، ويلج من بابه ، وأن يُنذر المغترّ ويوقظه ، ويعظه بالقول الّذي رأى من الرّفق أن لايغلظه ، فبعث إليه من أن يهبّ من كراه ، ويعدّ لضيف التقليد قراه ، وينجو بنفسه منجى الذئاب ، ولايتعرض لأن يكون منتجاً للذئاب ، فإذا عريكته لاتلين إلاّ بالعراك ، وطريدته لاتصاد إلا بالأشراك ، فهناك رأى عاجلاً ماهناك ، وقوتل حقّ
(٨٠ / ظ) القتال في يوم/عرف مابعده من الأيام، ووقع الإشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام . فنصب المنجنيقات ، فأرسل عارضهـا مطره ، وفطر السور بقدرة الذي فطرَه ، وخطب أمامها خطيبُ خَطبة ، وأغمد الصارم اكتفاء يضربه ، وترفّه أهل الحرب فحسن المناب منه عن حربه ، فصار في أقرب الأوقات جبلُها كثيباً مَهيلاً ، وعفّرت الأبرجة وجهاً ترباً ، ونظرت القلعة نظراً كليلاً ، حتى إذا أمكنت النقوب أن توخذ، وكبد السور أن تُفلذ ، رأى الذي لايصبر على بعضه واعتذر إليه البناء الذي بنا الأمران لم يقضه ، فلا بدّ من نقضه ، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه ، وخرج منها ، وإنّما أخرجه الظلم وسلم وهو يرى السلامة ، أمّا من الحُلُم أو من (الحِلم)(٢)». ثم

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٤١ (بعقوتها) .
(٢) في الروضتين ج ٢ (الحكم) ص ٤١ .

قال : « ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذي قرعه ، ولا أُنزل عليه النصر الذي أُنزل معه ، ولاساعد سيفاً ساعد . ولا نالت يد مُدّت من مصر فأخذت آمد ومَن بآمد ولو قُبلت مسألته بتقليد الموصل ، لكان قد ولجها ولو بدُلجة ادّلجها . وأخذها ولو بحصاة نبذها ، وهو يتوقّع في جواب هذا الفتح أن يُمدّ بجيش هو الكلام ورماح هي الأقلام ، ونصر هو وافد الأمر . وترشيد هو فك الحجر ، وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها . ولا لدعوة قام فيها بما تصاغرت دونه همم جيوشها ، ولكن لأنّ هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجريدة الكبيرة ، وهي دار الفرقة . ومدار الشقة ، ولو انتظمت في السلك لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك ، ولكان الكفر يُلقي بيديه ، وينقلب على عقبيه ، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر براً وبحراً ومن الشام سراً وجهراً ومن الجزيرة مدّاً وجزراً ، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثّل بقوله تعالى :(١) ((ولقد مننا عليك مرّة أخرى)) . ومن كتاب آخر بفتح آمد إلى العادل أخي السلطان : « كتابنا هذا / والمدينة قد فُتحت أبوابها ، (٨١ / و)
وعُزفت بدولتنا أسبابها ، وتكلّم لسان علّمنا في فم قلعتها ، وبعد أن لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها فالحمدلله الذي تتمّ النعمة بحمده ، وينجح الأمل بقصده ((مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده)) (٢) .

(١) سورة طه الآية ٣٧ .

(٢) سورة فاطر – الآية ٢ .

ثمّ رحل السلطان (١) من آمد وعبر الفرات لقصد حلب (٢) وولاياتها ، فتسلّم في طريقه تل خالد (٣) وعين تاب (٤) .

ومن كتاب فاضلي عن السلطان : « نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرّم ، وكان قد تقدمنا الأخ تاج الملوك (٥) إليها ، وأناخ عليها وقابلها ، وقاتلها وعالجها ولو شاء لعاجلها . ولمّا أطلّت عليها راياتنا ألقى من فيها بيده ، وأنجز النصر صادق موعده ، وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها ، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها أعداداً ، ولا نستقصيها اعتداداً ، ولا نستوعبها ولو كان النهار طرساً والبحر مداداً ، ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها ، وسيوفنا قد صارت مفاتيح الأمصار ، تفتحها بنصر الله لابحدّها ولا بقطعها » .

ثمّ نزل السلطان عـــلى حلب فحصرها ، وقُتل عليهـــا أخوه الأصغر تاج الملوك بوري ، ثمّ صالح صاحبها ، وتسلّمها وصعد

---

(١) انظر الكامل ج ١١ ص ٤٩٥ – ٤٩٨ ، النوادر السلطانية ص ٣٩ ، الروضتين ج ٢ ص ٤٢ – ٤٥ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٨١ .

(٢) هو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ، ابن عم الملك الصالح وزوج أخته . انظر الكامل ج ١١ ص ٤٧٣ – ٤٧٤ و ٤٩٦ ، الروضتين ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) انظر تعريفه في القسم الأول الحاشية رقم ٤ ص ٢٢٦ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ٢٢٥ .

(٥) هو تاج الملوك مجد الدين بوري أخو السلطان صلاح الدين قتل سنة (٥٧٩ هـ) أثناء حصار حلب وله من العمر ثلاث وعشرون سنة . انظر : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٣ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٥ .

قلعتها في السابع والعشرين (١) من صفر ، وسُمِعَ وهو صاعد إليها يقرأُ: «(قل اللّهم مالك الملك)»(٢) الآية،وقال: صعدت يوماً مع نور الدين رحمه الله إلى هذه القلعة ، فسمعته يقرأ هذه الآية ، ثمّ دار في جميع القلعة وعاد إلى المخيّم ، وأطلق المكوس والضرائب ، وسامح بأموال عظيمة ، وتسلّم أيضاً قلعة حارم ، ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً، فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين ، وأنقاد وسارع إلى أمان السلطان .

ومن كتاب فاضلي إلى نائب دمشق عن السلطان (٣) : « نُشعر الأمير بما منّ الله به من فتح مدينة حلب، التي هي مفتاح البلاد ، وتسلّم قلعتها التي هي أحد ما رست به الأرض من الأوتاد فلله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المنّة ؟ ونسأل الله الغاية المطلوبة/بعد هذه الغاية (٨١ / ظ) فهي الجنّة ، وصدرت هذه البشرى والموارد قد أفضت (٤) إلى مصادرها ، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها ، وقلعتُها قد أناف لواؤنا على أنفها ، وقَبضت على عقبه بكفّها ، واعتذرت عن لقائه أمسِ برشقها ، ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد ، وأن نوسّع المجال فيما (يُضيق قلبِ) (٥) الذين كفروا في البلاد » . وفي منشور إسقاط المكوس بحلب من كلام

---

(١) في الكامل ج ١١ ص ٤٩٧ (أن عماد الدين نزل عن حلب ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين ...) .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٣ .

(٤) في الروضتين (أمضت) .

(٥) في الروضتين (فيما نضيق به تقلب) .

الفاضل أيضاً عن السلطان (١) : « وأُنهيَ إلينا أنّ بمدينة حلب رسوماً استمرّت الأيدي على تناولها والألسنة على تداولها ، وفيها بالوُعـاة إرفاق وبالرعايا إضرار ولها مقدار إلاّ عند من كلّ شيء عنده بمقدار ، وقد رأينا بنعمة الله علينا أن نبطلها ، ونضعها ونعطلّها ، وندعها ويُضرب عنها في أيّامنا ، ونَضرب عليها بأقلامنا ، ونسلك ماهو أهدى سبيلاً ، ونقول ماهو أقوم قيلاً ، ونكره ماكره الله ، ونَحظر ماحظره الله ونُتاجره سبحانه . فإنّـه مـن ترك شيئاً لله عوضّه الله فعلى كافـّة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفـّين من قِبلنا ، أن لايـُهووا إليها يداً ، ولا يَردوا ولو بلغ الظمأ منها مورداً ، ولا يُثقلوا بها ميزان المال ، فتخف ميزان الأعمال ، ولا يرغبوا في كثير الحرام ، فإنّ الله يغني عنه بقليل الحلال ، وليُعلم أن ذلك من الأمر المحكم والقضـاء المبرم والعزم المتمم » . وفي منشور أهل الرقـّة : « أشقى الأمراء من سمّن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحقّ مَن أخذ الباطل من الناس وسمّاه باسم الحقّ ، ولمّا انتهى أمرُنا إلى فتح الرقـّة أشرفنا منها على سحتٍ يؤكل وظلمٍ ممّا أمر الله به أن يُقطع ، وأمر الظالمون أن يُوصل ، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافـّة الولاة مـن قِبلنا ، أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها ، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسَرّها ، ونُعتق بلد الرقـّة من رقّها ، وتُثبّت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها . وقد أمرنا
(٨٢ / و) بأن تُسدّ هذه الأبواب ، وتُعطـّل وتُنسخ هذه الأسباب/وتُبطـّل ، ويُستمطر سحائب الخصب بالعدل وتُستنزل ، وتُعفـّى خبر هذه الضرائب من الدواوين ، ويُسامح بهـا جميع الأغنياء والمساكين

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

مسامحة ماضية الأحكام مستمرّة الأيام ، دائمة الخلود ، خالدة الدوام ، تامّة البلاغ بالغة التّمام موصولة على الأحقاب ، مسنونة في الأعقاب ملعوناً من يطمح إليها ناظره ، وتتناولها يده ، أو يمسك عنها اليوم على طمع لايوصله إليه غده » .

وفي منشور الرحبـــة : (وهـــذا دأب السلطان في جميـــع البـــلاد ، اقتصر منها عـــلى الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج والأجور والزرع)(١) .

ومدح (٢) السلطانَ جماعة لمّا فتح حلب منهم : سعيد بن محمد الحريري من قصيدة :

١ ــ وصبّحت شهباء العواصم مصلتـــاً
قواضب عـــزم لايُفل شَهيرها

٢ ــ فأمطتك منها غارباً (٣) فيك راغبـــاً
وعاد يسيراً في يديك عســـــيرها

٣ ــ وأوطأتَ منها أخمصيك تنوقةً (٤)
يعزّ على الشعرى العَبور عُبـــورها

٤ ــ وردّ إليها روح عدلك روحهـــــا
وكانت رميماً لايُرجى نشورُهـــا

---

(١) مابين القوسين لم يرد في الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ بتقديم وتأخير .

(٣) الغارب (في لسان العرب) الكاهل من الخف ، وهو مابين السنام والعنق ومنه قولهم : حبلك على غاربك ، أي خليت سبيلك ، فاذهبي حيث شئت) .

(٤) نوقه ، المنوق : المذلل وهو من لفظ الناقة كأنه أذهب شدة ذكورته وجعله كالناقة المروضة المنقادة . (لسان العرب) .

قال المؤلف رحمه الله : وكان الفقيه مجد الدين بن جهبل ؛ الشافعي الحلبي ، قد وقع إليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربي(١) ، فوجد فيه عند قوله تعالى : (الم غُلبت الروم) (٢) الآية . إنّ الروم يُغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ويُفتح البيت المقدّس ، ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد ، واستدلّ على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه ، فلمّا فتح الله على السلطان حلب ، كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح القدس على يديه ، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه وأعطى الورقة للفقيه عيسى ، فلمّا وقف الفقيه عيسى عليها ، لم يتجاسر على عرضها على السلطان وحدّث بما [في الورقة](٣) لمحيي الدين ابن القاضي زكي الدين الدمشقي ، وكان محيي الدين (٤) واثقاً بعقل ابن جهبل ، وأنّه لايُقدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به فعمل قصيدة مدح بها السلطان منها :

وفتحكم حلبَ الشهباء (٥) في صفرٍ
مبشّرٌ (بافتتاح) (٦) القدس في رجب/ (٨٢/ ظ)

---

(١) هو في الروضتين ج ٢ ص ١١٣ : أبو الحكم بن برجان الأندلسي .

(٢) سورة الروم ، الآيتان ١ — ٢ .

(٣) في الأصل ٨٢ / ظ غير واضحةومطموسة والإضافة عن نسخة المغرب .

(٤) هو : محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي ، القرشي الدمشقي ، قاضي حلب الذي استناب ابن عمه أبا البيان زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن النابلسي (ت ٥٩٨ هـ) : انظر : الفتح القسي ص ٤٩ ، الروضتين ج ٢ ص ٤٧ و ١٠٨ — ١٠٩ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٣٧ — ٣٣٧ — ٣٣٨ .

(٥) في الروضتين ج٢ ص ٤٦ (حلبا بالسيف) .

(٦) في الروضتين ج ٢ ص ٤٦ (بفتوح) .

فلمّا سمع السلطان (١) ذلك تعجب منه ، ثمّ حين فتح الله البيت المقدّس ، خرج المجد بن جهبل مهنئاً له بفتحه ، وحدّثه حديث الورقة ، فتعجّب من مقالته ، وقال له : قد سبق إلى ذلك محيي الدين بن الزكي ، غير أنّي أجعل لك حظاً لايزاحمك عليه أحد ، ثمّ جمع له من في العسكر من الفقهـــاء وأهل الدين ، ثمّ أدخله إلى القدس والفرنج فيه بعد ، ماخرجوا منه ، وأمره أن يذكر درساً من الفقه في قبّة الصخرة فدخل وذكر درساً هناك وحظي بما لم يحظ به غيره .

ثمّ أعاد المؤلّف هذه القصّة في سنة ثلاث وثمانين عند ذكر فتح القدس ، ثمّ قال : وقفت أنا على ماذكره ابن برّجان في تفسير سورة الروم : أنّ البيت المقدّس استولت عليه الروم عام تسعة وثمانين (٢) وأربعمائة ، وأشار إلى أنّه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين . قال المؤلف: وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ما اتّفق لهذه الأمّة المرحومة ، قال : وقد تكلّم عليه شيخنا أبو الحسن السخاوي في تفسيره الأول ، فقال : وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أوّل سورة الروم أخبار عن فتح بيت المقدس ، وأنّه ينزع من أيديهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، قال : — يعني السخاوي — قال لي بعض الفقهاء: أنّه استخرج ذلك من فاتحة السورة ، قال: فأخذت السورة ، وكشفت عن ذلك ، فلم أره أخذ من ذلك من الحروف ، وإنّما أخذه فيما زعم من قوله تعالى : « غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد

(١) الروضتين ج ٢ ص ١١٣ .
(٢) في الروضتين ج ٢ (سبعة وثمانين) .

غلبهم سيَغلبون في بضع سنين))» (١) ، فبنى الأمر على التاريخ كما يفعله المنجمون ، ثمّ ذكرأنّهم يغلبون في سنة كذا ، ويُغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير ، قال : — يعني السخاوي — وهذه نجامة وافقت إصابة ، إن صحّ أنّه قال ذلك قبل وقوعه ، وكان ذلك في كتابه قبل حدوثه ، وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ، ولا هومن قبيل الكرامات أيضاً ، فإنّ الكرامة لاتكتسب ، ولاتفتقر إلى
(٨٣/و) تاريخ ، ولذلك / لم يوافق الصواب لمّا أراد الحساب على القراءة الأخرى الشاذة التي هي بفتح الغين من غلبت الروم ، ويوضح ذلك أنّه قال في سورة القدر : لوعُلم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يُرفع فيه ، فهذا ماذكره وهو كما ترى .

قال العماد (٢) : ثمّ فتح السلطان حلب في صفر ، ومدحه القاضي محيي الدين بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره . قال : ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الأسطول بأبيات وهي :

---

(١) سورة الروم الآيات ٢ —٤ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٦ .

١ ــ يؤمل المملــــوك مملوكــــهُ
(تبدِله) (١) الوحشة بالأُنــــسِ
٢ ــ تخرجه من ليل وســــواسهِ
بطلعــــةٍ تشرق كالشــمس
٣ ــ فوحدة العزبـــــة قد حركـــــت
سواكن البلبـــال والمــــسِ (٢)
٤ ــ فلا تــدع يهــدم شيطـــانه
ماأحكـــم التقوى من الأ َنس (٣)
٥ ــ فوقع اليــــــوم بمطلوبـــــه
ممّا سبى الأســطول بالأمــسِ
٦ ــ لازلت وهّــاباً لما حـــازه
سيفك من حُور ومن لعس (٤)
٧ ــ وإنّني آمـــــل من بعـــدها
كرائم الســـــبي من القــدسِ

قال : فجاء الأمر على وفق الأمل ، فوهب لي عام القدس ما أملتُ .

---

(١) في الروضتين (تبدل) .
(٢) المس (في لسان العرب) مس : لمس .
(٣) الأنس (في لسان العرب) والاستئناس هو التأنس . وقدأنست بفلان .
(٤) لعس (في لسان العرب) سواد اللثة والشفة وقيل : اللعس واللعسة سواد يعلو شفة المرأة البيضاء وقيل هو سواد في حمرة .

قال العماد أيضاً: وورد على السلطان وهو نازل على حلب بشارتان إحداهما : أنّ الأسطول المصري غزا في خامس عشر المحرّم ، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظفر ببُطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً (٢) من خيالة وتجّار . والثانية : أنّ فرنج الداروم ، نهضوا ، فنذر بهم والي الشرقيّة ، فخرج إليهم ، فالتقوا على ماء يعرف بالعسيلة (٣) ، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يهلكون عطشاً ، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء ، فأرواهم الله بماء السماء .

(٨٣ / ظ) فكتب السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين / بالإنشاء الفاضلي (٤) :

« أدام الله أيام الديوان العزيز ، ولا زالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير ، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجباً للتقديم والتصدير ، والأمة مجموعة الشمل بإمامته جمع السلامة لاجمع التكسير . الخادم يُنهي أنّ الذي يفتحه من البلاد ويتسلّمه ، إمّا بسكون التغمّد (٥) أو بحركة ما في الأغماد ، إنّما يعدّه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار ، ويحسبه جناحاً يمكنه به المطار إلى مايلابسه الكفر من

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) العلج (في لسان العرب) الرجل الشديد الغليظ .

(٣) ماء يعرف بالعسيلة : انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٧ ، (وفي ياقوت) العسيلة : تصغير عسله وهي ماء في جبل القنان شرقي سميراء .

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٨ .

(٥) قصد بذلك : الحصول عليها بدون قتال إما عن طريق الاستسلام وإما بطرق أخرى سلمية كالمعاهدات وغيرها .

الأقطار وعلى هذه المقدمة ، فهو يستفتح بذكر ظفرين للإسلام برّي وبحري شامي ومصري ، أحدهما وهو البحري : عود الأسطولين(١) اللّذين أغزاهما أخو الخادم أبو بكر بمصر ، وكانت مدّة غيبته من حين خروجه إلى وقت عوده إلى دمياط تسعة أيام ، فظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً منهم خيّالة ذو شكة وازعة وتجّار ذوو ثروة واسعة . والثاني وهو البري : نهوض فرنج الداروم إلى أطراف بعيدة ، فَنَذِرَ بهم والي الشرقيّة ، فركب إليهم اللّيل فرساً كما ركبوه جملاً ، (وسروا ثقيلاً وسار زَملا) (٢) ، فتوافى الفريقان إلى ماء يعرف بالعسيلة سبق الفرنج إلى موردته ، والسابق إلى الماء محاصر للمسبوق ، ووردوا أرزقه (٣) فتعصّب لأرزقهم ، فظنّ المؤمن أنّ الكافر مرزوق ، واشتدّ بالمسلمين العطش ، ثمّ ثابوا إلى الفرنج بقوّة إنجاد السماء بالماء ، فلم ينج من الفرنج إلاّ رجلان أحدهما : الدليل والآخر الذليل . وعاد المسلمون برؤوس عدوّهم في رؤوس القنا ، وقد اجتنوا ثمراتها ، وبأرواحهم في رؤوس الظُبا وقد أطفؤوا بمائها جمراتها » . ومنه يقول (والخادم كما طالع بماضيه الّذي حازه الأمس المذكور ، يطالع بمستقبله الّذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور ، فهو متأهّب للخروج إلى الكفار ، لاتسأم رايته النصب ولاجهة سيره الرفع ولا جيشه الجر ، ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة المفيد ، لاتنفروا في الحرّ ، ولا يجيب دعوة

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٤٨ (أحد الأسطولين) .

(٢) في الروضتين ج٢ ص ٤٨ (وسروا يقتلا وسروازملا) .

(٣) أرزقه (في لسان العرب) رزقه الله يرزقه رزقاً حسناً : نعشه والجمع أرزاق ، والرزق : العطاء .

(٨٤ / و) الفراش / الممهّد ، ولا يعرّج على الظّل الممدود ، ولا دُمية الطراف(١) الممدّد (٢) ، ولا يعطف ريحانة فؤادٍ يفـارقه حولاً ويلقاه يوماً ، ولا يقيم على زهرة ولدٍ استهل ، فمتى ذكّره الفطر على راحته قال : «(إنّي نذرت للرحمن صوماً)» (٣) » .

ومن كتاب آخر إلى الديوان فاضلي أيضاً (٤) : «وإذا أولاه أمير المؤمنين ثغراً لم يبت في وسطه وأصبح في طرَفه ، وإذا سوّغه بلداً هجّر في ظلّ خيمَة ، ولم يقم في ظلّ غُرفَةٍ ، وإذا باتَ باتَ السيفُ له ضجيعاً ، وإذا أصبحَ أصبحَ ومعترك القتال له ربيعاً ، لا كالّذين يغبون أبواب الخلافة إغباب الاستبداد ، ولا يؤآمرونها في (تصرّفاتها) (٥) مؤامرة الاستعباد ، وكأنّ الدنيا لهم إقطاع لا إيداع ، وكأنّ الإمارة لهم (تخليد لاتقليد) (٦) ، وكأنّ السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه ، وكأنّ مال الخلق عندهم وديعة ، فلا عُذر عندهم لمانعه ولا لحابسه ، وكأنّهم في البيوت دُمى مصدّرة في لزوم خدرها لافي مستحسنات صُورها ، راضين من الدين بالغزوة اللّقيّة ، ومن إعلاء كلمته بما يسمعونه على الدرجات الخشبيّة ، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المهلّبيّة ، [ومن] (٧)

(١) طراف (في لسان العرب) طرفة ومطراف : لا تكاد ترعى حتى تستطرف . المطراف : التي لا ترعى مرعى حتى تستطرف غيره .
(٢) في الروضتين (القصر المشيد) .
(٣) سورة مريم آية ٢٦ .
(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٥) في الروضتين (تصرفاتهم) .
(٦) في الأصل ٨٤ / ظ (تقليد لاتخليد) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ وثبتنا ماهو صحيح عن نسخة المغرب والروضتين .
(٧) في الأصل بياض والإضافة عن نسخة المغرب .

قتال الكفار بأنّه فرض كفاية قد تناهى تقوم به طائفة ، فيسقط عن الأخرى [في آخرها](١)» . ومنه : « فقد توالوا الشيطان تليداً وطريقاً ، ووطئوا الإسلام وأهله وطأً عنيفاً ، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيفاً (٢) » .

ثمّ رجع السلطان (٣) من حلب إلى دمشق . وخرج للغزاة ، فلمّا جاز بمخاضة الأردن ، أخذ البلاد ضرب المخاض ، فسار حتى أتى بيسان (٤) ، فوجد أهلها قد نزحوا عنها ، وتركوا ماكان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة ، فنهبها العسكر ، وغنموا ، وأحرقوا مالم يمكن أخذه ، وسار حتى نزل عين الجالوت (٥) ، وقدّم مقدّمه (٦) يكشف خبر الفرنج ، فصادفوا عسكر الكرك والشوبك ، سائرين نجدة للفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا زهاء مائة نفر ، وعادوا ولم / يفقد من المسلمين سوى شخص واحد ، (٨٤/ظ) ثمّ وصل إليه في بقية يوم المصـــاف . ثمّ وصل الخبر أنّ الفرنج

---

(١) في الأصل بياض والإضافة عن نسخة المغرب والروضتين .

(٢) ربما قصد الآية (... فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) انظر سورة الاسراء آية ١٠٤ .

(٣) انظر الكامل ج ١١ ص ٥٠١ – ٥٠٢ ، النوادر السلطانية ٤٠ – ٤١ ، الروضتين ج٢ ص ٥٠ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (١) ص ٨٢ .

(٥) عين جالوت (في ياقوت) بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٦) في النوادر السلطانية ص ٤٠ هم : (عزالدين جرديك ، وجماعة من المماليك النورية ، وجاولي مملوك أسد الدين) .

تجمّعوا في صفوريّة (١) ورحلوا إلى الفولة(٢) فتعبأ للقتال ، وسار العدوّ وكانوا في ألف وخمسمائة رمح ومثله تركبلي (٣) وخمسة عشر ألف راجل ، فالتقوا وجرى قتال عظيم ، وقُتل من العدوّ جماعة ، وجُرح جماعة ، وهم ينضمّ بعضهم إلى بعض . يحمي راجلهم فارسهم ، ولا يخرجون للمصافّ لخوفهم من المسلمين ، فإنّهم كانوا في كثرة عظيمة ، ثمّ أصبحوا راجعين على أعقابهم ناكصين ، وعاد السلطان منصوراً ، قد نال منهم قتلاً وأسراً ، وخرّب عقر بلاد بيسان وزرعين (٤) وقرى عدّة ، فنزل الفوّار (٥) وأعطى الناس دستوراً ، قال القاضي ابن شداد : فانظر إلى هذه الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة أخْذ حلب ولا الظفر بها ، بل كان غرضه رحمة الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد .

ومن كتابٍ فاضليّ (٦) عن السلطان إلى بغداد يخبر بهذه الغزاة (٧) : « سار الخادم وقد تكاملت جنود الإسلام وعساكره ،

---

(١) صفورية (في ياقوت) بفتح أوله وتشديد ثانيه وواو وراء مهملة ثم ياء مخففة : كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية .

(٢) — الفولة (في ياقوت) بالضم : بلدة بفلسطين من نواحي الشام .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ٢٩٩ .

(٤) زرعين (في ياقوت) من قرى فلسطين قرية من الحمة .

(٥) ربما قصد بها نبع الفوار بالحمة على الحدود السورية الأردنية الفلسطينية وهي الآن في الأراضي المحتلة . وهناك نبع آخر يطلق عليه اسم نبع الفوار يقع على طريق دمشق القنيطرة إلى الشمال الغربي من قرية خان أرنبة التابعة لمحافظة القنيطرة . ويبعد هذا النبع عن مدينة دمشق حوالي ٤٠ كم وهو المرجح برأينا (زيارة ميدانية) .

(٦) في حاشية الأصل ٨٥/و العبارة (إنشاء فاضلي) .

(٧) انظر الروضتين ج ٢ ص ٥٠ — ٥١ .

رتعبّت (١) ميامنه ومياسره . وأخذت أُهَبَهُ ، وشحذت قُضبه ، وباعوا الله مااشتراه . ومُثّل لأعينهم ثوابه فكأنّها تراه ، وساروا تحت ليل عجاجٍ ستر السائر تحتَه سُراه . وأصبح الخادم وإيّاهم بعين الله في سبيله على ماء الأردن ، وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكفر والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القُطر . فخاض ذلك البحر وذلك النهر ، وأمدّته نُطف الحديد . فإذا الماء يرمي بالشرار ، ويقذف بالجمر ، ولمّا جاز المخاصة ، أخذ البلاد ضربَ المخاض ، وزلزلت أرضها فهي بالقوم ترض (٢) أو القيمة (٣) تُراض ، وأخذت رجال الإسلام تنقض الأرض من أطرافها . وتقلع قلاع الجبال ، وتقطع رؤوسها من أكتافها ، فإذا البلاد قد انهزم أهلها ، فألحقها المسلمون (بسكانها)(٤) في الهزيمة ، وعوّلوا فيها على سيوف المعاول فإذا هي راحلة ، وكأنّها مقيمة وهذه البلاد مُدنٌ ماكان عزمٌ(٥) منها مُدنياً ،وعمارات ماكان أملٌ إليها مُغضياً / (٨٥ / و)
بل طال ماكان عنهـــا مفضياً مثل : بيسان وعفربلا (٦) وزرعين وجنين (٧) كلّها بلاد مشاهير لها قرى مُغلّة وبساتين مُظلّة وأنهار

---

(١) تعبت : أي تعبأت .

(٢) ترض (في لسان العرب) ترياض : من أسماء النساء .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ٥٠ (وللغنيمة) .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ٥١ (ساكنها) .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ٥١ (قبل منها) .

(٦) عفربلا (في ياقوت) بفتح أوله وسكون ثانيه وراء بعدها باء موحدة : بلدة بغور الأردن قرب ببسان وطبرية .

(٧) جنين (في ياقوت) بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ومياه .

مُقلة وقلاع مُطِلّة وأسوار قد ضربت على جهاتها ، وأحاطت بجنباتها ، واتّخذتها المدن سياجاً على قصباتها ، فغنم المسلمون مافيها من أقوات مختزنة ، وشفوا منها حزازات (١) القلوب المضطغنة . وأحرقوا أوعية كفرها بالنار ، وعذّبوها عذاب أهلها من الكفار ، وقتلوها وكان الضِرام لها دَمار ، وكتبوا عليها الخراب وكان السيف فيها قلماً ، فأجلوا عن حماها حُمماً ، وتساقطت جُدرها فكأنّما أسارت فيها النوى لمما . وورد الخبر بأنّ عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه ، وزحف بلابسه ومُدّرعه ، فركب الخادم يُبَوِّئ المؤمنين مواقف القتال ومنازل النّزال ، فمن متسرّع يطوف عليهم بصفاح ، فيُطاف عليهم بصحاف ، ومن متثبّت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف ، وهناك منظرٌ ودّ المؤمنين لو أنّ أميرهم له ناظر كما بهو آمر ، ولا غروَ أن يصفه الخادم ليُسرّ المخدوم ، لا ليوُصف الخادم ، ومن وصف ضربة السيف فإنّما وصف الضارب ، ولم يصف الصارم . ونزل العدوّ منحطّاً عن سرجه ومنحازاً عن فجّه وسالكاً نهجاً غير نهجه ، وأحدق به راجله وهو زهاء عشرين ألف راجل ، وركّز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل ، ونزل محصوراً وخندق فكأنّما أصبح الكافر في حُفَر ذلك الخندق مقبوراً ، وأقام بإزائه خمسة أيام تُماسيه الوقائع وتُصابحه . وتُماشيه الروائع وتُصافحه ، ويفزع فيه إلى الحفير ، ويتكرّر إليه في اليوم الواحد النفير . ويَبعثُ إليه السهم وهو في الحرب السفير ، فيقبَل تحيّة الضرب المتردّدة ولا يردُها ، وتبتسم إليه صفيحة النصل متودّدة

(١) الحز (في لسان العرب) قطع في علاج ، وقيل : هو في اللحم ما كان غير بائن.

فلا يودّها ، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها ، والمكارم ولم يرحل لبغيتها » .

ومن كتاب بالإنشاء أيضاً إلى وزير بغداد (١) : « أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج . جعلت ليل من وراءهم من الإسلام سكَناً ، وصبروا / وصابروا فكأنّما كان السيف لهم أليفاً ، وكان المعترك لهم (٨٥ / ظ) وطناً ، وأخذَتْ في البلاد النار مآخذها . ونفذت فيها الغيرَ منافذها ، وثُلّت عروشِها ، وثُلّت غروسها ، وجُليت في مصبغات النيران عَروسها ، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها . وتصف النوازلَ منازلُها دمناً على الأطلال مطلولة ، وصرعى بسيوف البلاء مقتولة ، وجاء العدوّ فأحدقت به الأبطال وتُنجزت عادة حمله ، فمطلت خُلقها المطال . فلمّا كَثّرَ اللهُ المسلمين في عيونهم ، ورأوابها مالم يكونوا يروهُ قبلها بظنونهم . واستمدّوا معاني الشكوى لتبوح بها ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم فأخلدوا إلى الأرض نازلين ، وقعدوا عن الحملة ناكلين ، واتّقى فارسهم براجله ورامحهم بنابله ، ولاذَ سيفهم بجفنه ولا خير في حامله ، ولاذ جفنه بأطرافه خوفاً من كحله بسهم قاتله ، وأقاموا محصورين لايستطيعون ورداً ولا صدراً ، ولا يجدون متقدّماً ولا متأخّراً ،فما كان للكفر فئة ينصرونه من (دين) (٢) الله وماكان منتصراً ، وعرف النّصل في لحن السيف أنّ الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب ، فلا يَقُلْ الناس كيف » .

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٥١ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٥١ (دون) .

ثمّ سار السلطان (١) فحصر الكرك ، حتى خرج شهر رجب وما حصّل منه الطلب ، لكن عَظُمت النكاية في الكفّار بأخذ أموالهم، وتخريب ديارهم ، وحاز في طريقه قبل الوصول إليها غنائم ، ووصل الخبر أنّ الفرنج قد استجمعوا بموضع يُعرف بالوالِه (٢) على قصد خلاص الكرك من حصر المسلمين ، فرحل إلى دمشق ووصل أخوه العادل (٣) من مصر . فأعطاه حلب وأعمالها . وولّى مكانه بمصر ابن أخيهما تقي الدين (٤) ، وعضده بصحبة القاضي الفاضل (٥)، وكان العادل قد كتب إلى القاضي الفاضل يستشيره في التعويض عن مصر بحلب . فكتب إليه الفاضل كتاباً من جملته .

« إنمّــا أنتَ كغيــث مــاطر
حيثمــا صرّفه الله انصــــرف

والمولى أَعْلَم ، وبسياسة الدنيـا أَقْوَمْ . فقد تكرّر الكتاب الناصري إليه بما نصّ عليه . وكشف له الغطاء وسنى له العطاء ، (٨٦ / و) وقالت له المخطوبة : هيت لك ، وأدّى / إليه مالك الأمر ماقد ملك ، فلا زالت سعادته أنور من شمس وأدور من فلك ، ولازال رابحاً على الدهر إن امرؤ خسر ، وباقياً إن امرؤ هلك » .

---

(١) انظر : النوادر السلطانية ٤١ – ٤٢ ، الروضتين ج ٢ ص ٥١ – ٥٢ .

(٢) لم أعثر على تعريف بها ، والمرجح أنه اسم لموضع قريب من الكرك في جبال البلقاء بالأردن .

(٣) انظر ترجمته في القسم الثاني ص ١١ .

(٤) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ٤ ص ٣٠٩ .

(٥) انظر ترجمة في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٣١٧ .

ثمّ دخلت سنة ثمانين وخمسمائة (١) :

ففيها : حصر السلطان الكرك مرّة أخرى بالعساكر المصريّة والشاميّة والجزريّة . وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم ، فإنّه كان يقطع عن قَصْدِ مصر ، بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلاّ مع العساكر الجمّة . فاهتّم السلطان بأمره . لتكون الطريق إلى مصر سابلة ، ولمّا بلغ الفرنج ذلك . خرجوا براجلهم وفارسهم للذبّ عن الكرك . فأمر السلطان العسكر بدخول الساحل لخلوّه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها ،وأخذوا جينين . والتحقوا بالسلطان برأس الماء (٢) . وكان السلطان في هذه المرّة قد نصب على الكرك تسعة مجانيق صفّاً ، وشرعَ في طمّ الخندق . ووصف القاضي الفاضل حصن الكرك في جملة كتاب إلى بغداد .فقال:«هو شجىً في الحناجر وقذىً في المحاجر . قد أخذ من الآمال بمخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرُقها ، وصارَ ذئباً للدهر في ذلك الفجّ ، وعذراً لتارك فريضة اللهِ من الحجِّ، وهو وحصن الشوبك(٣) — يسّرَ اللهُ الآخر — كبيت الواصف للأسدين :

مامرّ يومٌ إلاّ وعندهما

لحم رجالٍ أو يولغان (٤) دما

---

(١) انظر الكامل ج ١ ص ٥٠٦ — ٥٠٧ ،النوادر السلطانية ص ٤٣ — ٤٤ ، الروضتين ج٢ ص ٥٥ — ٥٦ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٥ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٨٣ — ٨٤ ، شفاء القلوب ١١٤ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (١) ص ٢٩٠ .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٢٩٢ .

(٤) ولع (في لسان العرب) شرب السباع بألسنتها . ولغ السبع والكلب وكل ذي خطم . وولغ يلغ فيها ولغاً : شرب ماء أودماً .

ومن كتاب آخر : « وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج (١) ، فرمت الشراريف (٢) والواقفين عليها لحمايتها ، ورأت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها ، فما أخرج أحد منهم رأساً إلا دخل في عينه نصل ، وما هجر قراب الإسلام سيف إلا وله من رقاب الكفر غمد قطعها وصل . وما على الحجر في الإسراف والتبذير حجر ، ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سناء الأسنة فجر . ولقد أخذنا من العدو بالمخنق ، وشرعنا في طم الخندق والحائط واقع والواقعة بهم محيطة ، والدروع بالسيوف مفصلة ، وبالجروح مخيطة » .

ومن كتاب آخر : « عذاب الله بالحصن وأهله واقع ، ماله من دافع ، ودليل النصر قد ظهر ومادونه من مانع ، وأما المنجنيقات فقد نكأت (٣) في الأبراج بالهدم / وفي الأعلاج بالهتك ، فلم تبق لها (٨٦ / ظ) الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمة ، وأن لها من أمطارها عليها ليلاً ونهاراً ديمة دائمة ، وأطفنا عليها بالزرجون (٤) حتى وقعت الأسوار من سكرها ، وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها ، وعاطتها (٥) كفة المنجنيق عقار عقرها ، فالسور المقابل للمنجنيقات

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٠ .

(٢) الشراريف (في لسان العرب) أشرفت الشيء علوته ، وأشرفت عليه : اطلعت عليه من فوق . والشرفة : مكان بارز من البناء مرتفع ، يسمح بالنظر من خلاله .

(٣) نكأ (في لسان العرب) نكأ القرحة ينكؤها نكأ : قشرها قبل أن برأ فنديت .

(٤) الزرجون (في لسان العرب) قضبان الكرم : وقيل : هو الخمر .

(٥) العط (في لسان العرب) شق الثوب وغيره عرضاً أو طولا من غير بينونة ، وربما لم يقيد ببينونة .

قد انهدمت أبراجه وأبدانه ، وانهـــدّت قواعده وأركانه ، ولولا الخندق الّذي هو واد من الأودية واسع عميق ، لما تعذّر إلى الزحف عليهم ، والهجم إليهم طريق » .

ومن كتاب آخر : « الحصن الّذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة ، وقد هدّت الحجارة منه ماأحكموه بالحجارة ، وعدا عليه بالتخريب ماأعدّوه للعمارة ، فقُسي (١) المنجنيقات ترمي ولا تُريم سهامَها ، ويستديم من أعداء الله بالقتل والهدم انتقامها ، فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على مافيه من العُمران ، ولم يبق إلاّ طمّ الخندق ، والأخذ بعد ذلك للعدوّ بالمخنق ، والقلوب واثقة بحصول الفتح ، وقد علم كلّ واحد منّا أنّ متجره قد فاز بالربح ، ممّا يُسمع بحمد الله من أحد منا ضجَر ولا ملل ، ولا تُسفر هذه النّوبة إن شاء الله تعالى إلاّ عن نصر وظفر » .

وفي هذه السنة (٢) : توفي رسول الديوان إلى السلطان شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد ، أحمد بن محمد البغدادي(٣) في شهر رجب (٤) ، برحبة مالك بن طوق (٥) ،

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٥٦ (فعسى) .

(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٥٠٩ — ٥١٧ ،الروضتين ج٢ ص ٥٦ — ٥٧ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢٨ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ٥٦ (النيسابوري) ، في شذرات الذهب (النيسابوري ثم البغدادي .) .

(٤) في الروضتين (في شعبان ، وعن ابن القادسي في رجب) ج٢ ص ٥٧ .

(٥) رحبة مالك بن طوق (في ياقوت) هي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسيا . قال البلاذري : لم يكن لها أثر قديم . أحدثها مالك بن طوق بن عتاب التغلبي في خلافة المأمون .

ودفن إلى جانب قبر الشيخ موفّق الدين محمد بن المتقنة الرحبي ، وكان مولده في ذي الحجة سنة ثمان وخمسمائة .

قال ابن القادسي (١) : كان شيخاً (مـاثلاً) (٢) في العلم والدين والسـداد ، ثابت الجنـان في الحوادث المزعجة ، والوقائع الباغتة المجلجلة ، سديد البديهة صافي الفكرة ، وجمع بين نظم الشعر ونثر الترسّل ، وكان يُرسل من جهة الديوان إلى الأطراف ، ورُتّب في مشيخة الشيوخ منذ توفي والده في جمادى الأوّل سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي رحمه الله . ومن شعره :

ولم أخضب مشيبي وهـو زيـن
لإيثاري جهـالات التصـابي

ولكن كي يراني مـن أعادي
فأرهبه بوثبـات الشبـاب

وتوفّي أيضاً في هذه السنة (٣) : شهاب الدين بشير الخادم ، وصاحب ماردين قطب الدين / (٤) . ووصلت (٥) رسل ابن (١/و)

---

(١) هو محمد بن أحمد القادسي الكتبي (معجم البلدان – قادسية) .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٥٧ (طائلا) .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٥٦ – ٥٧ .

(٤) هو : إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق الملك قطب الدين التركماني صاحب ماردين . انظر الكامل ج ١١ ص ٥٠٨ – ٥٠٩ ، الروضتين ج ٢ ص ٦٠ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٥) الروضتين ج ٢ ص ٦٠ .

زين الدين يخبر أنّ عسكر الموصل . وعسكر قزل (١) نزلوا على إربل . فنهبوا وأحرقوا ، فسار السلطان صلاح الدين من دمشق إليهم .

ودخلت سنة إحدى وثمانين (٢) .

فوصل السلطان وقد جمع العساكر إلى الموصل فحصرها ، ثم انتظم الصلح بينه وبين صاحبها ، وخُطب للسلطان صلاح الدين في جميع بلاد الموصل وديار بكر أيضاً ، بعد قطع الخطبة السلجقيّة ، وضُرب باسمه الدينار والدرهم ، وانحلّ الإشكال وانكشف المبهم .

وكتب العماد عن السلطان كتاباً إلى أخيه سيف الإسلام باليمن ، يشرح له الحال وفيه : « ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع ماوراء الزاب(٣) من البلاد والقلاع ، والحصون، والضياع ، وشهرَزور (٤) ومعاقلها وأعمالها ، وولاية بني قفجاق (٥) وولاية القرابلي (٦)

---

(١) هو : قزل بن البهلوان بن الدكز ، قام بعد أخيه محمد بن البهلوان بن الدكز الأتابك شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم (ت ٥٨١ هـ) انظر : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٥١١ — ٥١٤ ، النوادر السلطانية ص ٤٤ — ٤٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٦٠ — ٦٦ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٨٩ — ٩٠ شفاء القلوب ص ١١٤ — ١١٦ .

(٣) الزاب (في ياقوت) الزاب الأعلى بين الموصل وإربل ومخرجه من بلاد مشتكهر ، وهو حد بين أذربيجان وبابغيش ، وهو مابين قطينا والموصل من عين في رأس جبل ينحدر إلى واد ..) .

(٤) شهرزور (في ياقوت) هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان .

(٥) لم أعثر على تعريف بها . والمرجح أنها واقعة في منطقة الزاب الكبير في العراق .

(٦) لم أعثر على تعريف بها ، والمرجح أنها واقعة مابين الزاب الكبير والزاب الصغير في القطر العراقي .

والبوازيج (١) وعانة (٢) وقرَّرنا عليه الموصل وأعمالها على أنّه يكون بحكمنا ، ويُنفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكة باسمنا ، وأن يطلق المظالم ولا يرتكب المآثم . وقد حصل لنا من صاحب الموصل (٣) ومن جميع مَنْ بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكّة والخطبة ، وعمّت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع . وقد زالت العوائق ،وارتفعت الموانع» . قال القاضي ابن شداد : ومرض السلطان بكفر زمّار مرضاً شديداً أخاف من غائلته ، فرحل طالب حرّان وهو مريض وكان يتجلّد ولم يركب في محفّة ، ووصل حرّان شديد المرض وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه وأرجف بموته،ووصل إليه أخوه العادل من حلب ومعه الأطباء .

قال العماد : ثم رحل إلى حرّان فألقينا بها عصا النوى ، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى متواصلة الجوى ، والأيدي إلى الله مرفوعة ، والنّيات بالإخلاص مشفوعة ، والسلطان كلّما زاد ألمَه زاد في لطف الله أمله ، وكلّما بان ضعفه قوي على الله توكّلُه ، وهو يُملي عليّ في كلّ وقتٍ وصاياه ، ويُفرّق على عُفاته عطاياه ، واستمرّ مدّة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه ، وكان خلقه أحسن ماكان في حـــال الصحّة ، يُخاطبنا بسجاياه السهلة السمحة ، ولا يخلو مجلسه من أهل الفضل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ، وينذر أنّه إن خلّصه الله من هذه المرضة اشتغل

(١) البوازيج (في ياقوت)) بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ويقال لها : بوازيج الملك .

(٢) عانة (في ياقوت) بلد مشهور بين الرقة وهيت ، يعد من أعمال الجزيرة .

(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٧٣ .

بفتح البيت المقدس / ، وأنّه لايصرف بقيّة عمره إلاّ في قتال (٨٧ / ظ) أعداء الله والجهاد في سبيله . ولقد كان ذلك المرض تمحيصاً من الله للذنوب وتنزيهاً وتذكرة موقظة وتنبيهاً . ولمّا امتدّ زمن مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمّام . وسمّاها دار العافية ، وخلاّها لمن ينزل بها ضيفاً . وجعلها للآوين إليها وقفاً ، وبعدها اتّصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة ، وجرى أمرهم على السداد ، وتجهزوا في النصرة الناصريّة إلى الجهاد ، وأوّل بركات هذا الاتّفاق فتح بيت المقدّس وسائر البلاد ، وتجدّدت الفتوح ، وأنجدت الملائكة والروح . وامحت باليسر العُسرة . وصحّت بحطّين الكسرة ، وخصّ الله تعالى السلطان بفتح القدس ، وقضى حاجاته التي كانت في النفس ، وسيأتي ، إنْ شاء الله تعالى ، شرح كلّ فتح في موضعه ، وكيف أشرق سنا النّصر من مطلعه .

وكتب القاضي الفاضل إلى تقي الدين ابن أخي السلطان بمصر كتاباً يخبره فيه عن مرضه وعافيته من جملته (١) :

« إنّ العافية الناصريّة قد استفاضت أخبارها . وأشرقت أنوارها وظهرت آثارها . وولّت العلة ولله الحمد ، وأطفئت نارها ، وانجلى غبارها . وخمد شرارها ، وما كانت إلاّ فلتة وقى الله شرّها ، وعظيمةً كفَى الإسلام أمرَها ، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا ، فرأى أقلّ ماعندها صبرها ، وماكان الله ليضيّع الدعاء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليوقف الإجابة وإن سدّت طريقها الذنوب ، وَلاليُخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب .

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٦ بتقديم وتأخير .

نعي زاد فيه الدهر ميمـــــا
فأصبح بعـــد بُؤْســـاهُ نعيما

وما صدق النـــذير به لأنّـــي
رأيتُ الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضّة جديدة ، والعزمة ماضيّة حديدة ، والنشاط إلى الجهاد والجنّة مبسوط البساط ، وقد انقضى الحساب ، وجزنا السراط وعرضنا على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل أن يلج في سمّ الخياط » .

(٨٨ / و) وفي هذه السنة (١) : توفيت الخاتون العصميّة / ابنة معين الدين أنز زوجة الشهيد نور الدين، ثمّ السلطان صلاح الدين رحمهما الله بدمشق في ذي القعدة ، ودُفنت بتربتها بسفح قاسيون قبلي المقبرة الشركسيّة ، وكانت من أعفّ النساء وأجلّهن ، وهي واقفة المدرسة الخاتونيّة بمحلّة حجَر الذهب ، قرب الحمّام الشركسي ، والخانقاه التي خارج باب النصر على نهر بانياس ، وأما المدرسة الخاتونية(٢) التي في آخر الشرف القبلي فهي منسوبة إلى زمرّد خـــاتون بنت جاولي أخت الملك دقاق لأمه ، وهي زوجة زنكي والد نور الدين وقد تقدّم ذكرها .

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٦ – ٦٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٧ – ٣١٨ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) في الروضتين (وأما مسجد خاتون) .

وتوفي أيضاً في هذه السنة (١) أخوها سعد الدين بن معين الدين أنزُ . وفيها (٢) توفي صاحب حمص (٣) ناصر الدين محمد ابن عمّ السلطان أسد الدين شيركوه .

وكتب القاضي الفاضل إلى تقي الدين ابن عمه بمصر يخبره بذلك: « ورد الخبر عشية الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص، بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة ، انتقل إلى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد ابن المولى أسد الدين رحمهما الله ، بمرض حادّ أعجل من لمح البصر ومردّ النظر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ونسأل الله حسن المرجع ، وهو المطلع ، والمعونة على ساعة هذا المصرع ، ونشكر الله ، ثمّ نشكره ، ونذكره بأحسن مايذكره به من يذكره ، إذ وفى النفس الشريفة العالية الناصرية وقدم قبلها من لايسرّه التقدّم بين يديه ، وجعل الله أنفسنا فداءها ، فإن تلك نعمة علينا كما هي نعمة عليه ، ولا فرّق الله لهذا البيت شملاً ، ولا قضب له حبلاً ، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه ، وأمتعه ببقاء عمه ، وأعاذه من مقابلة مقدور الله بهمه ودُهْمه(٤) ،

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٧ .

(٢) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٧ ،شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) هو : الملك القاهر محمد بن شيركو بن شاذي ناصر الدين صاحب حماة (ت ٥٨١ هـ) بحمص ، وقيل إن السلطان اغتاله بسم لأنه كان يهابه . انظر : الكامل ج ١١ ص ٥١٧ – ٥١٨ ، الروضتين ج٢ ص ٦٧ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٩٠ ، شفاء القلوب ٤٨ – ٤٩ .

(٤) الدهمة (في لسان العرب) السواد .

فليس إلاّ التسليم لما لايستطيع الخلق له دفعاً ، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى ، فإنا لانملك لها ضراً ولا نفعاً. ولخوفِ المملوك أن يلتبس الخبر في مطالعه ، ويُحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإنهاء والإشعار ، وسبق بما لايسرّه السبق به من هذه الأخبار » .

وفيها أيضاً (١) : توفي الحافظ الكبير أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد المديني الإصبهاني بها ، في شهر جمادى الأولى/وهو مشهور . (٨٨ / ظ)

والفقيه مهذب الدين عبدالله بن أسعد الموصلي المعروف بابن الدهان بحمص ، وكان المدرّس بها ، وكان علاّمة زمانه في علمه ، ونسيجَ وحده في نظمهِ وقد تقدّم منه قِطَع ، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان .

وفيها (٢) : توفي بمصر في شعبان الشيخ الزاهد أبو الثناء محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصابوني نسبةً إلى جدّ أبيه لأمّه شيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونّي ، وكان جدّه صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فنُسب إليه ، ومولد ابن الصابوني هذا سنة خمسمائة ، ودخل دمشق زمن الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فاجتمع به ونزل إلى زيارته ، وسأله الإقامة بدمشق ، فذكر له أنّ قصده زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فجهّزهُ إلى مصر ، وسيّرهُ

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٥٢٢ ، الروضتين ج ٢ ص ٦٧ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٠ .

صحبة الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان سنة سار إلى مصر كما تقدّم ، فصار بينه وبين نجم الدين صحبة أكيدة ومودّة عظيمة . وكان معروفاً بالصلاح والزهد. وقدكتب إليه الشيخ عمر الملاء الموصلي رحمه الله من الموصل إلى شيراز كتاباً . يطلب منه فيه الدعاء ، ويصف حاله أوّله (١) : « أخوه عمر بن محمد الملاء وبعد : فالّذي يتطلّع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة ، غارق في بحار النعماء ، ومغمور في هواطل الآلاء . غير أنّ أيدي البلوى بالنعم ترفعني تارة إلى مقام الصّديقين ، وتضعني [تارة](٢) أخرى إلى مقامات المتخلّفين ، ومع هذا فطلب النجاة لايفتر والحركة في طلب الفوز لاتسكن ، والعمر ينقضي بالعناد والمنى ، وماأشبه حالي بحال القائل :

آمُل في يومي إدراك المُنى
حتى إذا ولّى تمنّيت غدا
لاوطَراً أقضي من الدنيا ولا
أفعل للأخرى فعال السعدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا
ضلالة خالصةٌ ولا هُدى

ياأخي ماأخبرتك بأحوالي هذه إلاّ رجاء أن تتحرّك همتك لي بالشفقة والرأفة ، فتدعو الله لي بقلب حاضر منوّر بنور الشفقة

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٦٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٧ .
(٢) الإضافة عن نسخة المغرب .

والرّحمة . ويؤمن على دعائك من حضر من السادة الإخوان ،
(٨٩ / و) وتقول : اللّهمّ عبدك الضعيف عمر بن محمد الملاء يدعوك ويقول :

لاتُهنّي بعد إكرامك لي فشديد عادة منقطعة

وقد توّسل بنا إليك ، نسألك أن تبلغه آماله ؟ وأن تحييه حياة السعداء وأن تميته ميتة (الشهداء) (١) وتحشره في زمرة السعداء ، وأن تجعل خير عمره آخره . وخير أعماله خواتيمها ، وخير أيامه يوماً يلقاك فيه » .

وفيها أيضاً (٢) : في رمضان قُتل القوام عبدالله بن سماقة وزير ابن قرا رسلان صاحب آمد ، قتله مماليك مخدومه .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ففيها (٣) :

ردّ السلطان حلب إلى ابنه الملك الظاهر (٤) ، وسير أخاه الملك العادل مع ابنه العزيز (٥) إلى مصر واستدعى من مصر ابنه

---

(١) في الأصل ٨٩ / ظ (السعداء) ، وماثبتناه عن نسخة المغرب والروضتين .

(٢) في الروضتين ج ٢ هو : (قوام الدين أبو محمد عبدالله بن سماقة) ص ٦٧ ، وفي الكامل ج ١١ ص ٥١٤ هو : (نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود صاحب الحصن وآمد) .

(٣) انظر . الكامل ج ١١ ص ٥٢٣ — ٥٢٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٦٩ — ٧١ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٩١ — ٩٢ .

(٤) هو : الملك الظاهر غياث الدين منصور غازي بن يوسف صاحب حلب (ت ٦١٣ هـ) . انظر الفتح القسي ٣٣٠ — ٣٣١ ، النوادر السلطانية ٢٥١ ، الروضتين ج ١ ص ٧٦ ، الذيل ٩٤ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٥٥ .

(٥) هو : الملك العزيز أبو الفتح عثمان بن يوسف ، نائب والده بمصر ثم صاحبها (ت ٥٩٥ هـ) . انظر الفتح القسي ٣٢٨ ، النوادر السلطانية ٢٥١ ، الروضتين ج ١ ص ٧٦ ، والذيل ص ١٦ وذكر وفاته سنة ٥٩٦ هـ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٨ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣١٩ ، شفاء القلوب ص ١٩٦ .

الأفضل (١) وابن أخيه تقي الدين فأعطاه حماة . واشتغل بقيّة السنة في الصيد بنواحي تلّ راهط وبالاستعداد للجهاد ، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد الشرقيّة والمصريّة ، فانتظمت أموره على أحسن قضية ، وكان قومص طرابلس قد التجأ إلى السلطان وصار له على أهل ملّته من الأعوان .

قال العماد (٢) : أجمع المنجمون في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في جميع البلاد بخراب العالم في شعبان عند اجتماع الكواكب الستّة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان ، وخوّفوا بذلك من لايوثق له باليقين ، ولا أحكام له في الدين من ملوك الأعاجم والروم ، وأشعروهم من تأثيرات النجوم ، فشرعوا إلى حفر مغارات في التخوم ، وتعميق بيوت (في الأسراب) (٣) وتوثيقها . وسدّ منافسها على الريح ، وقطع طريقها ، ونقلوا إليها الماء والأزواد ، وانتقلوا إليها ، وانتظروا الميعاد ، وكلمّا سمعنا بأخبارهم استغرقنا في الضحك من عقولهم ، وسلطاننا متنمّر من أباطيل المنجميّين ، موقن بأنّ قولهم مبنيّ على الكذب والتخمين ، فلمّا كانت الليلة الّتي عيّنها المنجمّون لمثل ريح عاد ، وقد شارفنا

---

(١) هو : الملك الأفضل ابو الحسن علي بن يوسف ولد بمصر وتسلطن بدمشق (ت ٦٢٢ هـ) . انظر الفتح القسي ٣٢٩ ، النوادر السلطانية ٢٥١ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ ، والذيل ص ١٤٥ ، شفاء القلوب ١٩٦ - ١٩٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠٨ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ١٠١ ، الحاشية ١٣٣ في ترويح القلوب ص ٨٩ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) مابين القوسين في الأصل ٨٩ / ظ مكرورة .

الميعاد . ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع ونادٍ للشموع المزهرات جامع . وما يتحرّك لنا نسيم . ولا يسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مُسيم ، وما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها وهدوّها وهدوئها / . وعمل في ذلك جماعة من الشعراء منهم أبو الغنائم بن المعلّم : (٨٩ / ظ)

١ – قل لأبي الفضل قــــول معترف
مضى جمادى وجــاءنا رجبُ

٢ – وما جرت (زعزع)(١) كما حكموا
ولا بدا كوكبٌ لـــه ذنَبُ

٣ – كلاّ ولا أظلمــت ذُكــاء ولا
أبدت أذىً في قرانها الشهُبُ

٤ – يَقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجــبْ

٥ – فارم بتقويمك الفرات والاصـ
طر لابَ خيرٌ من صيفهن (٢) الخشبُ

٦ – قد بان كذب المنجميّن وفــي
أيّ مقال قالوا فما كــذبوا

٧ – مدبّر (٣) الأمر واحد ليس لسبـ
ـعة في حادث بــدا ســببُ

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٧٣ (زعزعا) .
(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٧٣ (سفرة) .
(٣) البيت السابع في الروضتين ج ٢ ص ٧٣ :
(مدبر الأمر واحد ومنى للسبع في كل حادث ســبب).

٨ ــ لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زُهرة ولا قُطبُ

٩ ــ تبارك الله حصحص الحقّ وانجا
ب التمادي وزالت الرِّيبُ

١٠ــ فليُبطل المدّعون ماوضعوا
في كتبهم ولتخرّق الكُتبُ

وفي (١) هذه السنة (٢) : توفي الإمام العلاّمة أبو محمد عبدالله بن بري بن عبد الجبار النحوي . وكان آية في علم النحو ثقة عالماً صدوقاً صالحاً ، وكان متبلّداً في أمر دنياه . توفي في السابع والعشرين من شوّال ، وسمع من جماعة .

ثمّ دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٣) .

وهي سنة كسرة حطين (٤) وفتح الساحل والأرض المقدّسة للمسلمين ، برز السلطان من دمشق أوّل المحرّم في العسكر العرمرم ، ومضى بأهل الجنّة لجهاد أهل جهنّم . فأمر ولده الأفضل بالإقامة على رأس الماء (٥) ليستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك ، ويجمع

---

(١) في حاشية الأصل ٩٠/ و العبارة : (وفاة ابن بري النحوي).

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٧٣ .

(٣) انظر : الفتح القسي ص ١٠ – ٢٢ ، الكامل ج ١١ ص ٥٣١ – ٥٣٨ ، النوادر السلطانية ٤٩ – ٥٣ ، الروضتين ج ٢ ص ٧٥ – ٨٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٠ – ٣٢١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٢ – ٩٣ ، شفاء القلوب ١١٨ – ١٢٢ .

(٤) حطين (في ياقوت) قرية بين أرسوف وقيسارية .

(٥) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (١) ص (٢٩٠) .

الأعراب والأعاجم والأتراك، ثمّ سار السلطان ، ونزل على الكرك(١) ، وأخاف أهله ، وأخذ ماكان حوله ، ورعى زروعهم ، وقطع أشجارهم وكرومهم ، ثمّ سار إلى الشوبك (٢) ، وفعل به مثل ذلك، وأنهض الأفضل سرّيةً وأمره بالإغارة على أعمال طبرية ، فصبحوا صفورية (٣) ، وساء صباح المنذَرين ، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم ، فنصر الله المسلمين ، وهلك مقدّم الأسبتار ، وحصل
(٩٠ / و) جماعة من / فرسانهم في قبضة الإسار ، فكانت هذه النوبة باكورة البركات ، وبلغ السلطان فسار ، ووصل السير بالسُرى ، وخيّم بعشترا (٤) والقدر يقول له : تعيش وترى ، وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدّجج ، ثمّ رتّبه السلطان أطلاباً (٥) ، واجتمعت الفرنج في زهاء خمسين ألفاً بصفورية ، فتعرّض لهم ، فلم ينهضوا ، وربضوا ، فترك السلطان عسكره إزاءهم (٦) ، ونزل هو في خواصّه على مدينة طبرّية ، فأطاف بسورها ، وشرع في تخريب

---

(١) انظر تعريفه في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢٩١ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٢٩٢ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ١١٤ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٣٠٠ .

(٥) الأطلاب جمع طلب : بضم فسكون : يعني الكتيبة في مصطلح ذلك العهد انظر الذيل على الروضتين ص ١٢٨ ، وفي مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٩٥ (الطلب : فرقة من الفرسان عددها خمسمائة) .

(٦) في الفتح القسي ص ١٦ يذكر (أن السلطان عسكر في بلدة خسفين) ونقول : خسفين بلدة صغيرة حالياً تابعة لمحافظة القنيطرة في الأراضي المحتلة ، وتقع إلى الشرق من بحيرة طبرية على طريق الرفيد — الزوية . وفي الروضتين ج٢ ص ١٢٠ يذكر (أنه سار منها إلى الأقحوانة) وهي : (في ياقوت) موضع بالأردن على ساحل بحيرة طبرية .

معمورها ، وبلغ الفرنج ، فوثبوا ، وركبوا ، فرجع السلطان ، ورتّب أطلابه ، والتقوا من الغد ، واقتتلوا إلى الليل ، وقد حيل بين الفرنج وبين الماء ، فباتوا حيارى ، ومن العطش سكارى ، وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، وهو يوم النّصرة ووقوع الكسرة ، وقد برّح بالفرنج العطش ، وكان النسيم في وجوههم والحشيش تحت أقدامهم ، فرمى بعض متطوّعة المجاهدين النار في الحشيش ، وهو هشيم ، فتأجّج عليهم استعارها ، وتوهّج أوارها ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطّين بوارق البوار . ولمّا أحسّ القومص بالكسرة ، هرب بطلبه ، وثبت الباقون ، واستقبلوا ، فحطّوا خيامهم على غارب حطّين ، حين رأوا المسلمين بهم محيطين ، فأعجلوا عن ضرب الخيام بضرب الهام وأحيط بهم من حواليهم ، ودارت الدوائر عليهم ، وترجّوا خيراً ، فترجّلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرف السيل ، ومُلك عليهم الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت ، فأيقنوا بالهلاك ، فما برحوا يُؤسرون ، ويُقتلون ، ووُصل إلى مقدّمهم وإبرنسهم ، وملكهم ، فتمّ أسرُ الملك (١) وإبرنس الكرك (٢) وأخي الملك جفري (٣) وأوك صاحب جُبيل وهنفري

---

(١) في شفاء القلوب ص ١٢٠ هو : (الملك جفري) .

(٢) في النوادر السلطانية ص ٥١ هو : (البرنس أرناط صاحب الشوبك) وفي الكامل ج ١١ ص ٥٢٧ هو (صاحب الكرك) ، وكذا في الروضتين ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) في النوادر السلطانية (وابن الهنفري) وكذا في الكامل ج ١١ ص ٥٢٧ ، وكذا في شفاء القلوب ص ١٢٠ .

ابن هنفـري (١) وابن صاحب اسكندرونة صاحب مـرقية (٢) ، وأُسر من نجا من القتل من الداويـّة (٣) ومقدّمها والأسبتاريّة (٤) ومعظّمـُها ، ومن البارونية من أخطأ البوار ، فأصابه الإسار ، وأُسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبر الله الإسلام بأسرهم . وقـُتلوا ، وأُسروا بأسرهم/فمـَنْ شاهد القتلى قال : ماهناك (٩٠ / ظ) أسير . ومـَنْ عاين الأسرى قال : ماهناك قتيل . ومـُذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشُفي للمسلمين كيوم حطين غليل" .

فما أفلت من تلك الآلاف إلاّ آحاد

وما نجا من أولئك الأعداء إلاّ أعداد

وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى .

قال العماد :(٥) وعبرت بها فألفيتها محلّ الاعتبار ، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار ، فمـَنْ قُتل حصرت الألسنة عن حصره وعدّه ، ومـَنْ أسر لم يكف أطناب (٦) الخيم لقيده ، وشدّه ، ولقد رأيت في الحبل الواحد ، ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس ، قال القاضي بهاء الدين بن شداد (٧) : كان الواحد منهم العظيم يخلد إلى

---

(١) في شفاء القلوب هو : (كابي) .

(٢) مرقية (في ياقوت) قلعة حصينة في سواحل حمص كانت خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند وأقطعهم القطائع .

(٣)و(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (٢) ص ٣٠٥ .

(٥) الفتح القسي ص ١٠ — ٢٢ .

(٦) طنب الخيمة اسم لا زال دارجاً في الريف السوري ويطلق على الحبال المصنوعة من الصوف أو الشعر والتي تستخدم لشد بيت الشعر إلى الأوتاد .

(٧) النوادر السلطانية ٤٩ — ٥٣ .

الأسر خوفاً على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق بــه أنّه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرّهم وحده لخذلان وقع عليهم . أمّا القومص (١) الّذي هرب : فإنّه وصل إلى طرابلس وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها . وأمّا مقدّمو الداويّة والأسبتارية ، فإنّ السلطان اختار قتلهم فقُتلوا كلّهم . وأما البرنس أرناط صاحب الكرك ، فكان السلطان قد نذر دمه إنْ ظفر به وسبب ذلك : أنّه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصريّة في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال : مايتضمّن الاستخفاف بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال : قولوا لمحمّدٍ ليم [لَمْ] (٢) يُخلّصكم ؟ وبلغ ذلك السلطان رحمه الله ، فحمله الدين والحميّة على أنّه نذر إنْ ظفر به قَتَلَهُ ، فلمّا فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس في دهليز الخيمة ، فإنّها لم تكن نُصبت بعد والناس يتقربّون إليه بالأسارى وبمَنْ وجدوه من المقدّمين ونصبت الخيمة وجلس فَرِحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه ، ثمّ استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك شربة من جُلاب مبرّد بثلج فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثمّ ناول بعضها

---

(١) القومص : تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير ، ومعناها الأصلي الرفيق ، لأنه في الأصل كان يرافق الملك في حروبه وحركاته ، ثم سمي الأمير . انظر الحاشية رقم واحد في مفرج الكروب ج ١ ص ٧٣ ، والحاشية رقم ٣١٧ في شفاء القلوب ص ١٢٠ . والقومص الذي هرب هو : ريمند بن ريمند الصنجيلي صاحب طرابلس ، تزوج بالقومصية صاحبة طرابلس وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية . انظر الكامل ج ١١ ص ٥٢٦ .

(٢) مابين القوسين ربما سقط من الأصل والإضافة عن نسخة المغرب .

البرنس ، فقال السلطان للترجمان قل للملك : أنت الّذي سقيته ،
(٩١ / و) وإلاّ أنا ماسقيته ، وكان على جميل عادة العرب وكريم / أخلاقهم ، أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَنْ أَسَرَه أَمِنْ ، فقصد السلطان بذلك الجري على مكارم الأخلاق ، ثمّ أمر بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثمّ عاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم فأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ، ووافقه على ماقال ثم قال له : ها أنا أنتصر لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم ، ثمّ عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فقام إليه وسلّ المجناة (١) وضربه بها ، فحلّ كتفه ، وتمّم عليه من حضر ، ثمّ رُمي على باب الخيمة ، فلمّا رآه الملك قد خرج على تلك الصورة ، لم يشك أنّه يُثني به ، فاستحضره السلطان وطيّب قلبه ، ثمّ جمع الأسارى المعروفين ، وأمر بقتل من وجد فيهم من الداويّة والأسبتاريّة ، وقام جماعة من الحاضرين من أهل العلم والفقراء وغيرهم يتقرّبون بقتلهم ، ثمّ سيّر الباقين (٢) إلى دمشق ، ولمّا أصبح يوم الأحد تسلّم (قلعة)(٣) طبرية . قال العماد (٤) : وكانت طبريّة في عهد الفرنج يقاسم المسلمين على نصف مغلّ البلاد من الصلت والبلقاء ، وجبل عوف والجبانيّة ، والسواد ، وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلاد حوران فخلصت المناصفات وأمنت الآفات .

---

(١) المجناة : عصاغليظة لها رأس مدبب مصنوعة من المعدن والخشب . ولا زالت تستخدم كسلاح لدى الرعاة في القطر السوري .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٨٢ يذكر أنه سير القاضي ابن عصرون بالأسرى إلى دمشق .

(٣) في الفتح القسي ص ٢٢ (حصن طبرية) .

(٤) الفتح القسي ص ٢٢ ، الروضتين ج ٢ ص ٨٢ .

وورد إلى بغداد كتاب من بعض من حضر الوقعة يقول فيه: (كان عدد الأفرنج الّذين على حطّين ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل ، فَقُتل منهم ثلاثون ألفاً ، وأُسر مثلهم ثلاثون ألفاً ، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والغنائم والأموال ، بحيث لايقدر أحد [أن](١) يصفَ ذلك، وأخذ جميع أمراء الفرنج ، وكم قد سُبي من النساء والأطفال ، يُباع الرجل وزوجته وأولاده في النداء بيعة واحدة ، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد لهما ثلاثة بنين وابنتان بثمانين ديناراً ، وأُخذ صليب الصلبوت ، وعُلِّقَ على قنطاريّة منكّساً ، ودُخل به إلى دمشق وكل يوم نرى من رؤس الفرنج مثل البطيخ ، وأُخذ من البقر والغنم والخيل والبغال والحمير مالم يجيء من يشتّريه من كثرة السبي والغنائم قال: وبلغني أنّ بعض فقراء العسكر باع أسيراً / بزربول(٢) ، (٩١ / ظ) فقيل له في ذلك ، فقال : أردتُ أَنْ يُقال : بلغ من كثرتهم وهوانهم أن بيع واحد منهم بزربول) .

وللعماد الكاتب من قصيدة في مدح السلطان (٣) :

١ – سحبتَ على الأردنّ رُدناً من القنـــا
ردينية مُلداً (٤) وخطيّة مُلســـا

---

(١) الإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) الزربول : الحذاء -وهي لا تزال تطلق على مايلبس في القدم بين البدو في القطر السوري .

(٣) انظر القصيدة مطولة في الروضتين ج٢ ص٨٣-٨٤ حيث يورد / ٣٣/ بيتاً.

(٤) الملد (في لسان العرب) الشاب الناعم .

٢ ــ حططتَ على حطّين قدر ملوكهـــم
ولم تُبق من أجناس كفرهم جنسا

٣ ــ سبايا بلاد الله مملـــوءة بهـــا
وقد شُريت بخساً وقد عُرضت نخساً

٤ ــ يُطاف بها الأسواق لاراغب لها
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا

٥ ــ شكا يَبساً رأس البرنس الّذي به
تندّى حسام حاسم ذلك اليُبسا (١)

ومن قصيدة للحليم الفاضل بن الفضل عبد المنعم الجليّاني (٢) :

١ ــ ياوقعة التلّ ماأبقيت من عجبٍ
جحافل لم يفت من جمعها بشَرُ

٢ ــ ويا ضحى السبت مااللقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطّعن قد سكِروا

٣ ــ حطّوا بحطّين مَلا ّكاً فيا عجبـــاً
في ساعةٍ زال ذاك الملك والقـــدَرُ

٤ ــ أهوى إليهم صلاح الدين مفـــترساً
وهو الغضنفر أعدى ظُفْرَه الظَفرْ

(١) اليبس (في لسان العرب) نقيض الرطوبة .
(٢) انظر قصيدته في الروضتين ج ٢ ص ١١٦ ــ ١١٧ .

٥ – أملى عليهم فصـــاروا وسط كفّته
كسرب طيرٍ حواها القانص الذكَرُ

٦ – وأنجز اللهُ للسلطان مـــوعده
ونَذْرَهُ في كَفورٍ دينهُ البَطرُ

٧ – وعاين الملكُ الأبرنسَ في دمـــهِ
فمات حياً وحيى وهو يعتذِرُ

٨ – وصُنع ذي العرش إبداع بلا سبب
فلا تقل كيف هذا الحادث الخطِرُ

٩ – بينا سباياه تجلى في دمشق إذا
ملك الفرنج مع الأتراك محتجَزُ

١٠– إزاءه زُعماء الساحلـــين معـــاً
مُصفّدين بحبل القهر قد أُسِروا

١١ – مالي أرى ملك الأفرنج في قفصٍ
أينَ القواضب والعسالة (١) السُّمرُ

١٢– والأسبتار (٢) إلى الديوية (٣) التأموا
كأنّهم سَدٌ يأجوج إذا اشتجروا

١٣– يتلوهم صلبوت سيق منتكســاً
وحوله كلّ قسيس له دُبَرُ

---

(١) وعسل الرمح يعسل وعسلاً وعسولاً وعسلاناً : اشتد اهتزازه واضطرب ، ورمح عسال وعسول : عاسل مضطرب لدن . (انظر لسان العرب) .

(٢) و (٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٣٠٥ .

وله من أخرى (١) :

١ ــ أتوا (بحبال) (٢) أُبرِمَتْ لِأسارنا
فسقناهم فيها قطيناً (٣) محدداً / (٩٢ / و)

٢ ــ وساموا تجاراً تشترينا غوالياً
فبعناهم بالرّخص جهراً على النِدا

٣ ــ وجرّوا جيوشاً كالسيول على الصُوا
فآضت غُثاء في البطاح مُبدّدا (٤)

٤ ــ وقالوا ملوكُ الأرض طوع قيـــادنا
إذا الكُلّ منهم في القيود مُعَبّدا

٥ ــ وقد أقطع الكُند(٥) العراق مُوقِعاً
فَأُودعَ سجناً وسط جلّق مُؤْصَدا

٦ ــ وأقسم أنْ يسقي بدجلة خيلَــــهُ
فما وردَ الأردنَّ إلاّ مُصفّدا

٧ ــ أتى الكُند من بيسان يحمي قمامة (٦)
فكان تقضى ملكه قبل يُبْتَدى

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١١٧ ــ ١١٨ يذكر : أن اسم هذه القصيدة هو : القدسية الكبرى وأن عدد أبياتها / ١٥٢ / بيتاً ، وذكر منها / ٢٥ / بيتاً .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ١٧ (كجبال) .

(٣) قطينا (في لسان العرب) القطين : جماعة القطان اسم للجمع وقيل : القطين الساكن في الدار والجمع قطن .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١١٧ (فأضت غثاء في البطاح ممددا) .

(٥) الكند : تعريب حرفي للكلمة اللاتينية (Keing) أي الملك .

(٦) قمامة (في ياقوت) أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس ، وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة ، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لا عتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها .

٨ ـ فما عقد الرّايات إلاّ محـلّلاً

ولا حلّلَ الرايات إلاّ مُعْقّدا

٩ ـ ووقعة يوم التلّ إذ قَبضت بـه

جبابرة الآفرنج حيرى وشُرّدا

١٠ـ عليهم من البلوى سرادق ذلّـة

ومَن ذَلّ ماتت نفسه فتقيـدا

١١ـ ترى المنسر الديويّ يُلقي سلاحه

وينساق مابين السبايا مُلهّـدا

١٢ـ يُباعون أسراباً شرائح أحبُـل

كشكة عصفور من الرّيش جُرِدا

١٣ـ وما طرق الأسماع من عهـد آدم

كَملحمة التلّ التي ثلّت العدى

١٤ـ ومن عجب خمسون ألف مقاتـل

سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

ومن قصيدة لأبي الحسن الساعاتي (١) :

١ ـ أدرت (٢) على الفرنج وقـد تلاقت

جموعهم عليك رحىً طَحونا

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٣) ص (٢٨١) .

(٢) انظر القصيدة في الروضتين ج ٢ ص ٨٤ – ٨٥ ، شفاء القلوب ص ١٢٦ – ١٢٧ ، ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٤٠٦ .

٢ - ففي بيسان ذاقوا منك بؤساً
وفي صفدٍ أتوك (مُصَفَّدينا)(١)
٣ - لقد جاءتهم الأحداث جمعاً
كأنّ صروفها كانت كمينا
٤ - وخانهم الزمان ولا ملام
فلست بمبغِض زمناً خؤوناً
٥ - (لقد) (٢) جرّدتَ عزماً ناصرياً
يحدّثُ عن سناه طور سينا
٦ - فكنت كيوسف الصدّيق حقّاً (٣)
له هوت الكواكب ساجدينا
٧ - لقد أتعبت من طلب المعالي
وحاول أن يسوس (٤) المسلمينا
٨ - وإن تك آخراً وخلاك ذم
فإنّ محمّداً في الآخرينا

(٩٢ / ظ) وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنئه بهذه الكسرة ، فإنّه كان/ غائباً بدمشق ، من جملة الكتاب (٥) « ليهن المولى أنّ الله قد أقام به

---

(١) في ديوان ابن الساعاتي ج ٢ (بها ضمينا) ص ٤٠٦ .
(٢) في ديوان ابن الساعاتي ج ٢ (وقد) ص ٤٠٦ وكذا في شفاء القلوب .
(٣) في ديوان ابن الساعاتي ج ٢ (لما) ص ٤٠٦ ، وكذا في شفاء القلوب .
(٤) في أبي شامة : الروضتين ج ٢ (يؤس) ص ٨٥ .
(٥) انظر الروضتين ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣ بتصرف يسير .

الدين القيّم . وأنّه كما قيل : أصبحت مولاي ومولى كلّ مسلم . وأنّه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة وأورثه الملكين ملك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموع لم تُمسح من خدودها ، وكلّما فكّر الخادم في أنّ البِيعَ تعود وهي مساجد . والمكان الّذي كان يُقال فيه : أنّ الله ثالث ثلاثة(١) ، يقال فيه: أنّه هو الواحد(٢) ، جدّد لله شكراً تارةً يفيض من لسانه وتارةً يفيض من جفنه ، وجزى يوسف خيراً على إخراجهِ الحق من سجنه ، والمماليك ينتظرون أمر المولى . فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق ، قد عوّل على دخول حمام طبريّة .

(تلك المكارم لاقعبـان من لبن
وذلك الفتح لاسيف بن ذي يزن) (٣)

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح سبح طويل ، وقول جليل » .

وكتب العماد الكاتب إلى الديوان ببغداد كتاباً عن السلطان أوّله (٤) : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون»(٥) (الحمد لله على ماأنجز من الوعد وعلى نصرته

---

(١) قصد بها الديانة المسيحية ، والتثليث هو (اسم الآب ، والابن ، وروح القدس آمين) .

(٢) في الروضتين ج ٢ (يقال فيه اليوم) ص ٨٣ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ورد البيت :

(وذلك الفتح لا عمان واليمن وذلك السيف لا سيف بن ذي‌يزن)

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ٨٩ ، شفاء القلوب ص ١٢٢ -١٢٣ .

(٥) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

لهذا الدين الحنيف من قَبلُ ومن بَعدُ . وعلى ماجعل بعد العسر يسراً . وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهوّن الأمر الّذي ماكان الإسلام يستطيع عليه صبراً . وخوطب الدين بقوله : « ولقد مننا عليك مرّة أخرى »(١) فالأولى في عصر النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم والصحابة . والأخرى هذه الّتي عَتق فيها من رقّ الكآبة فهو قد أصبح حُرّاً . ريّان الكبد الحرّى ، والزمان كهيئة استدار ، والحقّ ببهجته قد استنار ، والكُفر قد ردّ ماكان عنده من (المستعار) (٢) فالحمد لله الّذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، بعدما كان جذيذاً حبله ، مبيضاً نصره . مخضراً نضله . متّسعاً فضله . مجتمعاً شمله) . وذكر بقيّته .

وقال ابن أبي طي (٣) : (وحدّثني (٤) والدي أبو طي حميد النجّار (٥) ، قال : كنت بالموصل / في سنة خمس وخمسين (٩٣ / و) وخمسمائة ، فزرت الشيخ عمر الملاّء ، فدخل إليه رجل فقال : أيّها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأنّي بأرض غريبة لاأعرفها ، وكأنّها مملوءة بالخنازير . وكأنّ رجلاً في يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه ، فقلت للرجل : هذا عيسى بن مريم ، هذا المهدي ، قال : لا ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا يوسف ، مازادني على

---

(١) سورة طه آية ٣٧ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٨٩ (من المتاع المسمار) . وفي شفاء القلوب (من السفار) .

(٣) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ١٩٦ .

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ٨٥ .

(٥) في الروضتين ج ٢ (عن أحد التجار) .

ذلك . قال : فتعجبّت الجماعة من هذه الرؤيا ، وقالوا : إنّه سيقتل النصارى رجل يُقال له : يوسف ، وحدست الجماعة أنّه يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب (١) ، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة (٢) ، واسمه يوسف ، فحدس بعض الجماعة عليه ، قال : وأُنسيت أنا هذه الواقعة . فلمّا كانت سنة كسرة حطّين ذكرتها . فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله ، قال : وحدّثتني ظئر لي(٣) من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر . قالت : كانت والدة السلطان تخبر : أنّها أُريت في نومهــا وهي حامل بالسلطان فقيل لها : إنّ في بطنك سيفــاً من سيوف الله تعــالى رحمة الله عليه .

فصلٌ : في ذكر البلاد التي فُتحت بعد هذه الكسرة وقبل البيت المقدّس ، وقد تقدّم ذكر فتح طبرية ثاني يوم الكسرة (٤) قــال

---

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ويعتبر المؤرخون والده المؤسس السياسي للدولة الموحدية وولي يوسف الحكم بعد وفاة والده سنة (٥٥٨ هـ — ١١٦٣ م) وتوفي سنة (٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م) . انظر : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٥ ، وفي شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٤ يذكر وفاته سنة ٥٨٧ هـ .

(٢) هو : يوسف بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن احمد بن اسحاق بن جعفر أمير المؤمنين المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله ، بويع بالخلافة بعد وفاة والده سنة (٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م) (ت ٥٦٦هـ — ١١٧١ م) . انظر : فوات الوفيات ج ٤ ص ٣٥٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٣) الظئر (في لسان العرب) العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له من الناس والابل ، الذكر والأنثى في ذلك سواء .

(٤) انظر : الفتح القسي ٢٣ — ٣٦ ، الكامل ج ١١ ص ٥٣٩ — ٥٤٣ ، النوادر السلطانية ص ٥٢ — ٥٣ ، الروضتين ج ٢ ص ٨٥ — ٩٢ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٩٤ — ٩٦ ، شفاء القلوب ص ١٢٢ — ١٢٦ .

القاضي بهاء الدين بن شداد : ثمّ رحل السلطان طالباً عكا (١) ، فقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأوّل . فأخذها واستنقذ من كان بها من الأسارى . وكانوا زهاء أربعة آلاف نفس ، واستولى على مافيها من الذخائر والأموال . والتجاير والبضائع ، فإنّها كانت مظنّة التجار ، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحل ، يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس (٢) ، وحيفا(٣) ، وقيسارية ، وصفورية والناصرة (٤) ، وكان ذلك لخلوّ الرجال بالقتل والأسر .

وقال العماد (٥) : خرج أهل البلد - يعني عكا - يطلبون الأمان . فأمّنهم على أنفسهم فقط ، وفتحوا البلد يوم الجمعة ، فجئنا إلى كنيستها العظمى ، فرتّب بها المنبر والقبلة ، وهي أوّل جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح ، وكان الخطيب والإمام فيها : الفقيه جمال الدين عبد اللّطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، (٩٣ / ظ) وولاّه السلطان مناصب الشريعة بعكا/الخطابة والقضاء والحسبة والوقف ،

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) نابلس (في ياقوت) بضم الباء الموحدة واللام والسين المهملة وهي : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لصيقة في جبل أرضها حجر بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ .

(٣) حيفا (في ياقوت) حصن على ساحل بحر الشام - أي البحر الأبيض المتوسط - قرب يافا .

(٤) الناصرة (في ياقوت) قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً فيها كان مولد المسيح بن مريم عليه السلام .

(٥) انظر الفتح القسي ص ٢٣ - ٣٦ .

قال : ووصل العادل من مصر وفتح في طريقه حصن مجدل يابا (١)، ومدينة يافا (٢) عنوة ، قال : وأمّا الفولة (٣) فهي قلعة للداويـّة حصينة وفيها ذخائرهم وأموالهم ، فلمّا خرج الداويـّة منها وقُتلوا ، لم يبق فيها إلاّ أتباع وغلمان، فسلّموها وجميع مايجاورها كدبوريـّة(٤) وجنين (٥) وزرعين (٦) والطور (٧) واللّجون (٨) وبيسـان (٩) والقيمون (١٠) وجميع مالعكا وطبرية من الولايات والزيب (١١) ومَعليا (١٢) والبعنة (١٣) ، واسكندرونه (١٤) ، ومَنوات (١٥) ،

---

(١) مجدل يابا (في ياقوت) مجدل يابه : قرية قرب الرملة فيها حصن محكم .

(٢) أنظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (١) ص ٢٣٢ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٤ .

(٤) دبورية (في ياقوت) بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٧ ص ١١٥ .

(٦) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٤ .

(٧) الطور (في ياقوت) بالضم ثم السكون وآخره راء ، والطور في كلام العرب : الجبل ، والطور جبل بعينه مطل على طبرية الأردن .

(٨) اللجون (في ياقوت) بلد بالأردن ، وبينه وبين طبرية عشرون ميلا .

(٩) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ .

(١٠) قيمون (في ياقوت) بالفتح ثم السكون وآخره نون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين .

(١١) الزيب (في ياقوت) قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا .

(١٢) معليا (في ياقوت) بالفتح ثم السكون ، وبعد اللام ياء تحتها نقطتان : من نواحي الأردن بالشام .

(١٣) لم أعثر على تعريف بها والمرجح أنها في القطر الفلسطيني .

(١٤) اسكندرونة (في ياقوت) : هي مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام بينها وبين بغراس أربعة فراسخ ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ . وهي حالياً في الأراضي التركية وهي اللواء السليب .

(١٥) منوات (في ياقوت) بالفتح ثم السكون ، وآخره ثاء مثلثة : بليدة بسواحل الشام قرب عكة .

وأرسوف (١) : واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف . وأقطع السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد ابن لاجين ، وهو ابن ستّ الشام بنت أيوب ، نابلس وأعمالها ، فتوجّه إليها . وأوّل ماأناخ على سبسطيّة (٢) ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام ، وقد اتّخذه الأقسّا كنيسة ، وقد حجبوه وحلّوه ، ففتح للمسلمين أبوابه ، وأظهر للمصلّين محرابه ، قال : وأرسل السلطان إلى تبنين (٣) ابن أخيه تقي الدين فضايقها ، فراسلوا السلطان ، وسألوه الأمان ، واستمهلوا خمسة أيام ، فأُمهلوا ، وأطلقوا أسارى المسلمين ، وهذا دأبه في كلّ بلد يفتحه ، أنّه يبدأ بالأسارى فيفكّ قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها . فخلّص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير ، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف ، ثمّ تسلّم السلطان بعد تبنين صيدا (٤) ، وصرفند(٥) ، وبيروت ،

(١) أرسوف (في ياقوت) بالفتح ثم السكون ، وضم السين المهملة ، وسكون الواو ، وفاء : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .

(٢) سبسطية (في ياقوت) بفتح أوله وثانيه ، وسكون السين الثانية ، وطاء مكسورة ، وياء مثناة من تحت مخففة وهي : بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان .

(٣) تبنين (في ياقوت) بكسر أوله وتسكين ثانيه ، وكسر النون ، وياء ساكنة ، ونون أخرى : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٤) صيداء (في ياقوت) بالفتح ثم السكون ، والدال المهملة ، والمد ، وأهله يقصرونه : وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ .

(٥) صرفند (في ياقوت) بالفتح ثم التحريك ، وفاء مفتوحة ، ونون ساكنة ، ودال مهملة ، وهاء : قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام .

وجبيل (١)، وكان صاحب جُبيل في الأسر (٢) فسلّمها وسَلِم وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين ، فذاقوا العزّة بعد الذلّة ، ورفع المسلمون رؤوسهم . وعرفوا نفوسهم . وكان كلّ من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار ، فصارت صور عشّ غِشّهم ، ووكـر مكرهم ، وملجـأ طريدهم ، ومنجى شريدهم ، ثمّ وصلها من البحر بعض شياطين الفرنج . يقال له : المركيس (٣) فزمّ الأمور . وأرسل إلى الجزائر يستعدي ، ويستدعي ، ويستنفر ، ويستنصر . وثبت في صور ونبت . وجمع إليه من الفرنج كلّ من تشتّت ، فامتلأت ، وكانت خالية ، وانتاشت وكانت بالية ، وتعللّت وكانت معتلة ، وتعقدّت وكانت منحلّة . ولم يُحتفل بها ، فأُخِر فتحها ، فاستجدّت رمقاً بالمُهلة ، والمركيس في أثناء (٩٤ / و) ذلك يحفر الخندق ، ويُحكمه ، ويعقد الموثق ويُبرمه ، ويجمع المتفرّق ، وينظمه .

قـال : واستحضر السلطان ملك الفرنج ، ومقدّم الداوّية في قيودهما ، والتزم لهما أن يطلقهما متى تمكّن بإعانتهما من بقيّة البلاد ، وسار ، فنزل على عسقلان فحصرها ، وترددت مراسلات بين أهلها

---

(١) جبيل (في ياقوت) : بلد في سواحل دمشق ... وهو بلد مشهور في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ من بيروت .

(٢) هو : أوك ، صاحب جبيل ، أسر أثناء المعركة ، وأرسل إلى دمشق مع الأسرى ، فتفاوض مع الصفي بن القابض ، على تسليم جبيل مقابل اطلاق سراحه ، انظر العماد : الفتح القسي ص ٣٢ — ٣٣ ، .

(٣) هو : كونراد أوف مونتغرات (Conrd of Monterrat) وهو من أفراد الأسرة الملكية المقدسة (انظر زكار : حطين ص ١٧٠) .

والملك ، ثمّ سلّموها يــوم السبت ، ســلخ جمادى الآخرة ، وخرجوا بنسائهم وأموالهم . وكان السلطان أخذ في طريقه إليها الرملة ، وتُبنين ، وبيت لحم (١) ، والخليل (٢) ، وأقام بها حتى تسلّم حصون الداويّة ، غزّة (٣) ، والنطرون(٤) ، وبيت جبريل (٥) ، ولُدّ (٦) والداروم (٧) ، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . وكان السلطان رحمه الله ، قد استدعى بالأساطيل من مصر ، فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفق يكسر ويكسب ، ويسل ويسلُب ، ويقطع الطريق على سفن العدوّ ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه .

---

(١) بيت لحم (في ياقوت) بالفتح وسكون الحاء المهملة : بليدة قرب البيت المقدس .

(٢) الخليل (في ياقوت) اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس بينهما مسيرة يوم .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٤ ص ٢٢١ .

(٤) النطرون : ربما قصد بها اللطرون : وهي مدينة في فلسطين تقع بين القدس والرملة . (انظر الأطلس مصور فلسطين والأردن السياسي).

(٥) بيت جبريل (في ياقوت) بيت جبرين : بليدة بين المقدس وغزة وبينه وبين القدس مرحلتان وبين غيره أقل من ذلك ، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الفرنج .

(٦) لد (في ياقوت) بالضم والتشديد ، وهو جمع ألد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٧) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٥ ص ٤٠٧ .

فصل في فتح البيت المقدّس شرفه الله تعالى .

قال القاضي ابن شداد (١) : لمّا تسلّم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر الّتي كانت متفرّقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة . فنزل عليه يوم الأحد ، خامس عشر رجب ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرّجالة ، ولقد تجاوز أهلُ الخبرة عدّةَ من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ، ماعدا النسوان والصبيان (٢) .

قال العماد : وكان به من مقدّمي الأفرنج باليان بن بارزان ، والبطرك الأعظم ، والّذين أغفلتهم حياطة الفرسان الداويّة والاسبتاريّة ، والبارونية ، وقد حشروا وحشدوا . فكانوا ستين ألف مقاتل من

(١) انظر : الفتح القسي ص ٣٦ – ٤٥ ، الكامل ج ١١ ص ٥٤٦ – ٥٥٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٩٢ – ٩٦ ، النوادر السلطانية ٥٣ – ٥٤ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٩٦ – ٩٧ ، شفاء القلوب ص ١٢٨ – ١٣٨ مع نص خطبة الجمعة في بيت المقدس .

(٢) في حاشية الأصل ٩٤ / ظ وبخط مغاير لخط الناسخ يذكر : (وهنا لطيفة ينبغي ذكرها فإني لم أرها في هذا الكتاب ، ونقلها ابن أبي محمود في مصنفه فضل بيت المقدس ، وهي : أنه قيل ان السبب الداعي إلى فتح بيت المقدس للملك صلاح الدين رحمه الله ، أن شاباً من أهل دمشق كان مأسوراً بها – أي بيت المقدس – فكتب إلى السلطان رحمه الله رقعة فيها هذه الأبيات :

ياأيها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس

وقيل إن الملك صلاح الدين رحمه الله ، رجه (وربما رجاء) من ذلك الشاب أهليه ، فولاه خطابة المسجد الأقصى – ويوجد ثلاث كلمات غير مقروءة) .

فارس وراجل ، وقالوا : كلّ واحد منّا بعشرين ، وكلّ عشرة بمائتين ، ودون قُمامة تقوم القيامة ثم لمّا قوي عليهم الحصر، واشتدّت الحرب ، طلبوا الأمان ، فأبى السلطان رحمه الله ، وقال : ماآخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنّهم حينئذ استباحوا القتل ، فأنا أفني رجالهم قتلاً ، وأحوي
(٩٤ / ظ) نساءهم سبياً ، فقالوا :/ إذا أيسنا من أمانكم ، قاتلنا قتال الدم ، فلا يُجرح واحد منّا حتى يجرح عشرة ، وأنّا نحرق الدور ونخرّب القبّة ، ونقلع الصخرة ، ونعمّي عين سلوان (١) ، ونخسف المصانع(٢) ، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ، فنبدأ بقتلهم ، ثم نُهلك الأموال ، ونُعدم النساء والأطفال فلا يحصل لكم سبي ولا مال ، فشاور السلطان أصحابه ، فقالوا : الصواب أن نُبيعهم نفوسهم ، ونُعمّم بصَغار الجزية رؤوسهم، ونُدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم ، واستقرّ بعد مراودات ومعاودات عن كل رجل عشرة دنانير وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ صغير أو صغيرة ديناران ، ومن عجز بعد أربعين يوماً عمّا لزمه ، أو امتنع منه وما سلّمه ، ضُرب عليه الرّق ، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّمو الداويّة والاسبتار في هذا الضمان ، وبذل ابن بارزان ثلاثين

(١) عين سلوان (في ياقوت) محلة في ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جناناً عظيمة وقفها عثمان بن عفان رضي الله عنه على ضعفاء البلد تحتها بئر أيوب ... قال عبيد الله الفقير : ليس من هذا الوصف اليوم شيء لأن عين سلوان محلة في وادي جهنم في ظاهر البيت المقدس لاعمارة عندها البتة إلا أن يكون مسجداً أو مايشابهه وليس هناك جنان ولا ربض ، ولعل هذا كان قديماً والله أعلم .

(٢) المصانع (في لسان العرب) الأبنية ، وقيل : هي أحباس تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع .

ألف دينار عن الفقراء . وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وهذه اللّيلة هي مثل ليلة معراج النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء والإسراء به إلى بيت المقدس في أحد الأقوال(١) ؛ وكان في القدس أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان . وأُغلقت دونهم الأبواب ، ورُتّب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النوّاب . ووكل بكلّ باب أمير ومقدّم كبير ، قال : ولو حفظ ذلك المال حقّ حفظه ، لفاز منه بيت المال بأوفر حظّه . لكنّه تمّ التفريط وعمّ التخليط ، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائتي ألف (٢) دينار ، وبقي من بقي تحت رقّ وأسار .

قال القاضي ابن شداد : كلّ من أحضر القطيعة سَلِم وإلاّ أُخذ أسيراً ، وفرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين ، وكانوا خلقاً كثيراً زهاء ثلاثة آلاف أسير ، وأقام عليه السلطان رحمه الله ، يجمع الأموال ويفرّقها على الأمراء والعلماء ، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى صور ، ولقد بلغني : أنّه رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء / وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً ، (٩٥ / و)
وكان رحيله في الخامس والعشرين من شعبان هذه السنة ؛ فكانت مدّة إقامته به بعد فتحه أقل من شهر ، قال : (٣) : وكان

---

(١) بازائه في حاشية الأصل ٩٥ / و : (كان تسلم المسلمين لمدينة القدس يوم الجمعة ٢٧ من رجب وهي مثل ليلة المعراج) .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٩٥ (الف دينار) .

(٣) انظر : الفتح القسي ص ٤٨ – ٤٩ ، النوادر السلطانية ص ٥٣ – ٥٤ ؛ الروضتين ج ٢ ص ٩٦ – ١١٥ .

فتوحاً عظيماً . شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن أرباب الحرق والحُرَق وذلك أنّ الناس لمّـا بلغهم ما منّ الله به على يده من فتوح الساحل ، شاع قصده للقدس ، فقصده العلماء من مصر والشام ، بحيث لم يتخلّف معروف عن الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير . وحُطّ الصليب الّذي كان على قبّة الصخرة . وكان شكلاً عظيماً . ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وقال العماد : تسلّم المسلمون القدس يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها ، وطلعت الرايات الناصريّة على شرفاتها ، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها وللجمعة مقدّمات وشروط . لم يمكن استيفاؤها ، وكان المسجد الأقصى لاسيّما محرابه مشغولاً بالخنازير مغموراً بالنجاسات والأبنية (١) ، فأمر السلطان بكشف ذلك كلّه ، وتنظيفه وتطهيره ، فاجتمع الخلق في ذلك الأسبوع على تفريق ذلك المجموع ، وتعاونوا حتى كشفوه ، ونظّفوه ورشوه وفرشوه ، وجلس السلطان بالمخيّم ظاهر القدس للهناء على هيئة التواضع ، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار وبابه مفتوح ورفده ممنوح ، وأمر بكتب البشائر إلى البلاد ، قال العماد : فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة كلّ كتاب بمعنى بديع وعبارة (٢) .

---

(١) الأبنية (في لسان العرب) جمع مفردها البناء : المتبنى . والبنى الأبنية من المدر أو الصوف .

(٢) انظر افتتاحية كتاب البشارة بهذا الفتح إلى الديوان العزيز ببغداد في الروضتين ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

قال : وأمر باتّخاذ المنبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه .

فخطب عليه في الجمعة الآتية القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي ، وقضى الفرض ، ثمّ استدعى السلطان من حلب المنبر الّذي فيه الآن . وكان نور الدين رحمه الله قد اتّخذه وأعدّه للقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة . وعُدَّ ذلك من كراماته وفعلاته المستحسنة ، وهو من أولياء الله الملهَمين وعباده المحدّثين المكرمين ، أزهد العُبّاد ، وأعبد / الزهّاد ، ومن الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار ، وقد نظر (٩٥ /ظ) بنور الفراسة أنّ الفتح قريب ، وأنّ الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب ، قد طهّره الله من العيب ، وأطلعه على سرّ الغيب ، وشملت بعده بركته ، وخُتمت بافتتاح ملك السلطان صلاح الدين مملكته ، وهو الّذي ربّاه ولبّاه وأحبّه وحباه ، وأمر السلطان بكشف الصخرة المقدّسة وتطهيرها ، ثمّ صانها بشبابيك من حديد ، وحمل إليها وإلى محراب الأقصى مصاحف وربعات ، ورتّب الأئمة والقومة ، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه ، وتولّى تقي الدين كنس تلك الساحات والعراص ، ثمّ غسلها بالماء مراراً حتى تطهّرت ، ثم أتبع الماء بماء الورد صبّاً حتى تعطّرت ، وكذا طهّر حيطانها وغسل جدرانها ، ثمّ أتى بمجامر الطيب فتضوعّت وتبخرّت ، ورتّب السلطان بمحراب داود عليه السلام إماماً ومؤذنين وقُوامّاً وهو الحصن الّذي يقيم به الوالي ، فأحياه وجدّده ، وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد ، وعيّن الكنيسة المعروفة بصند حنة ، عند باب أسباط مدرسة للشافعيّة ، وعيّن دار البطرك بقرب كنيسة قمامة رباطاً للصوفيّة ، ووقف عليها وقوفاً ، وأسدى بذلك معروفاً . رحمةَ الله عليه .

وشرع الفرنج في إخلاء البيوت وبيع ماذخروه من الأثاث والقوت ، وبقي منهم ممّن ضُرب عليهم الرق زهاء خمسة عشر ألفاً في الحبس ، ففرقهم السلطان ، وتناهت بهم البلدان ، وبذل النصارى الساكنون بالقدس مع القطيعة الجزية ، فأقرّوا .

وأقام السلطان بالقدس حتى تسلّم مابقربه من حصون ، واستباح كلّ ماللكفر به من مصون ، ثمّ عمد إلى ماجمعه ففرّقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه ، وجميع الأسرى المطلقين ، وكانوا ألوفاً من المسلمين ، فكساهم وواساهم ، فانطلق كلّ منهم إلى وطنه .

ومن كلام العماد أيضاً في ذكر حصار القدس : أقامت المنجنيقات على حصانته حدّ الرجم ، وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم ، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة ، وحجرت على حكم
(٩٦ / و) السُور / بسفه الأحجار المتداركة . وحسرت النقوب عن عروس البلد نُقُب الأسوار ، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار (١) وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل وكان متأخراً بدمشق لعارض (أمّا الفتح فمن جملة بركات همته وآثار جذبات عزمته ، فإن الله سهّل ماسجل أهل الدهر بأنه صعب ، وأهبّ نسيم النصر إيان يُقال ليس له مهبّ ، وخصّنا بهذا الشرف ، وألحقنا في هذه الفضيلة ، بصالحي السلف وقد بُدّل الكفر بالإيمان ، والناقوس بالأذان ، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدّس أبواب الجنان ، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران ، وصلى مُحاربُ الدين في المحراب ، ورفع

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ٩٩ .

الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب . وغُسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض كغزارة الأمواه ، وقُبلّت بالشّفاه ، وبوشرت بالأفواه . وطُهرّت بأهل العلم والحلم من أدناسِ أهل الجهل والسِّفاه) (١) . ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى بغداد أوّله (أدام الله أيام الديوان العزيز ، ولازال مظفر الجدِّ بكال جاحد تماّصَ ظلّ الكافر المبسوط ، وصَدَقَ الله أهلُ دينه ، فلما وقع الشرط وقع المشروط ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرّك راغمة ، وأدلجت السيوف والآجال نائمة ، واستردّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً ، وظفروا يقظة بما لم يُصدّقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً) . (٢) .ومنه في وصف نقب السُور : (فأخلي السوُر من السّيارة . والحرب من النظّار ، وأمكن النقّاب ، أن يُسفرّ للحرب النقاب ، وأن يعيدَ الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سَرده بأنياب معوله ، وحلّ عُقَده بضربه الأخرق الدالّ على لطافة أنمله . وأسمع الصخرة الشريفة حنينه باستغاثته إلى أن كادت ترق / لمقتله ، وتبرّأ بعض الحجارة من بعض . وأخذ (٩٦ / ظ) الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض). ومنه ومن غيره أيضاً(٣) : (أخرج يوم الجمعة من بيت الله (٤) المقدس أهل الأحد ، وفسح من كان يقول : أن الله ثالث ثلاثة بمن يقول : هو الله أحد ، وأعان

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ ، شفاء القلوب ١٤٠ — ١٥٠ والحاشية رقم ٤٠٣ في شفاء القلوب ص ١٤٠ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ١٠٠ (النائم) .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤) في الروضتين (وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة) ج ٢ ص ٩٧ .

الله بإنزال الملائكة والروح . وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح . وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً . وعُبد الله في (بيته) (١) المقدّس سراً وجهراً ، ومُلكت بلاد الأردن وفلسطين (نجداً وغوراً) (٢) وبراً وبحراً ، ومُلئت إســلاماً ، وكانت قد مُلئت كفراً . وتقاضى الخادم دَين الله الذي غلق رهنه دهراً . والحمد لله شكراً حمداً ، يُجدّد للإسلام كلّ يومٍ نصراً ، ويزيد وجوه أهله ببُشرى (فتوحه) (٣) بِشراً ، وقد (عادت) (٤) الكنائسَ مدارس ، وأضحت بإحياء رسم التوحيد رسومُ الكفر عافية دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ونَعَشَها الله من العثرة ، وقد تسلّمنا مع البيت المقدس جميع المعاقل ، من حد الداروم إلى حدّ طرابُلس ، وكلّ ماكان جارياً في مملكة القدس ونابلس ولم يبق إلاّ صور وهي بحمد الله مستفتحة . والقلوب بتذليل جامحها منشرحة ، هذا فتح عظيم قَدْرُه، جسيم فخرهُ ، فاضلٌ عصرهُ كامل نصرهُ غير منسيّ إلى يوم الحشر ذكره، وجاء من نعم الله مالزِم على الأبد شكره. وأُعيد إلى الصخرة ذكر الله بعد طول الغربة ، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة ، ودنا المسجد الأقصى ، فأقصيَ منه الساجد للشمس ، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البترك والقس ، وأبدل النّاقوس بالأذان ، بل الكفر بالإيمان) .

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٩٧ (البيت) .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٩٧ (غوراً ونجداً) .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ٩٧ (فتتوجه) .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ٩٧ (واعيدت) .

وقال العماد (١) من جملة كلامه في فتح القدس : وعيّن السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي الزكي بن الزكي للصلاة والخطبة ، وفرغ تلك الرتبة فصعد وسعد ، وحَمِدَ وحُمِد ، وأدت المعاني الشريفة ألفاظهُ ، ونبّه الأقاصي والأداني إيقاظه ، وملأ المسامع ، وأجرى المدامع . وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع ، والنهج المتبوع ، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح/ البكر مااقتضى به أبكار الاستعارات ، بأبدع البراعات ، وأبرع (٩٧ / و) العبارات وصدع بالحق ، وفاز بالسَبْق ، وحاز التفضيل على فضلاء الغرب والشرق .

قلتُ : تقدم ذكر القصيدة (٢) التي مدح بها القاضي محيي الدين المذكور السلطانَ عند فتحه حلب ، وبشّرهُ فيها بافتتاح القدس ، فلمّا فتح السلطان البيت المقدس ، تطاول الخطابة به يوم الجمعة كلّ واحد من العلماء الذين كانوا حاضرين معه ، وجهّز كلّ واحد منهم خطبة بليغة طمعاً في أن يكون هو الذي يُعيّن لذلك ، فخرج المرسوم إلى القاضي محيي الدين المذكور يوم الجمعة أن يخطب هو وحضره السلطان وأعيان دولته ، وهي أوّل خطبة أُقيمت به بعد الفتوح(٣)وهذه نسخة الخطبة(٤)(الحمدلله ربّ العالمين الرحمن الرحيم)(٥)

---

(١) انظر : الفتح القسي ٤٩ — ٥٠ ، الروضتين ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩

(٢) انظر مطلع القصيدة في الروضتين ج ٢ ص ٤٦ ، / والأصل ٨٢ / ظ شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٣٧ .

(٣) بازائه في حاشية الأصل ٩٧ / ظ (خطبة لفتح بيت المقدس) .

(٤) انظر الخطبة في الروضتين ج ٢ ص ١١٠ — ١١٢ ، شفاء القلوب ص ١٣٠ — ١٣٩ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٩ ، وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٦٤ ، كنز الدرر ٨٧ .

(٥) سورة الفاتحة الآيات من ١ — ٧ .

إلى آخر سورة الفاتحة (فقُطع دابر القوم الذين ظلموا) (١) (والحمد لله ربّ العالمين . الحمد لله الذي خلق السّموات والأرض ، وجعل الظُّلمات والنّور) الآية (٢) (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) الآيات الثلاث من أوّل سورة الكهف (٣) (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) (٤) الآية (الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض) (٥) الآية من أول سبأ ، (الحمد لله فاطر السموات والأرض (٦) الآيات الثلاث من أوّل سورة فاطر . ثمّ قال (٧) : الحمدُ لله مُعزّ الإسلام بنصره ، ومُذلّ الشّرك بقهره ، ومصرّف الأمور بأمره ، ومُديم النعم بشكره ، ومُستدرج الكفّار بمكره ، الذي قدّر الأيام دُولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتّقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلّه ، وأظهر دينه على الدين كلّه ، القاهر فوق عباده فلا يُمانع ، والظاهر على خليقته فلا يُنازع ، والآمر بما يشاء فلا يُراجع ، والحاكم بما يُريد فلا يُرافع ، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدّس مِنْ أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه وظاهر جهاره ، وأشهد أن لاإله إلاّ الله وحده

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية (١) .

(٣) سورة الكهف الآيات ١ — ٥ .

(٤) سورة النمل الآيات ١ — ٣ .

(٥) سورة سبأ الآيات ١ — ٢ .

(٦) سورة فاطر الآية (١) .

(٧) بازائه في حاشية الأصل ٩٧/ظ (تقليد إنشاء) .

لاشريك له الأحدُ الصمد الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)(١) شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه،وأرضى به ربّه ، وأشهدُ / (٩٧ / ظ) أنّ محمداً عبده ورسوله ، رافع الشك ، ومُدحض الشرك وراحض الإفك (الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعرج به منـــه إلى السموات العُلى إلى سدرة المنتهى عندها جنّة المأوى مازاغ البصر وما طغى) (٢) صلّى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصُلبان ، وعـــلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسّر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان . أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسّره الله على أيديكم من (٣) استرداد هذه الضالّة ، مِـــنَ الأُمّة الضالّة ، وردّها إلى مقرها مِن الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام (٤)، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أنْ يُرفع ويُذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طُرقه ، بعد أن امتدّ عليها رواقه ، واستقرّ (٥) فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنّهُ بُنِيَ عليه (وتشييد بنيانه بالتمجيد) (٦) فإنّه أُسّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو

---

(١) سورة الإخلاص الآيات ٣ — ٤ .

(٢) سورة النجم الآيات ١٤ — ١٧ .

(٣) بازائه في حاشية الأصل ٩٨/و (تذكر في ولاية بعد عزل) .

(٤) بازائه في حاشية الأصل ٩٨/و (وصف في بيت المقدس) .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١١٠ (واستعمروا فيها) .

(٦) مابين القوسين لم ترد في الروضتين وكذا في شفاء القلوب .

موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمّد عليهما الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقرّ الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومدفن (١) الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل به ينزل الأمر والنهي ، وهو أرض المحشر ، وصعيد المنشر وهو عين الأرض المقدّسة التي ذكرها الله تعالى في كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلّى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلم (بالأنبياء والمرسلين)(٢) وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي كرّمه الله برسالته ، وشرّفه بنبوّته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون) كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً (مااتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله) (٣) الآية / (٩٨ / و)
(لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم) (٤) إلى آخر الآيات من المائدة . وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين . لا يُشدّ الرحال بعد المسجدين إلاّ إليه . ولا يُعقد الخناصر بعد الموطنين إلاّ عليه . فلولا أنّكم ممّن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لايُجاريكم فيها مُجارٍ ، ولا يُباريكم في شرفها مُبارٍ ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبويّة ، والوقعات البدْريّة ، والعزمات الصدّيقيّة ، والفتوحات العُمَريّة ، والجيوش العُثمانيّة ،

---

(١) في الروضتين (ومقر) وكذا في شفاء القلوب .

(٢) مابين القوسين في شفاء القلوب (بالملائكة المقربين) . وكذا في الروضتين .

(٣) سورة النساء الآية ١٧٣ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٢ ومابعدها .

والفتكات العامّوية ، جددتم للإسلام أيام القادسيّة والملاحم اليرموكيّة والمنازلات الخيبريّة ، والهجمات الخالديّة . فجزاكم الله عن نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم مابذلتموه من مُهجكم في [مقارعة] (١) الأعداء ، وتقبّل منكم ماتقربتم به إليه من مُهراق الدماء . فهي دار السعداء فاقدروا رَحِمكُم الله هذه النّعمة حقّ قدرِها ، وقوموا لله بواجب شُكرها . فاه تعالى المنّة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الّذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت (٢) بأنواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقرّبون ، وقرّ (٣) عيناً به الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة ، بأن جعلكم الجيش الذي يُفتح على يديه البيت المقدّس في آخر الزمان ، والجُند الذين تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان . فيوشك (الله أن يفتح على أيديكم أمثاله)(٤) . وأن تكون التهاني لأهل الخضراء أكثر من التهاني لأهل الغبراء ، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ؟ ونصّ عليه في محكم خطابه ؟ فقال تعالى : (سبحان الذّي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) (٥) الآية . أليس هو البيت الذي عظّمته الملل ؟ وأثنت عليه الرسل ؟ وتُليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عزّ وجلّ لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ، وباعد بين

(١) في الأصل مطموسة والإضافة عن الروضتين .
(٢) في وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٦٤ (وسلخت) .
(٣) في شفاء القلوب (ومرت به أعين) .
(٤) مابين القوسين لم ترد في الروضتين وكذا في شفاء القلوب .
(٥) سورة الإسراء الآية (١) .

(٩٨ / ظ) خطواتها ليتيسّر فتحه / ويقرب ؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عزّ وجلّ موسى أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يُجبه منهم إلاّ رجلان ، وغضب عليهم لأجله ، وألقاهم في التيه . عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الّذي أمضى عزائمكم لما تَكَلَّتْ عنه بنو إسرائيل ، وقد فُضِّلوا على العالمين . ووفّقكم لما خُذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتّى ، وأغناكم بما أمضته : كانَ ، وقَدْ ، وعَنْ وسَوفَ (١) ، وحتّى ، فليهنكم إنّ الله قد ذكركم به فيمن عنده . وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهوَيتَكُمْ جُنده، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ماأهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد،ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطتم عن طرُقهم (٢) فيه من أذى الشرك والتثليث . والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن تستغفر لكم أمــلاك السموات ، وتصلّي عليكم الصــلوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تَمَسّكَ بها سَلِم ، ومَنْ اعتصم بعروتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة مابقي من الغُصّة ، وجاهدوا في الله حقّ جهاده ،[وبيعوا](٣) عباد الله أنفسكم في رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده ، وإيّاكم أن يَستَزِلّكم الشيطان ، أو يتداخلكم الطغيان ،

---

(١) في شفاء القلوب (كان وعن وسوف وحتى) .

(٢) في شفاء القلوب (بعروقها) .

(٣) في الأصل ٩٩ / و مطموسة والإضافة عن نسخة المغرب .

فَيُخيّل لكم أنّ هذا النّصر بسيوفكم الحداد . وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواطن الجلاد . لاوالله مالنّصر إلاّ من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، فاحذروا — عباد الله — بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، (وخصّكم بنوره المبين) (١) ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه . فتكونوا كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً ، وكالّذي آتيناه آياتنا (فانسلخ منها) (٢) فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين)(٣) ، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم / (٩٩ / و) اذكروا الله يَذْكُرْكم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم (خُذوا)(٤) في حسم الدّاء وقطع شأفة الأعداء ، وطَهّروا بقيّة الأرض من هذه الأنجاس الّتي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثّوا أصوله . فقد نادت الأيّام ياللثّارات الإسلامية . والملّة المحمدّية ، الله أكبر فَتَحَ اللهُ ونصر ، غَلَبَ اللهُ وقَهر ، أذلّ اللهُ مَنْ كفر ، واعلموا — رحمكم الله — أنّ هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فحوزوها [ومهمة](٥)

---

(١) في شفاء القلوب (وحكم بهذا النصر المبين) وفي الروضتين ٢ : ١١١ (وخصكم بهذا الفتح المبين) .

(٢) سقط من الأصل (٩٩/و) والإضافة من قبلنا عن سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

(٣) ربما قصد الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) . انظر سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

(٤) في شفاء القلوب ص ١٣٦ (فخذوا) .

(٥) في الأصل غير واضحة وماثبتناه عن الروضتين ، وشفاء القلوب .

فاخرجوا لها هممكم وبرّزوها ، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهّزوها ، فالأمورُ بأواخرها ، والمكاسبُ بذخائرها . فقد أظفركُم الله بهذا العدوّ المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون (١) فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منكم عشرون ، وقد قال تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين) (٢) — إلى آخر الآية — أعاننا الله وإياكم على اتّباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيّدنا معاشر المسلمين بنصرٍ من عنده ، (إن ينصركم الله ، فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده) (٣) إنّ أشرف مقال يُقال في مقام ، وأنفذَ سهامٍ تمرق عن قسيّ الكلام ، وأمضى قول تُحدّ به الأفهام : كلام الواحد الفرد العزيز العلاّم ، قال الله تعالى : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له) (٤) — الآية — أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الآيات من أوّل سورة الحشر)(٥) .

وتمّم الخطبة على العادة .

ثم خطب الخطبة الثانية ودعا فيها للخليفة ثم قال : اللّهمّ وأدم سلطان عبدك ، الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، (المعترف بموهبتك) (٦) ، سيفك القاطع ، وشهابك اللاّمع والمحامي عن دينك ، المدافع والذّاب عن حرمك ، الممانع السيّد الأجلّ ، الملك

---

(١) في شفاء القلوب ١٣٦ (دون) .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٥) سورة الحشر رقمها ٥٩ .

(٦) مابين القوسين لم يرد في شفاء القلوب ص ١٣٦ .

الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدّين ، سلطان الإسـلام والمسلمين ، مطهّر البيت المقدّس من أيدي الكافرين ، أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين ، اللّهمّ عمّم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملّة المحمديّة عزمه (٩٩ / ظ) ومضاءه .

اللّهمّ أبق للإسلام مهجته ، ووقِ للأنام حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته .

اللّهم فكما فتحت على يديه البيت المقدّس بعد أن ظنت الظنون ، وابتُلي المؤمنون ، فافتح على يديه أداني الأرض وأقاصيها ، وملّكه صياصي الكفر ونواصيها ، (فلا تلقاه منهم كتيبة)(١) إلاّ مزّقها ، ولا جماعة إلاّ فرّقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها .

اللّهمّ اشكر (٢) عن محمد – صلّى الله عليه وسلّم – سعيَهُ ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمرَهُ ونهيَهُ ، اللّهمّ وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها .

اللّهمّ ذلّل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وأثبت سرايا جنوده في سُبل الأقطار .

اللّهمّ ثبّت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدّين ، واحفظه في

---

(١) في شفاء القلوب ١٣٦ (فلا يلقس كتيبه ...) .
(٢) في شفاء القلوب ١٣٦ (اشكر له عن ...) .

بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضدَهُ ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللّهمّ كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة الّتي تبقى على الأيّام ، وتتخلّد على مرّ الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدي الّذي لايَنفَد في دار المتّقين ، وأجب دعاءه في قوله : (ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (١) .

ثم تممّ الخطبة بالدّعاء بما جرت به العادة .

وكانت وفاة محيي الدين بن الزكي (٢) هذا ، في سابع شعبان ، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، ومولده ، سنة خمسين وخمسماية ، فكان عمره حال هذه الخطبة ، ثلاثاً وثلاثين سنة رحمه الله . وقيل في فتح بيت المقدس أشعار كثيرة ، مُدِحَ بها السلطان ، وللعماد الكاتب من قصيدة تقدم بعضها : (٣)

رأيتُ صلاحَ الدّينِ أفْضلَ مَنْ غدا
وأشرفَ مَنْ أضحى وأكرمَ مَنْ أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحرٍ
ولسنا نرى إلاّ أناملَه الخَمْسا

---

(١) سورة النحل الآية ١٩ .
(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٠٣.
(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٠١ — ١٠٢ ،شفاء القلوب ١٣٦ — ١٣٧.

(ولا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ في الورى
فأنتَ الّذي من بينهم فتح القُدسا)/(١) (١٠٠/و)

ومِنْ قَبلِ فتح القدس كُنْتَ مقدّساً
فلا عدمت أخلاقك الطهر القُدسا

وطَهّرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرّجسِ الّذي ذهبَ الرّجسا

نزعتَ لباسَ الكفرِ عن قدسِ أرْضها
وألبستها الدّين الذي كشفَ اللّبسا

وعادتْ ببيت الله أحكامُ دينه
فلا بطركاً أبقيتَ (٢) فيه ولا قُسّا

وقد شاعَ في الآفاق عنكَ بشارة
بأنّ أذانَ القدس قد أبطلَ النّقسا

جرى بالّذي تهوى القضاءُ وظاهرت
ملائكةُ الرحمن أجنادَكَ الخُمسا

وقد طاب ريّاناً على طبريّةٍ
فيا طيبها مغنىً ويا حُسنَها مرسى

وعكّا وما عكّا فقد كان فتحُها
لإجلائِهم عن مدن ساحلهم كُنسا

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٠١ :
(فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا)

(٢) في شفاء القلوب (فيها) .

وصيدا وبيروت وتبنين كلّهـــا
بسيفك ألقي أنْفَهُ الرّغم والتعس
ويافا وأرسوف وتُبنين وغزّةٌ
تَخِذَتَ بهـــا بين الطلى والظّبى عرُسا
وفي عسقلان الكفر ذُلَّ بمِلِكِكُـــــم
ومنظَرهُ بل أمرهُ اربد وارجَسَا
وصارت بصور عصبة يرقبونَكُـــم
فلا تبطُئوا عنها وحسُوهم حسّا
توكّلْ عـــلى الله الّذي لكَ أصبحتْ
كلآته دِرعاً وعِصِيـّه ترســـــا
(ودَمِّر)(١) على الباقينَ واجتثَّ أصلَهُمْ
(فإنّك قد)(٢) صيّرْت دينارَهُمْ فِلْسا

والشريف النّسابة الجوّاني المصري (٣) :

أتُرى (٤) مناماً مـــا بعيني أبصرُ
القدس يُفتح والفرنجة تُكْسَرُ
وقمامة قُمَّتْ من الرجس الّذي
بزواله وزوالهـــا يتطهّـــرُ

(١) في شفاء القلوب (فدمر) .
(٢) في شفاء القلوب (فأنت الذي) .
(٣) هو : محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي، المعروف بالجواني ، نقيب الأشراف بالديار المصرية . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٠٥ .
(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٠٥.

ومليكهم في القيد مصفود ولـــم
يُر قبل ذاك لهم مليك يُؤسرُ

قد جاء نصر الله والفتح الـــذي
وعد الرسول فسبحوا واســـتغفروا

فُتح الشآم وطُهّر القدس الـــذي
هو في القيامة للأنـــام المحشر

ولأبي علي الجويني (١) المعروف بمحر الكُتاب (٢)

جند السماء لهذا الملـــك أعـــوان
من شك (٣) فيه فهذا الفتح برهانُ / (١٠٠/ظ)

متى رأى الناس مانحكيه في زمـــن
وقد مضى (٤) قبلُ أزمـــان وأزمـــانُ

هذي الفتوح فتوح الأنبيـــاء ومـــا
لها (٥) سوى الشكر بالأفعال أثمـــانُ

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صَيداً وما ضعفوا يوماً وماهـــانوا

---

(١) فخر الكتاب هو / أبو علي الحسن الجويني ، المقيم بمصر ، من أهل بغداد . (انظر الروضتين وانظر ترجمته مطولة في خريدة القصر ج ٢ : ١٥٨ – ١٥٩ / ج٢ ص ١٠٤) .

(٢) انظر القصيدة في الروضتين ج٢ : ١٠٥ .

(٣) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (فيهم) .

(٤) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (معنات)

(٥) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (له) .

كم من ملوكٍ فحولٍ (١) غودروا وهـــم
خوف الفرنجة ولــدان ونســـوانُ

استصرخت بملكشـــاه طَرابلس
فحام عنها وصُمّت منه آذانُ

هذا وكم ملك من بعده فطر (٢) الـــ
إسلامُ يطوى ويُحوى وهو سكرانُ

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـــ
إســلام (٣) نُصَّاره صمٌ وعُميــانُ

فالآن لبّى صلاح الدين دعوتهـــم
بأمر من هو للمعوان معـــوانُ

في نصف شهر غدا للشرك مصطلمـــاً
فطُهرّت منهُ أقطارٌ وبلـــدانُ

فأين مَسلمةُ عنهـــا وإخوتـــه
بل أين والده بل أين مـــروانُ ؟

وعدّ عما ســـواه فالفرنجة لــــمَ
يُبِدْهُمُ من ملوك الأرض إنسانُ

لو أنّ ذا الفتح في عصر النبي لقـــد
تنزلـــت فيه آيـــاتٌ وقـــرآنُ

وهــــذه سَنَة أكرم بهـــا سنةً
فالكُفر في سِنةٍ والنصر يقظـــانُ

---

(١) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (فحول الملوك) .
(٢) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (نظر) .
(٣) في الروضتين ج٢ : ١٠٥ (أنصار)

ولابن الساعاتي من قصيدة (١) :

هو الفاتح البيت المقدس بعدما
تحامته سادات الدُنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة
من القوم مبديها وأنت مُعيدُها

وللرشيد بن بدر النابلسي (٢) :

يابهجة (٣) القدس إن أضحى به علم الـ
إسلام من بعد طيٍّ وهو منتشرُ
يانور مسجده الأقصى وقد رفعت
بعد الصليب به الآيات والسُوَرُ
اللهُ أكبر صوتٌ تقشعر لـه
شمّ الذرى وتكاد الأرض تنفطرُ
يامالك الأرض مَهّدَها (٤) فما أحدٌ
سواك من قائم للمهد يُنتظرُ
مااخضرّ هذا الطراز الساحلي (ندىً)(٥)
إلاّ اتعلو به (راياتك) (٦) الصفرُ / (١٠١/و)

---

(١) الروضتين ٢ : ١٠٧ .
(٢) لم اعثر على ترجمة له .
(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١١٨ .
(٤) مهد (في لسان العرب) مهد لنفسه : كسب وعمل . والمهاد : الفراش ، واصل المهد التوثير ؛ يقال : مهدت لنفسي ومهدت اي جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلا .
(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١١٨ (ثمراً) .
(٦) في الروضتين ج ٢ ص ١١٨ (أعلامك) .

أضحى بنو الأصفر الأنكاسُ مرعظة
فيها لأعدائك الآيـات والنـذر

سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها
حتى لقد ضجرت من وقدهم سقَرُ(١)

صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة
على الورى يتقيها البدو والحضَرُ

هذا الذي سلب الأفرنج دولتهم
وملكهم ياملوك الأرض فاعتبروا

مراكزٌ مااختطاها الخوف مذ مئة
عاماً ولا ريع أهلوها ولا ذُعروا

وللحكيم أبي الفضل الأندلسي الجلياني (٢) :

أبا المظفر (٣) أنت المُجْتبَى لهُدى
أخرى الزمان على خُبر بخبرته

فلو رآك وقد حزت (العدى)(٤) عمرٌ(٥)
في قُلة القتل قضى كنه عبرته

---

(١) سقر (في لسان العرب) سقرته الشمس لوحته وآلمت دماغه بحرها . وسقر : اسم من أسماء جهنم ، وقيل هي من البعد .

(٢) هو : الحكيم أبي الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسي الجلياني . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٠٣

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٣

(٤) في الروضتين (العلى) .

(٥) قصد الصحابي خليفة المسلمين عمر بن الخطاب .

ولو رآك وأهل القدس في ولـــه
أبو عبيدة (١) فدّى من مسرته
غداة جزّوا النواصي (٢) في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملّة الحُسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرّته (٣)
وكم لديك (ذوي)(٤)قربى رقوا شرفاً
وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته

وللوزير العزيزي يوسف بن المجاور (٥) :

بالناصر المهـــديّ والهادي إلى
سبلِ الجهاد أبي المظفّر يوسف
شُدّت قوى أركان ملّة أحمـــد
وتجملّت بجهـــاده في الموقف
ملكٌ له في الحرب (بحث)(٦) بفقه
وله غداة السلم زهد تصوّف

---

(١) قصد القائد أبا عبيدة بن الجراح .
(٢) ناصية (في لسان العرب) واحدة النواصي : قصاص الشعر في مقدم الرأس .
(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ (ملته) .
(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ (ذوو) .
(٥) هو : نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور ، الوزير العزيزي بمصر) . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ – ١٠٤ مع الأبيات المختارة من قصيدته .
(٦) في الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ (بحر) .

وعليه أنزل في الجهاد مفصل
فلذاك يقرؤود بسبعة أحرف

سنت سيوفك في الرؤوس ختانة
ذهبت بمهجة كل علج (١) أقلف(٢)

مالسواحل غير بحرك حافظ
بشبا (٣) سنان أو بصفحة مرهف

هذا الطراز الأخضر استفتحته
فزهي بثوب من علاك مسجف(٤)

أحييت دين محمد وأقمته
(١٠١/ظ) وسترته من بعد طول تكشف /

قال (٣) المؤلف — رحمه الله —: قال لي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله : قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل ابن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة يقول : رأى إنسان كأن شخصاً ذا جهامة على حائط بجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول :

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ٣٠٤ .
(٢) أقلف (في لسان العرب) لم يختتن .
(٣) شبا (في لسان العرب) شباة كل شيء : حد طرفه .
(٤) السجف والسجف (في لسان العرب) الستر .
(٥) الروضتين ج ٢ ص ١٠٤ .

ملك الصياصي (١) والنواصي (٢) ناصرٌ
للدين بعد أيامه أن يُنصرا

وسيفتح البيت المقدس بعدما
يُطوى الطراز له ويقتل قيصرا

قلت : وهذا قبل أن يفتح السلطان صلاح الدين البلاد بعشر سنين . وقرأت بخط بعض أصحابنا قال : وجدت على حاشية كتاب ، يُروى عن خطيب كان بالرقة أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمسماية . فذكر البيتين : وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة ، وقبل مولد صلاح الدين رحمه الله بسنة . والمعنى : وبالطراز بلاد الساحل المصطفة البحر من الداروم وغزة وعسقلان ، وعكا وصيدا وبيروت . وجُبيل ، وغير ذلك . ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى : صور بين صيدا وعكا ، وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه ، فتح هذا الطراز أولاً ، ثم فتح البيت المقدس وكنّى بقيصر عن الأبرنسي الذيّ قتله بيده ، لأنّه كان من رؤوس الكفر ، وملوكهم ، وغلاتهم في معاداة الإسلام ، والله أعلم .

فصل في باقي حوادث هذه السنة :

قال (٣) العماد : ثم إن السلطان مازال مُقيماً بظاهر القدس ، يحقق الآمال ويفرق الأموال ، حتى وردت كُتب

(١) الصياصي جمع صيصية أو صيصة ، وهي الحصون .
(٢) في الروضتين (الصواصي) .
(٣) انظر الفتح القسي ٥٧ — ٧٤ ، الكامل ج ١١ ص ٥٥٣ — ٥٥٧ ، النوادر السلطانية ص ٥٥ — ٥٦ ، الروضتين ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ ، شفاء القلوب ص ١٥١ — ١٥٢ .

نائبه (١) بصيدا وبيروت وهما مجاورتان لصور . يحرّض فيها على حصار صور . فرحل ونزل عليها تاسع(٢) رمضان. وجاء الأسطول من مصر (٣) فقوبلت براً وبحراً . وهي مدينة حصينة . متوسطة من البحرّ كأنّها سفينة . وكان المركيس — لعنه الله — قد حفر لها خندقاً في البحر إلى البحر . وبنى بواشيره . ثم غلب النوّم أهل شواني المسلمين ليلة فكبسهم الفرنج فملكوا خمسة شوانٍ . وأسروا مقدمها (٤) وألقى جماعة أنفسهم في البحر . فمن ناجٍ وهالك . ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً للقتال . فكسرهم المسلمون. وأسر مقدم كبير لهم ، وطال الحصار حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين . لأنّهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم . فأشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال . وتقل الأموال . وكان البرد قد اشتد ، وكان رأيُ السلطان / والأتقياء من الأمراء كالفقيه (١٠٢/و)
عيسى وحسام الدين وعز الدين جرديك النوري الثبات لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال ، وقال السلطان : قد هدمنا السور . وقاربنا الأمور . فاصبروا تفلحوا . وصابروا تفتحوا . فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها . فلم يصدقوا القتال ، وتعلّلوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت . فلم يسع السلطان بعد ذلك إلاّ

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١١٩ هو : سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

(٢) في شفاء القلوب ص ١٥١ (غرة رمضان ، وقيل : خامسه)، وفي النوادر السلطانية ص ٥٥ (خامس شهر رمضان) .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١١٩ (استدعى الأسطول المصري وكان بعكا) .

(٤) في الروضتين ج٢ ص ١١٩ هو : عبد السلام المغربي ، وفي النوادر : «أنه قدم على الأسطول إنسان يقال له : الفارس بدران ، وكان رئيس البحرين يقال له : عبد المحسن) .

الرحيل ، فأمر بنقل الأثقال ، فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو .

قال (١) : وكان قد بقي من جملة عمل طبرية والغور حصنا صفد وكوكب ، وكان في صفد جمهرة (٢) الداوية ، وفي كوكب جمهرة (٢) الأسبتارية . فاحتاج السلطان في فتحهما إلى المطاولة . فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية ، مقدمهم مسعود الصلتي ، ووكل بكوكب الأمير سيف الدين محموداً أخا عز الدين جاولي ، وكان ذا دين متين . فأقام في حصن عفربلا وهو قريب من حصن كوكب ، ونغص على المقيمين فيه المطعم والمشرب ، وضيق عليهم المذهب إلى أن دخل الشتاء ، فاختلت الحراسة ، فغلبهم النعاس ليلة ، فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة ، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا . فأقام السلطان مكانه في رباط كوكب قايماز النجمي في خمسمائة فارس . قال : وفتحت هونين (٤) والسلطان محاصر صور ، وكان لما فتح تبنين (٥) قد امتنعت عليه هُونين ، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان وجاء

---

(١) انظر الفتح القسي ٧٤ — ٨٧ ، الكامل ج ١١ ص ٥٥٧ — ٥٥٧ ، الروضتين ج٢ ص ١٢ — ١٢٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٩ (بخلاف حيث يذكر ذلك في أحداث ٥٨٤) ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٢) في الأصل ١٠٢/ظ (جمرة) وهو تصحيف ونبهنا ماهو صحيح عن نسخة المغرب .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (٣) ص ٢٤٢ .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٣) ص ١٥٠ .

خبرها إلى السلطان وهو على صور ، فنفذ من فتحها (١) ، وخرج الأفرنج منها . وكان قد بقي عليه أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن(٢) وشقيف أرنون(٣) ورحل السلطان من صور إلى عكا ، فنظر في أمورها ، ووقف دار الأستبار نصفين نصفاً على الفقهاء ونصفاً على الصوفية . ووقف دار الأسقف بيمارستاناً . ووقف على كل من ذلك كفايته وأظهر به عنايته .

قال : ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق ، يهنون السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة ، وأقدره عليه من نجح الوسيلة ، وهو فتح القدس ، الذي درج على حسرته الملوك والقرون الأولى وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة ، وتمكنت منه يده الطولى ، فمن / جملتهم ، (١٠٢/ظ)
رسول صاحب الريّ (٤) والمستولي على ممالك همذان (٥) ،

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٠ هو : الأمير بدر الدين دلدرم الياروقي ، وكذا في الفتح القسي ص ٦٧ .

(٢) قلعة أبي الحسن (في ياقوت) : قلعة عظيمة ساحلية قرب صيداء بالشام فتحها يوسف بن أيوب ، وأقطعها ميموناً القصري مدة ولغيره .

(٣) شقيف أرنون (في ياقوت) : قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل .

(٤) الري (في ياقوت) مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات ، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخاً ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخاً .

(٥) همذان (في ياقوت) بالتحريك والذال معجمة وآخره نون ، في الأقليم الرابع وطولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة وعرضها ست وثلاثون درجة . وهمذان أكبر مدينة بالجبل وكانت أربعة فراسخ في مثلها طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف بسنجاباذ . نقول : وهي الآن في إيران .

وآذربيجان(١) وأرّان (٢) فما من يوم يمضي وشهر ينقضي . إلاّ ويصل منهم رسول ويتصل به مسؤول . قال : وكان السلطان لمّا فرغ من فتح القدس ، ودنا موسم الحج قال الموفقون : نُحْرِمُ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فتح القدس في هذا العام ، فالحج والجهـــاد ركنـــا الإسلام . فاجتمع جمع كثير من أهل ديار بكر والجزيرة والشام ، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدّم شيخ أمراء الإسلام الكرام ، فودّعه السلطان عـــلى كره مـــن مفارقته واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته . فقال ما معناه : أنّ العُمر قد فرغ والأمد قد بلغ . والشيب قد أنذر والفرض قد أعـــذر . فاغتنم فرصة الإمكان قبل أن يتعذّر . فمضى والسعادة تقوده والشهادة تروده ، حتى وصل إلى عرفات وماعرف الآفات ، فإن الحرب وقع بين حـــاج العراق وحاج الشام ، فقُتل جماعة وجُرح ابن المقدّم ومات بمنى ودُفن بالمعلى رحمه الله .

وفي (٣) هذه السنة توفي ببغداد أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط بن التعاويذي الشاعر المشهور في ثاني شهر شوال ، وكان كاتبـــاً بديوان المقاطعات . وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء

---

(١) آذربيجان (في ياقوت) في الإقليم الخامس طولها ثلاث وسبعون درجة وعرضها أربعون درجة) . نقول : وهي الآن في إيران .

(٢) أران (في ياقوت) اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وهي التي تسميها العامة كنجة وبرذعة وشمكور وبيلقان وبين آذربيجان وآران نهر يقال له الرس كل ماجاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من آران وماكان من جهة الشرق فهو من آذربيجان .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ .

وأضرّ في آخر عمره . ومولده سنة تسع عشرة وخمسمائة . [وتوفي فيها](١) : الفقيه أبو الفتح نصر بن فتيان (٢) بن مطر المعروف بابن المنّي الحنبلي ، في خامس شهر رمضان ، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً . تفقّه عليه جماعة من الأئمة منهم : الشيخ الموفق(٣) والحافظ عبد الغني (٤) وأخوه الشيخ العمـــاد (٥) ومحمد بن خلف (٦) ، وغيرهم ، ومولده سنة إحدى وخمسمائة . .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة :

وفيها : (٧) فتح ساحل إقليم أنطاكية وحصن الكرك والشوبك وصفد وكوكب وغيرها . ففي أول السنة نزل السلطان على كوكب ، فلم يتمكن من فتحها فوكل بها (٨) وبصفد (٩) والكرك

---

(١) الإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٥٥٩ — ٥٦٣ ، الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ ، الشذرات ج ٤ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ هو . الشيخ الموفق عبدالله بن حمد بن محمد ابن قدامة .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ هو : الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ هو : الشيخ العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن سرور .

(٦) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٣ هو : محمد بن خلف بن راجح .

(٧) انظر الفتح القسي ص ٨٧ — ١٠٥ ، الكامل ج ١٢ ص ٥ — ١٠ ، النوادر السلطانية ص ٥٥ — ٥٩ ، الروضتين ج ٢ ص ١٢٤ — ١٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٩ — ١٠١ ، شفاء القلوب ١٥٣ — ١٥٤ .

(٨) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٠ و ١٢٤ (وكل بكوكب صارم الدين قايماز النجمي ، وكذا في الكامل ج ١٢ ص ٦ و ١٢٢ . وكوكب (في ياقوت) اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية .

(٩) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٤ (وكل بصفد طغرل الجاندار مسعود الصلبي). وصفد (في ياقوت) مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان .

والشوبك (١) . وكانت هذه الحصون الأربعة ضيّقة المسلك صعبة المدرك . وكان جماعة من أهل الحزم قد أشاروا على السلطان لمّا فتح عكا بتخريبها وتعفية آثارها وأن تُرمى في البحر بأحجارها . ويبقى المرابطون مكانها . فلا يأمن من عود الفرنج إليها . فكاد يُجيب فقيل له : هذه مدينة كبيرة وعمارة كثيرة . وأشير عليه / بتتميتها ، وأن (١٠٣/و) يُعمّر ويُحصّن . فولّى أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش . وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة ، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة ، فقدم عليه وهو بكوكب ففوّض إليه عمارة عكا . فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها . ثم رحل مستهل ربيع الأول إلى دمشق . ودخلها في سادسه . ولمّا قاربها تلقّاه الناس أحسن لقاء . فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته متشوقين إلى طلعته . لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام . فكسر فيها الكفر . ونصر الإسلام . وفتح فيها الأرض المقدّسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر مُنجّسة ، فأصبحت بالإيمان مؤسّسة . فلمّا استقر قراره . أمر بانشاء الكتب ، لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد ، وكان العسكر الغائب على مواعده المعاودة في الربيع ، وأنّه يجتمع على حمص بالجميع ، قال : وكان الصفي ابن القابض قد بنى للسلطان بالقلعة داراً مطلّة على الشرفين ، وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وبالغ في تجبيرها وتحسينها ، وظنّ أنّها تقع من السلطان بمكان . فما أعارها طرفه ، ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان .

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٢٤ (وكل بالكرك والشوبك سعدالدين كمشبه الأسدي) ، وانظر تعريفنا في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٢٩٢ .

وقال : مايصنع بالدار من يتوقع الموت . وما خُلقنا إلاّ للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا دمشق لنقيم ، وما نروم أن لانَريم .

قال القاضي بن شداد : أقام السلطان في دمشق خمسة أيام . وكان له عنها أربعة عشر شهراً . وفي اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنّهم قصدوا جُبيل واغتالوها . فخرج منزعجاً ساعة بلوغه الخبر فلمّا عرف الفرنج بخروجه كفّوا عن ذلك . فسار نحو حصن الأكراد(١) في طلب الساحل الفوقاني . وسيّر إلى ولده الظّاهر (٢) ، وابن أخيه تقي الدين (٣) ، أن يجتمعا وينزلا بتيزين (٤) قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب . ففعلا ، وسارت عساكر الشّرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان وهو نازل على تلّ قبالة حصن الأكراد .

وقال العماد : ثمّ همّ السلطان بالغزاة ، فبدأ بزيارة القاضي الفاضل ، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله ، وكان لايأتي أمراً إلاّ من بابه ، وأقام عنده إلى الظهر ،وكان مقيماً بجوسق (٥) ابن الفرّاش / (١٠٣/ظ) بالشرف الأعلى . ثمّ ودّعه السلطان ورحل ، فسلك في جبل

---

(١) انظر تعريفنا في القسم الأول الحاشية رقم ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٣٠ .

(٣) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ٥ ص ٣٠٩ .

(٤) تيزين (في ياقوت) بعد الزاي ياء ساكنة ونون : قرية كبيرة من نواحي حلب ، وفي النوادر السلطانية تبرين .

(٥) الجوسق (في ياقوت) قرية كبيرة عامرة بالحوف الشرقي من أعمال بلبيس من نواحي مصر .

يبوس (١) إلى عين الجرّ (٢) إلى الدّلهمية، على البقاع، وأتى بعلبك، ثمّ رحل على سست اللّبوة (٣)، واجتمع بصاحب سنجار (٤) على قَدَس (٥) من عمل حمص، وتكرّرت المشاورة في الموضع الّذي يُبتَدَأُ بقصده، واتّفقوا على عرقا (٦)، وأنّهـا إذا مُلكت مُلكت طرابلس. فأقاموا بقَدَس إلى آخر الشّهر، حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثمّ سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيّم بقرب حصن الأكراد على البقيعة (٧)، ثمّ شنّ الإغارة على نواحي الحصن(٨)، وصافيتا (٩)، والعُريمة(١٠)،

---

(١) يبوس (في ياقوت) اسم جبل بالشام بوادي التيم من دمشق). نقول : هو الجبل الواقع بالقرب من جديدة اليبوس على طريق دمشق بيروت على الحدود السورية اللبنانية .

(٢) عين الجر (في ياقوت) موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق .

(٣) اللبوة : لم أعثر على تعريف بها . ربما قصد اللبوة في البقاع الشمالي من لبنان .

(٤) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ٣ ص ١٨٤ .

(٥) قدس (في ياقوت) بلد بالشام قرب حمص . وفي الكامل ج ١٢ ص ٦ هي بحيرة .

(٦) عرقه (في ياقوت) هي : بلد في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ ، وهي آخر عمل دمشق وهي سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها .

(٧) البقيعة : لم أعثر على تعريف بها . والمرجح أنها واقعة مابين عرقا وقلعة الحصن — أي الأكراد — وهي إلى قلعة الحصن أقرب .

(٨) انظر تعريفه في القسم الأول الحاشية رقم (٤) ص ٢٥٦ .

(٩) انظر تعريفه في القسم الأول الحاشية رقم (٢) ص ٢٨٣ .

(١٠) أنظر تعريفه في القسم الأول الحاشية رقم (٤) ص ٢٠٩ .

وتلك الحصون ، وفتح حصن يحمور (١) ، ولم تزل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخـــر الشــهر ، فوصل قاضي جبلة (٢) وجماعة معه ، فأشاروا على السلطان بقصدها ، وتكفّل بفتحها ، وفتح اللّاذقيّة وتلك الحصون والمعـــاقل الشماليّة . وكانت تلك البلاد قد سلّمها إليه أبرنس أنطاكية ، وعوّل عليه فيها ، وقال : إنّ الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يذهب الزمان ، ويفوت الإمكان ، والمسلمون بجبلة محبولون على التّسليم ، فأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل . فبدأ بأنطرسوس (٣) ، فخرّبها ، وأحرقها ، وغنم مافيها ، واحتمى من احتمى منهم في برج حصين منيع ، فتركوا ، وسار إلى جبلة ، فما استتمّ نزول العسكر حتّى أُخذت البلد ، ثمّ سلّمت القلعة بالأمان . وذلك أنّ قاضي جبلة مازال يُخوّفهم ، ويُرعبهم ، حتّى استنزلهم بشرط أنّه يسترهنهم حتّى يردّوا من أنطاكية رهائن جبلة من المسلمين ، فضبط عنده

---

(١) قلعة يحمور : بالفرنجية القصر الأحمر Chastel Ruge : القلعة والقرية في المنطقة الساحلية من سورية ، تقع في أقصى الركن الجنوبي لجبال النصيرية ، وهي على اتصال بالنظر مع طرطوس في الشمال ، وعريمة في الجنوب . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦٤ .

(٢) جبلة (في ياقوت) : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ، وكان القاضي فيها هو : منصور بن نبيل ، وكان عند بيمند صاحب أنطاكية وجبلة ، (انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٧ ، شفاء القلوب ص ١٥٤) .

(٣) بالعربية طرطوس (وقديماً أنطرطوس) ، بالفرنجبة : تورتوس Tortouse نسبة إلى إسمها القديم أنطرسوس Antarsus وهي : ميناء بحري من العصور الوسطى ومحطة الحجيج ، يشغل موقع المستوطنة الكبيرة القديمة على الساحل السوري (انظر : القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦١).

جماعة من رؤوس الفرنج والمقدّمين ، حتى أعاد صاحب أنطاكية الرّهائن الّتي عنده ، ومرّ السلطان في طريقه ببلاد للفرنج أخلدها من الخوف ، منها : مرقيّة(١) وغيرها ، وتسلّم حصن بكسرائيل(٢) وغيره ، وكان فتح جبلة تاسع عشر جمادى الأولى .

ثمّ (٣) سار إلى الّلاذقيّة فسلّمت بالأمان في السادس والعشرين من الشهر (٤) ، على أنّهم يُطْلَعون بأنفسهم وذراريهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدوابّ ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم . ودخل جماعة منهم/ في عقد الذمة ، وانتقل الباقون إلى أنطاكية ، (١٠٤/و)
وشوّه العسكر عمارتها بسبب مانقلوا منها من الرّخام إلى الشام .

ثمّ سار إلى صهيون (٥) فضربت بالمجانيق إلى أن طلبوا الأمان ، فأومنوا على أن يَسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويُؤخذ منهم مثل قطيعة

---

(١) مرقية : (في ياقوت) بفتح أوله وثانيه ، وكسر القاف ، والياء مشددة: قلعة حصينة في سواحل حمص ، كانت قد خربت ، فجددها معاوية .

(٢) بكسرائيل (في ياقوت) بكسر أوله وثانيه ، وسكون السين وراء وألف وهمزة وياء ولام : حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل .

(٣) انظر : الفتح القسي ١٠٥ — ١٢٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٩ — ٢٣ ، النوادر السلطانية ص ٥٩ — ٦٦ ، الروضتين ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٧ ، شفاء القلوب ص ١٥٤ — ١٥٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

(٤) في النوادر السلطانية (الخامس والعشرين من الشهر ... واقمنا عليها إلى السابع والعشرين) ص ٥٩ .

(٥) صهيون أو قلعة صلاح الدين : قلعة متهدمة تقع فوق جرف صخري متطاول ، مابين خانقين عميقين في جبال النصيرية على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً شمال شرق اللاذقية ، (انظر كتاب : القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٥٠ — ٥١ ، ياقوت : معجم البلدان) .

القُدس عن الرجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصغير ديناران. وأقام السلطان حتى تسلّم عدّة قلاع تتعلّق بصهيون، كالعَيذو (١) ، وبلاطنس (٢) ، وقلعة الجماهيريين (٣) ، وذلك في ثالث جمادى الآخرة ، ثمّ سار ففتح قلعة بكاس (٤) عنوة ، وأسر من فيها ، بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها . ثمّ فتح قلعة الشُغر (٥) ، وقلعة سرمانية (٦) بالأمان ، وهدم سرمانية حتّى سوّاها بالأرض .

قال العماد: وهذه ستّ مُدنٍ وقلاع، فُتحت في ستّ جمع تباع ، جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشُغر ، وسرمانية ، وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية ، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة ، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشــدّة ، وهذا إقليم جبلة ، واللاذقية ، هو عين أنطاكية التي فُقئت ،

---

(١) عيذو (في ياقوت) بكسر أوله وسكون ثانيه ، وذال معجمة ، وآخره واو ساكنة : قلعة بنواحي حلب .

(٢) بلاطنس (في ياقوت) حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب .

(٣) الجماهرية (في ياقوت) حصن قرب جبلة من سواحل الشام ، وجماهر الشيء معظمه .

(٤) بكاس (في ياقوت) بتخفيف الكاف : قلعة من نواحي حلب على شاطىء العاصي ، ولها عين تخرج من تحتها ، بينها وبين ثغور المصيصة ، تقابلها قلعة أخرى يقال لها الشغر . وكذا في الروضتين ج ٢ ص ١٣٠ ، وكذا في ابن شداد : النوادر ص ٦١ .

(٥) الشغر (في ياقوت) قلعة حصينة ، مقابلها أخرى يقال لها بكاس ، على رأس جبلين وهما قرب أنطاكية .

(٦) سرمينية (في ياقوت) : بلد مشهور من أعمال حلب أهلها إسماعيلية .

ونحرُها التّي عنه حلّيت ، ولم يبق لأنطاكية من الحصون سوى ثلاثة : القصير (١) ، وبغراس (٢) ، ودربساك (٣) . وقد أصبحت بحمد الله معدومة الأطراف ، قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف .

وقال القاضي : اتّفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع المتوالية . وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين ، وسعادة السلطان . حيث يسر الله الفتوح في اليوم الّذي يُضاعف فيه ثواب الحسنات . قال : وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتّفق مثلها في تاريخ . ثمّ سار إلى قلعة حصن بُرزية (٤) ، ففتحها عنوة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، فنهب جميع ما كان فيها ، وأسر من كان بها ، وقد كان آوى إليها خلق عظيم خصانتها ، وأُحضر صاحب القلعة بين يدي السلطان ، وكان رجلاً كبيراً منهم ، فكان هو ومن أُخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمنّ السلطان . ورقّ لهم ،

---

(١) القصير (في ياقوت) بلفظ تصغير قصر : قصير معين الدين بالغور من أعمال الأردن ، يكثر فيه قصب السكر . والمرجح أنها ليست المقصودة ، وربما تكون بالقرب من أنطاكية وهي الأرجح .

(٢) بغراس (في ياقوت) مدينة في لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس.

(٣) دربساك هي : قلعة منيعة قريبه من أنطاكية كذا في النوادر السلطانية ص ٦٣ ، وفي الكامل ص ١٧ درب ساك . وهي من معاقل الداوية الحصنية ، وقلاعهم التي يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد .

(٤) برزويه (في ياقوت) بالفتح ، وضم الزاي ، وسكون الواو ، وفتح الياء ، والعامة تقول : برزيه : حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل في جميع بلاد الأفرنج بالحصانة . وكذا في الروضتين ج ٢ ص ١٣١ ويذكر أنها متاخمة لحصن أفامية .

(١٠٤/ظ) وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استمالةً له ، فإنّهم/كانوا يتعلّقون به ومن أهله . هذا قول القاضي .

وقال العماد : كانت صاحبة حصن برُزية أخت زوجة ابرنس صاحب أنطاكية ، وقد سُبيت وخُبّئت ، فما زال يطلبها حتّى أظهروها وأحضروها وزوجها وابنةً لها وجماعة من أصحابها وصهرها ، وكانت امرأة أبرنس أنطاكية تُعرَفُ بمدام بسيل في موالاة السلطان عيناً له على العدوّ ، تُهاديه ، وتُناصحه ، وتُطلعه على أسرارهم ، والسلطان يُكرمها لذلك ، ويُهدي إليها أنفس الهدايا . فلمّا فتح حصن برزية ، وحصل في أسره هذه الجماعة ، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبّعهم السلطان وخلّصهم ، وجهّزهم ، وسيّرهم إلى أنطاكية لأجل امرأة الأبرنس . فشكرته على ذلك ، ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين . ثمّ سار السلطان حتّى أتى جسر الحديد(١) ، وأقام عليه أيّاماً ، وسار حتّى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن رجب (٢) ، وقاتلهم حتى طلبوا الأمان ، فأومنوا على أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ، ويَدَعوا كُلَّ ما في الحصن من خيل وعُدّة وذخيرة وغلّة وأثاث وقماش وذهب وفضّة ، وأمهلوا ثلاثة أيام ، ثمّ أخرجوا من ديارهم ، وسلّموا الحصن في الثاني والعشرين(٣) من رجب . ثم سار إلى بغراس فتسلّمه في ثاني شعبان بالأمان ،

---

(١) جسر الحديد : يقع عند شقيف دركوش إلى شرقي العاصي ، وهو جسر حديد الجسارة ، (انظر : الفتح القسي ص ١١٧) .

(٢) في النوادر السلطانية (يوم الجمعة الثامن عشر رجب) .

(٣) في شفاء القلوب (وصعد العلم تاسع عشريه ، وقيل يوم الجمعة ثاني عشريه ، وسلمها إلى علم الدين سليمان بن جندر) ص ١٥٧ .

وسلّموه بما فيه من الأموال . وقُدِّر مافيه من الغلّة تخميناً باثني عشر ألف غرارة ، قال العماد : وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين ولطاغية الكفر سلاحين . فتمّ للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وسقفان كثيرة حتى خلّص ذلك الإقليم ، وتمّ الفتح العظيم ، وعادت الكنائس مساجد والبِيَعُ معابد ، والصوامع جوامع ، والمذابح لعبدة الصلبان مصارع ، قال : وكان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية ، فرأى همم الأجناد لاسيّما الغرباء قد ضعفت ، وتشوّقوا إلى بلادهم ، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك ، وعلم أنّهُ إن قُصد غُلب ، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذلّلاً ، يطلب الهدنة على أنّه يطلق من عنده من أسارى المسلمين ، وهم جمع كثير ، فعقدها معهم مدّة يسيرة ، ثمانية أشهر ، من تشرين الأول إلى انقضاء أيار ، فيكون انقضاء الهدنة قبل / إدراك الغلّة وأوان حصادها فتستريح فيها (١٠٥/و) الأجناد ، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد ، فتمّ كتاب الهدنة .

وقال القاضي : كان الصلح إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم ، وإلاّ سلّموا البلد إلى السلطان . ثمّ رحل عنه إلى دمشق ، فأقام بها حتى دخل شهر رمضان ، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد ماأمكنه ، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران ، التي يُخاف عليها من جانبها صفد وكوكب (١) ، فرأى أن يشغل الزّمان بفتح المكانين في الصوم .

وقال العماد : وصل السلطان إلى دمشق قبل رمضان ، وأشير عليه بأن يريح عسكره ، فقد أحمد في عامّة مورده ومصدره ، وأربح في سبيل الله متجره ، فقال : إنّ القدر غير مأمون ، والعمر غير مضمون ، وقد بَقيتْ مع الكفر هذه الحصون ، وإنْ لم

---

(١) انظر حاشيتنا رقم (٢) ص (٨٢) .

نُبادرها اختــل" أمرنا لاسيّما صفد وكوكب ، فنخرج . ونشتو عندهما . فإذا فتحناهما . خلصت هذه البلاد . فما نبطل هذه الغزوة ، ولا نعطّل هذه الشّتوة . فما لبث ولا مكث رحمه الله .

قال : ووردت البشرى بتسلّم حصن الكرك . لأنــه كان محصوراً . ففنيت أزوادهم . ويئسوا من نجدة نائبهم . فسلّموا الحصن . وخرجوا في رمضان . وتسلّم المسلمون أيضاً الحصون الّتي بقرب الكرك كالشوبك(١) ، وهرمز(٢) والوعر (٣) . وسلع (٤) .

قال القاضي : ســافر السلطان في أوائل رمضان مــن دمشق يريد صفد (٥) . ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والولد في هذا الشهر الّذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله . فأتاها ، وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من جميع جوانبها . فأحدق العسكر بها . ونُصبت عليها المجانيق . وكانت الأمطار شديدة والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عــن جــدّه . قال : ولقد كنت ليلة في خدمته ، وقد عيّن مواضع خمسة مجانيق حتّى تُنصبَ . فقال في

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (١) ص (٢٩٢) .

(٢) هرمز : حصن قريب من الكرك هذا قول أبو شامة في الروضتين ج٢ ص ١٣٤ ، وفي معجم البلدان لياقوت هي: قلعة بوادي موسى عليه السلام بين القدس والكرك .

(٣) الوعر : (في ياقوت) : جبل وباعتقادنا أنه اسم القلعة على جبل يحمل هذا الاسم يمع بين الشوبك وسلع .

(٤) سلع : (في ياقوت) بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، السلوع شقوق في الجبال ، واحدها سلع ، وهو . حصن بوادي موسى ، عليه السلام ، بقرب البيت المقدس .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٩ ص ١٨٤ .

تلك اللّيلة : مانتام حتّى تُنصبَ الخمسة . وسلّم كلّ منجنيق إلى قوم ورسلهُ تتواتر إليهم ويخبرونه ، ويعرّفهم كيف يصنعون . حتّى أطلّنَـا الصّبـاح . وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق إلاّ تركيب خنازيرها(١) فيها ، فرويت له الحديث المشهور في الصِّحاح . وبشّرته بمقتضاه ، وهو قولُهُ / صلّى الله عليه وسلّم : (عينان لاتمسّهما (١٠٥/ظ) النار ، عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله) (٢) . قال : ولم يزل القتال متواصلاً بالنُوب مع الصّوم حتى سُلّمت بالأمان .

قال العماد (٣) : سلّمها مقدّمها في ثامن شوّال ، وراح إلى صور . قال : واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد . وقالوا : متى فُتحت صفد . فإنّ كوكب لاتمتنع ، والرأي : أن نجرّد لها نجدة ، لعلّهـا تثبت إلى أن توافينا ملوكنا من البحر . فسيّروا مـائتي رجـل ، فتفرّقوا في تلك الأودية ، يكمنون في الشّعاب والهضاب . واتّفق أنّ أميراً مـن أصحابنا خرج متنصاً ، فوجد واحداً منهم . فاستغرب وجوده في ذلك المكان ، فعذّبه حتّى دلّ على أصحابه ، فكُبسوا وأُسروا ، وجاءت الأسـارى إلى صفد مقرنين في الأصفاد . وكان فيهم مقدّمان من الأسبتار .

قال القاضي (٤) : ثمّ سار رحمه الله يريد كوكب . فنزل على

---

(١) الخنازير للمنجنيقات : هي عصي غليظة تشد عليها الحبال على شكل نوابض .

(٢) انظر فضائل الجهاد للترمذي ١٢ . وانظر المعجم المفهرس ج٤ ص ٤٥١ .

(٣) انظر الفتح القسي ص ١٠٥ – ١٢٧ ، الروضتين ج ٢ ص ١٣٥ .

(٤) انظر النوادر السلطانية ص ٥٩ – ٦٦ ، الروضتين ج٢ ص ١٣٥ – ١٣٦ .

سطح الجبل . وجرّد العسكر . وأحدق بالقلعة . وضايقها بالكليّة بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشّاب العدوّ . وبنى له حائطاً من طين وحجر يستتر وراءه والنشّاب يتجاوزه . ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته . إلاّ أن يكون مُلبساً (١) ، وكانت الأمطار متواترة والوحول بحيث تمنع الماشي والرّاكب إلاّ بمشقّة عظيمة . وعانى شدائد وأهوال من شدّة الرّياح وتراكم الأمطار . وكان العدوّ متسلّطاً عليهم بعلوّ مكانه وجُرح وقُتل جماعة ، ولم يزل راكباً مركب الجدّ رحمه الله حتى تمكّن النّقب من سورها . فطلب العدوّ الأمان . وتسلمها في منتصف ذي القعدة . ونزل إلى الغور (٢) إلى الثقل (٣) . وكان قد أنزل الثقل من شدّة الوحل والرّيح في سطح الجبل .

ومن كتاب عماديّ إلى الدّيوان يبشّر بفتح الكرك والشّوبك ، وصفد . وكوكب يقول فيه (٤) : (والآن فقد خلّص بحمد الله جميع مملكة القدس وحدّها في سمت مصر من العريش وعلى صَوبِ الحجاز من الكرك والشّوبك ، وتشتمل على البلاد السّاحلية إلى

(١) قصد بها الدرع الوافي من النبال .

(٢) الغور (في ياقوت) غور الأردن بالشام بين البيت المقدس ودمشق . وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ، ولذلك سمي الغور طوله مسيرة ثلاثة أيام وعرضه نحو يوم ، فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ... .

(٣) الثقل : ربما قصد به الأعتدة الاحتياطية بالإضافة إلى الخيم والمؤونة الاحتياطية وغيرها مما يلزم .

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

منتهى أعمال بيروت. ولم يبق في هذه المملكة إلاّ صور . وفتح أيضاً جميع أقاليم أنطاكية ومعاقلها الّتي للفرنج والأرمن . وحدّه من أقصى أعمال جبلة والّلاذقية إلى بلد ابن لاون . وبقيت **أنطاكية** بمفردها ، والقصير من حصونها . ولم يبق من البلاد الّتي لم تُفتح أعمالها سوى أطرابلس / فإنّها لم تُفتح منها إلاّ مدينة جُبيل . وقد **(١٠٦/و)** سحبت عليها المهلة الذيل ومعاقلها باقية. وليس لها من عذاب الله الواقع واقية ، والخادم الآن على التّوجّه إليها وعزم النّزول عليها ، وقد شحن الثّغور من حدّ جبيل إلى عسقلان(١) بالرّجال والآلات والعُدد والعَدد المتواصل المَدَد) .

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى ابن أخيه سيف الإسلام(٢) المقيم باليمن (٣) : (ماتجدّد بحضرتنا فتح كوكب ، وهي كرسيّ الأسبتاريّة ودار كفرهم . ومستقرّ صاحب أمرهم . وموضع سلاحهم وذخرهم . وكان بمجمع الطُّرق قاعداً . وللملتقى السُبل راصداً . فتعلقت بفتحه بلاد الفتح . واستوطنتْ . وسُلكت طرقها وأَمِنت ، وعُمِّرت بلادها وسُكنت . ولم يبق في هذا الجانب إلاّ صور ، ولولا أنّ البحر ينجدها ، والمراكب تردها . لكان قيادها قد أمكن ، وجماحُها قد أذعن ، وما هم بحمد الله في حصنٍ يحميهم ، بل في سجن يحويهم ، بل هم أُسارى وإن كانوا طُلقاء ، وأمواتاً وإن كانوا أحياء . قال الله تعالى : (فلا تعجل

---

(١) انظر تعريفها في القسم الاول الحاشيه رقم ٣ ص ٢٢١ .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ٦ .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

عليهم إنمّا نَعُدُّ لهم عَدّاً)(١) . وكان نزولنا على كوكب بعد فتحنا صفد بلد الديويّة . وفتحنا الكرك وحصونه . والمجلسُ السّامي أعلم بما كان على الإسلام مـــن مؤنته المثقلة . وقضيّته المشكلة . وعلّته المعضلة . والله تعالى المشكور على ماطوى من كلمة الكفر . ونَشَرَ من كلمة الإسلام . فإنّ بلاد الشام اليوم (لايُسمع فيها لغو ولا تأثيم) (٢) (إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً)(٣) فادخلوها بسلام. وكان نزولنا على كوكب والشّتاء في كوكبه . وقد طلع من الأنواء في موكبه والثّلوج تنشر على الجبال فتضلّل مُلائها (٤) . والأودية قد عجّت بمائها . وفاضت عند امتلائها . فشمخت أنوفها سيولاً ، فخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً . والأوحال قـــد اعتقلت الطّرقات . ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات . فتجشّمنا العناء نحن ورجال العساكر . وكابرنا العدوّ والزّمان . وقد تحرّر الحظّ المكابر . وعلم الله النيّة منّا فأنجدها بفعلها . وضمير الأمانة فأعان على حملها ،ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من نقلهـــا) . ثمّ قـــال : (والمجلس السّامي يعلم

(١٠٦/ظ) أنّ / الفرنج لايسلون عمّا فتحنا . ولا يصبرون على ماجرحنا ، وأنّهم — لعنهم الله— أمم لاتُحصى . وجيوش لاتُستقصى . ويد الله

---

(١) سورة مريم الآية ٨٤ .

(٢) كذا في الأصل ١٠٦/ظ وربما قصد بها الآية (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما) سورة الواقعة آية ٢٥ .

(٣) سورة الواقعه آيه ٢٦ .

(٤) ملا (في لسان العرب) مدة العيش ، وملا الرجل تملو : عدا .

فوق أيديهم . وسيجعل الله (بعد عسرٍ يسراً) (١) . وما هُم إلاّ كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تغاوّت . وإن لم يُقذفوا من كلّ جانب استأسدوا . واستكلبوا . وكانوا لباطلهم الدّاحض أنصر منّا لحقّنا النّاهض) . ثمّ قـال : وأمّا نحن فبالله ندفع مانطيق ومالانطيق . وإليه نرغب في أن يثبّت قلوبنا إذا (كادت تزيع قلوب فريق) (٢) .

قال العماد(٣) : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد ، أنّ اثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر . ودخلوا من باب زويلة (٤) إلى قرب الصّياقلة مجذبي السّيوف ، فأخذوا ووقذوا . واعتُقلوا . ولم يُستنقذوا . ولمّا علم السّلطان بهذا الأمر . عراه الهمّ . وتضجّر ممّن على بابه من وفود مصر . وقال : إلى كم نتحمل منهم هذا ؟ وهمّ بطردهم (٥) . وكان قد وفد إليه جماعة من أولاد الوزراء ،

---

(١) ربما قصد الآية (إن مع العسر يسرا) . انظر سورة الشرح آية ٦ .

(٢) ربما قصد الآية (. بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ...) انظر سورة التوبة آية ١١٧ .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٤) باب زويلة . كان عندما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح ، فلما قدم المعز إلى القاهرة دخل من أحدهما وهو الملاصق للمسجد الذي بقي منه إلى اليوم — أي زمن المقريزي — عقد ويعرف بباب القوس ، فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له .

وفي سنة خمس وثمانين وأربعمائة بنى أمير الجيوش بدر الجمالي ووزير الخليفة المستنصر بالله باب زويلة الكبير الذي هو باق إلى الآن انظر الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١٣٨ (فطردهم وردعهم وردهم) .

والأمراء ، والمعروفين . ووافق ذلك دخول الفاضل إليه ، فأخبره بالخبر ، فقال : يجب عليك أن تشكر الله على هذه النّعمة ، أليس لم يلب دعوتهم أحد ؟ ولم يكن من ورائهم مدد ؟ فطب نفساً ، وزد [بمنزلتك عند الله](١) أنساً . ثمّ قال : كان بمصر والشام من كان يرتع الخلق في رياض أنعامه . وأنت اليوم وحدك سلطان الجميع ، فأكرم وفودك ، فإنّهم لايجدون بعد الله إلاّ وجودك ، فاغرورقت بالدّموع عيناه ، وبالسماح يداه رحمه الله ، وأقسم أنّه ماعاش لايردّ قاصداً ، ولا يصدّ وافداً ، وندم في الحال بقضاء حقوق الوافدين ، وإنجاح آمال القاصدين ، رحمه الله عليه .

وفي هذه السنة : (٢) توفّي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى ابن عثمان الحازمي الهمذاني في الثّامن والعشرين من جمادى الأوّل ببغداد ، وكان مولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة . وله المصنفّات المفيدة على صغره ، منها : النّاسخ والمنسوخ في الحديث ، والعجالة في النّسب وغيرهما .

والأمير مؤيد الدّولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني ، ومولده بشيزر (٣) سنة ثمان وثمانين (٤) وأربعمائة ، فبلغ

---

(١) مابين القوسين إضافة عن نسخة المغرب .

(٢) انظر الروضتين ج٢ ص ١٣٧ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .

(٣) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ١٨٦ .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١٣٧٨ (ثمان وثلاثين) .

عمره ستاً وتسعين سنة ، وقد تقدّم ذكره وشيء من شعره (١) ، وكانت وفاته في الثّالث والعشرين من رمضان .

ثمّ دخلت سنة خمس وثمانين (٢) :

والسلطان / بعكّا يرتّب أمورها ، ثمّ رحل إلى دمشق في صفر (١٠٧/و) وسيّر إلى بغداد أسارى الفرنج الفوارس وعُددها النفّائس ، وتاج ملكهم السّليب ، والملبوس ، والطيب ، والصّليب ، وهو الّذي كان فوق قبّة الصخرة المقدّسة . فأدخلت الأسارى إلى بغداد على هيئتها يوم فزاعها راكبة حصنها في طوارقها وبوارقها وأدراعها قد نكّست بنودها .

وقال غير العماد (٣) : دفن الصّليب تحت عتبة باب النّوبي تبيّن منه شيء قليل ، وكان من نحاس ، وقد طلي بالذّهب ، فجعل يُداس بالأرجل ، ويبصق النّاس عليه .

ثمّ رحل السلطان في ربيع الأول ونزل شقيف أرنون (٤) ، وكان صاحبه (٥) من كبار الفرنج وعقلائهم ذا مكر ودهاء ومعرفة ،

---

(١) انظر خريدة القصر - قسم شعراء الشام ج١ ص ٤٩٨ - ٥٤٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٢) انظر الفتح القسي ص ١٢٧ - ١٤٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٢٧ ، ٣٦ ، النوادر السلطانية ص ٦٥ - ٧٤ ، الروضتين ج٢ ص ١٣٨ - ١٤٤ ، السلوك ج ١ ق١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، شفاء القلوب ص ١٥٩ - ١٦١ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٥ ، مختصر تاريخ البشر ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٣٩ هو ابن الفادسي .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٣ ص ١٨٢ .

(٥) في الفتح القسي ١٣٣ هو أرناط وكذا في الكامل ج ١٢ ص ٢٧ ، وكذا في الروضتين ج ٢ ص ١٤٣٠ .

فاجتمع بالسلطان ، ووعده بتسليم الحصن إليه من غير قتال ، واستمهل مدّة ، وتعلّل بأنّ له أهلاً بصور يريد نقلهم إليه ، وينقطع في خدمة السلطان ، فإنّه لايمكنه مساكنة الفرنج بعد تسليم الحصن ، وصار في أثناء المدّة يقوي الحصن بنقل الميرة إليه ، وفُطن له فاعتُقل بدمشق . ورتّب السلطان عدّة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصّيف والشّتاء إلى أن تسلّمه بعد سنة بحكم السّلم . وأطلق صاحبه ، وأجرى عليه حكم الحلم ، وفي مدّة مقام السلطان بمرج عيون (١) لمحاصرة شقيف أرنون اجتمعت الفرنج . وجرت لهم مع المسلمين وقائع ، وذلك أنّ ملك الفرنج الّذي أسره السلطان يوم حطّين أطلقه من أنطرسوس . لمّا دخل الساحل الثّاني ، وشرط عليه : أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً . فنكث — لعنه الله — وجمع الجموع وأتى صور . واتّفق هو والمركيس اللّعين على جمع الفرنج على المسلمين ، ثمّ قطعوا الجسر الفاصل بين صور وصيدا ، فالتقوا بيزك (٢) المسلمين ، فجرت وقعة وبعدها وقعات استظهر المسلمون في أكثرها والفرنج في بعضها ، ثمّ إن الفرنج ، ساروا ونزلوا على عكّا على شطر منها وخيمة ملكهم على تلّ المصابّين قريباً من البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً .

---

(١) مرج عيون (ي ياقوت) بسواحل الشام . نقول : تقع في الجنوب اللبناني إلى الشمال من مدينة الخيام . انظر الأطلس مصور القطر اللبناني .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم ٢ ص ٢١٠ .

قال القاضي : وما رأيت من نقّصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك/ومددهم من البحر لاينقطع . وجرى بينهم (١٠٧/ظ) وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل . والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع ، ولمّا استفحل أمر الفرنج استداروا بعكّا ، بحيث منعوا من الدخول إليها والخروج منها . وذلك سلخ رجب ، فعظم على السلطان ، وضاق صدره ، وثارت همّته العاليّة في فتح الطّريق إلى عكّا ، لتستمرّ السّابلة إليها بالميرة والنّجدة . فباكرهم مستهلّ شهر شعبان ، وضايقهم مضايقة شديدة طول ذلك اليوم والّذي يليه . فانفتح الطّريق إلى عكّا من باب القلعة ، وصار الطّريق مهيعاً (١) يمرّ فيه السّوقي ومعه الحوائج . ويمر به الرّجل الواحد والمرأة واليزك بين الطّريق وبين العدوّ . ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكّا . ورقي على السّور ، ونظر إلى عسكر العدوّ . وكان رحمه الله يُعاين هذه الأمور كلها بنفسه . ويصافحها بذاته . لايتخلّف عن مقام من هذه المقامات . وهو من شدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثّكلى . قال : ولقد أخبرني بعض أطبائه : أنّه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلاّ شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وجرت وقعات وما يخلو يوم من قتل وجرح وسبي ونهب .

قال العماد : واستدارت الفرنج بعكّا كالدائرة بالمركز ، وصرنا مُحاصرين للمحاصرين ، وكانوا في عدد الرّمل ومدد النّمل ، وهم كلّ يوم في ازدياد والبحر يمدهم بالأمداد ؛ وشرعوا

---

(١) مهيع (في لسان العرب) الجزع وقيل شدة الحرص وقيل : الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو .

في حفر الخنادق ، وسدّ المضائق ونصب الطوارق (١) ، وهم في مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون . وفي مواطنهم ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل .

ووقعت (٢) الوقعه الكبرى التي بَدأت بالشؤم ، وخُتمت بالحسنى في الحادي والعشرين مـن شعبان تحرّكت الفرنج وركبوا ، وامتدّوا من النّهر إلى البحر ، وملكوا رؤس التّلال وفي القلب الملك — لعنه الله — وبين يديه الإنجيل مستور بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه ، وهم يسيرون بين يدي الملك وأمر السلطان

(١٠٨/و) من نادى في الناس / ياللإسلام وعساكر الموحّدين ، فركب النّاس ، وكانوا على تعبئة الحرب ، وقد باعوا أنفسهم بالجنّة ، والسّلطان يطوف على الأطلاب(٣) بنفسه ، يحثّهم على القتال ، ويرغّبهم في نصرة دين الله ، وحملت الفرنج حملة رجل واحد راجلهم وفارسهم ، تسير الرّجالة سير الخيّالة ، ولا يسبقونها ، وهم يسيرون جنباً ، وجاءت الحملة على أهل ديار بكر وبهم غرّة بالحرب ، فانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميسنة ، واتّبع العدوّ المنهزمين إلى تلّ الغياضيّة ، فاستداروا حوله وعليه الخيم ، وصعد طائفة من

---

(١) طوارق (في لسان العرب) جمع مفردها : طارق : جاءهم ليلا ، وقيل: هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح : أي أنه في ارتفاعه وعلوه كالنجم المضيء في علو قدره .

(٢) انظر : الفتح القسي ص ١٤٧ — ١٦٠ ، الكامل ج ١٢ ص ٣٦ — ٣٩ ، النوادر السلطانيه ص ٧٥ — ٨٠ ، الروضتين ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٧ ، شفاء القلوب ١٦١ — ١٦٣ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٥ ص ١٣٤ .

العدوّ إلى خيمة السلطان ، فقتلوا طشتداراً (١) كان هناك ، وفي ذلك اليوم استشهد أبوعلي بن رواحة الفقيه الشّاعر ، وإسماعيل الصّوفي الأرموي المكبس ، وغلام في الخزانة وغيرهم ، وأمّا الميسرة : فإنّها ثبتت ، فإنّ الحملة لم تصادفها ، ولم يبق مع السلطان إلاّ خمسة أنفس ، وهو يطوف ، ويخترق الصّفوف ، يُنهض الأطلاب ، ويعدهم الوعود وأوى إلى تحت التّل الّذي كان عليه الخيام ، وأمّا المنهزمون من العسكر ، فإنّه بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة (٢) قاطع جسر طبرية ، وتمّ منهم قوم إلى دمشق ، ولمّا نظر العدوّ الّذين صعدوا إلى الخيم أنّ ميسرة المسلمين ثابتة ، علموا أنّ الكسرة لم تتمّ ، فعادوا منحدرين من التّل يطلبون عسكرهم . وكان السلطان رحمه الله واقفاً تحت التّل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع النّاس ليعودوا إلى الحملة ، فلمّا رأى الفرنج نازلين من التّل أمهلهم حتى ولّوا ظهورهم ، واشتدّوا يطلبون أصحابهم ، فصاح في النّاس وحملوا عليهم ، فطرحوا منهم جماعة كثيرة ، واشتدّ الطّمع فيهم ، وتكاثروا النّاس وراءهم ، حتّى لحقوا أصحابهم والطّرد وراءهم ، فلمّا رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ، ظنّوا أنّ من حمل منهم قد قُتل ، وأنّه إنمّا نجا منهم هذا النفر فقط ، وأنّ الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدّوا في الهزيمة والهرب ، وتحرّكت الميسرة عليهم وتحايا الرّجال وتراجع النّاس من كلّ جانب ، وكذّب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظلّ النّاس

---

(١) طشتدار : اسم لمن يصبّ الماء على يد المخدوم . انظر معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ص ١٣٩ .

(٢) الأقحوانة (في ياقوت) قرية كانت من أعمال دمشق على شاطىء بحيرة طبرية

في قتلٍ وطرح وضربٍ وجرحٍ إلى أن اتّصلَ المنهزمون السّالمون إلى عسكر العدوّ ، فهجم عليهم / المسلمون في الخيام . فخرج إليهم (١٠٨/ظ) منهم أطلاب كانوا أعدّوها مستريحة خشية من هذا الأمر ، فردوا المسلمين . وكان التّعب قد أخذ من النّاس والخوف والعرق قد ألجمهم ، تراجع النّاس عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون في القتلى ودمائهم ، فرحين مسرورين . وعاد السلطان ، وجلسوا في خدمته ، يتذاكرون من فقد منهم ، فكانوا مقدار مائة وخمسين نفراً من المجهولين ،واستشهدوا ذلك اليوم من المعروفين . ظهير الدين (١) أخو الفقيه عيسى الهكاري ، قال القاضي : ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزّونه ، وهو ينكر عليهم ، ويقول : هذا يوم الهناء لا يوم العزاء ، وقُتل الأمير مجلّي بن مروان ، والحاجب خليل الهكاري هذا الّذي قُتل من المسلمين . وأمّا العدوّ المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر . وقد رأيتهم حُملوا إلى شاطىء النهر ليُلقوا فيه ، فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

وقال العماد : فُرش منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدّم (٢) الدّاويّة الّذي كنّا أطلقناه ، وذكر أنّهم في مائة ألف وعشرين ألفاً أو عشرة آلاف حين سألناه . ثمّ ضربنا عنقه ، ومن العجب أنّ الّذين ثبتوا منّا ، لم يبلغوا ألفاً ، فردّوا مائة ألف ، وآتاهم الله قوّة من بعد ضعف ، وكان الواحد منّا يقول : قتلت

---

(١) في النوادر السلطانية ص ٧٨ هو : (ظهر الدين) .

(٢) هو : أرناط ، انظر الأصل (١٠٧/ظ) وحاشيتنا رقم (٥) ص (٢٠١) .

من المثلّثين ثلاثين وأربعين . وتركتهم مصرّعين . وكان السلطان رحمه الله من الثّابتين ، وقد بقي وحده عند تولّي المسلمين ، ولا شكّ أنّ الله تعالى أنزل ملائكته المسوّمين

حكى بعضهم قال : كنت منهزماً من فارسٍ مدجّج قد لزّ بقربي حصانه . وهزّ لصلبي سنانه . فأيست من البقاء . ثمّ أبطأتْ عليّ طعنته ، فالتفتُّ فإذا هو وحصانه كلاهما مُلقى . وما بالقرب أحد ، فعرفت أنّه نصرٌ إلهيٌّ . وصنع ربّاني وكان لمّا انهزم المسلمون ظنّ الغلمان والأتباع أنّ ذلك يتمّ . وخافوا من نهب العدوّ خيم المسلمين ، فرأوا أنّهم أحقّ بذلك ، فوضعوا أيديهم في الخيم ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً . فلمّا عاد السلطان ، أمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان ، وتقدم بأنّ كلّ من عرف شيئاً وحلف عليه سلّم إليه ، وأشير على السلطان بالانتقال من تلك المنزلة لنتن رائحة القتلى بها ، فانتقل إلى الخرّوبة(١) فانتعش الفرنج / ووجدوا الفرج ، (١٠٩/و)
وجاءتهم في البحر مراكب أخلقت من عُدم ، وبنت ماهُدم . وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر . وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر ، فكانوا يخندقون ، ويعمّقون ، ويعملون من تراب الحفر حولهم سُوراً ، فعاد مخيّمهم بلداً مستوراً معموراً ، فملؤوه بالسّتائر ، ومنعوه من الطّير الطّائر ، وبنوه . وأسسوه . وستروه وترّسوه . ورتبّوا عليه رجالاً ، ولم يتركوا إليه لواغلٍ مجالاً ، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ، ليظهروا

---

(١) الخروبة (في ياقوت) حصن بسواحل الشام ، مشرف على عكا .

منها إذا أرادوا خروجاً ، ولمّا فرغوا من هذا الأمر ، اشتغلوا بالحصر ، وانقطعت الطّريق على المسلمين إلى عكّا ، وبان ضعف رأي الانتقال ، فإنّه بعدما أضحك أبكى ، ثمّ بعد ذلك جرى من آهل عكّا ومن الأسطول في البحر ومن العرب على الفرنج فتكات ووقعات ، ووصلت نُجدَة الفرنج من البحر من كلّ نوع حتّى النّساء سسّان أنفسهنّ للعزُبان ، ورأيْنَ ذلك من جملة القربان .

وفي هذه السنة توفّي بدمشق القاضي شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون (١) شيخ المذهب في وقته في حادي عشر رمضان ، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، بلغ عمره ثلاثة وتسعين سنة ونصفاً ، وأضرّ قبل وفاته مدّة عشر سنين ، ودفن بمدرسته الّتي انشأها بدمشق ، وختمت به الفتيا .

وتوفي من الأمراء الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري (٢) بمنزلة الخرّوبة ، ونقل إلى القدس . وحسام الدين طمان (٣) ، وعزّ الدين موسك الروادي (٤) ، وفي عاشر جمادى الأول ولد ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين ، وهو الّذي اجتمع عليه

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣١ .

(٢) انظر الكامل ج ١٢ ص ٤٢ ، النوادر السلطانية ص ٨٢ ، الروضتين ج ٢ ص ١٥٠ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٤ ، وحاشيتنا رقم ٤ ص ٢٧٠ .

(٣) هو : الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة ، مات على فراشه . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

(٤) هو الأمير عز الدين موسك بن حكر ، وهو ابن خال السلطان ومن أكابر أقاربه ، ومقدمي كتائبه ، توفي في التاسع عشر من شعبان بدمشق ودفن بجبل قاسيون . انظر الفتح القسي ص ١٩ — ٢٠ ، الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ — ١٥٠ .

أصحابه بعد وفاة أبيه في محرّم سنة خمس وتسعين (١) . وورد بذلك إلى جدّه السلطان كتاب فاضلي من مصر يقول فيه : (المملوك يقبّل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر . دام رشاده وإرشاده ، وزاد سعده وإسعاده ، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده ، واشتدّ بأعضاده فيهم اعتضاده ، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا : (أيم الملوك وهذه أولاده) وينهي أنّ الله وله الحمد رزق الملك العزيز عزّ نصره ولداً مباركاً ذكراً سوياً براً زكياً تقياً نقياً من /ذريّة (١٠٩/ظ) كريمة بعضها من بعض ، ومن بيت شريف ، كادت وُلاته أن تكون وُلاة في السماء ، وممالكه أن تكون ملوكاً في الأرض . وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد وهي من الجمعة أولى العدد ، وبه وبآله يعزّ الله أهل الجمعة ويذلّ أهل الأحد .

وفي (٢) هذه السنة خرج ملك الألمان (٣) في عدّة عظيمة تزيد على مائتي ألف ، وقيل : ثلاثمائة ألف (٤) مقاتل على قصد العبور

---

(١) هو : محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، ولد سنة ٥٨٥ هـ ، ولي بعد موت أبيه بمصر سنة ٥٩٥ هـ وهو طفل ، عزله عمه العادل سنة ٥٩٦ هـ . انظر الروضتين ج٢ ص ١٥٠ ، والحاشية رقم ١٣٨ في ترويح القلو ص ٩٠ – ٩١ .

(٢) انظر : الفتح القسي ص ١٦٠ – ١٧٤ ، النوادر السلطانية ٨٠ – ٨١ ، الروضتين ج ٢ ص ١٥٠ – ١٥١ ، وفي شفاء القلوب ص ١٦٢ (وقيل قدم الأسطول والعادل وحديث الألمان في السنة التالية) وانظر ص ١٦٣ – ١٦٤ أيضاً ، وكذا في ابن الأثير حيث يذكر قدوم ملك الألمان في عام ٥٨٦ هـ ، انظر الكامل ج ١٢ ص ٤٨ – ٥٠ .

(٣) هو : كونراد الثالث ملك ألمانيا الذي شارك في الحملة الصليبية التي تسمى بالحملة الثانية .

(٤) في النوادر السلطانية (مئتان وستون ألفاً) ، وفي شفاء القلوب ص ١٦٣ أنه (قطع الإسكندرونة في ستمائة ألف مقاتل ، وقيل : مائة ألف .

إلى بلاد الإسلام ، وقطع بلد الرّوم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستّون ألف مدرّع . ومعهم ملوك وكنود ، وكلّ شيطان لربه كنود . فبعث السلطان كتب الاستنفار إلى جميـــع الأمصـــار والأقطار ، وستأتي باقي الأخبار .

ثم دخلت سنة ست وثمانين :

ففيها (١) : وقعت وقعة الرّمل، استشهد فيها جماعة من الشجعان، ومن عجائبها : أنّ مملوكاً للسلطان عثر بـــه جواده ، فقبض مَنْ أسَرَهُ شعره ليجذبه ، وسلّ آخر سيفه ليضربه ، فضرب يدَ قابض شعره فسيّبه ، واشتدّ المملوك يعدو وهم خلفه ، فلم يدركوه .

وفيها : تســـلم شقيف أرنون بالأمان ، وكان الحصار قد استمرّ عليه حتّى فني زاده ، وصاحبهُ أرناط في الأسر ، فسلمه بخلاصه ، وصار إلى صور . واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الأسطول من مصر ، فما زال يقوّي عكّا بتسيير الغلاّت والقوّات إليها في المراكب ، وملأها بالذّخائر والأسلحة والكُماة ، فلمّا سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها ، ودبت عقاربها وأفاعيها ، وشدّت مراكبنا في موانيها وانقطع خبر البلد ، وامتنع عليه المدَد ، فانتدب العُوام بالسباحة ، وحملهم عـــلى ذلك من

(١) انظر الفتح القسي ص ١٧٤ – ١٨٣ و ١٨٨ – ١٩٦ ، الكامل ج ١٢ ص ٤٤ – ٤٧ ، النوادر السلطانية ٨١ – ٩١ ويذكر أن وقعة الرملة حدثت سنة ٥٨٥) . الروضتين ج ٢ ص ١٥١ – ١٥٧ ، شفاء القلوب ص ١٦٢ – ١٦٩ ، تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ٧٨ – ٨٩ ، السلوك ج ١ ق١ ص ١٠٣ – ١٠٥ .

السلطان السّماحة. حتّى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم . ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم . ويحملون كُتباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور ، ونكتبُ إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترّجمة المصطلح عليها . ولقد عطب عوّامون فما ارتدع الباقون ، ومنهم من غرق وقذفه البحر إلى ميناء عكا ، فأخذ المسلمون ماكان في وسطه من الكتب والنّفقة وهو : عيسى العـوّام ، واصطنع الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، وألبسوها الجلود المسقّاة / (١١٠/و) بالخلّ ، بحيث لاتنفذ فيهاالنّيران، وكانت هذه الأبراج كأنّها الجبال. تُشاهَد من العسكر عالية على أسوار البلد، وهي مركبّة على عجل يسع كلّ واحد من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر ، ويتّسع سسطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، وكلّ يوم يقرّبونها من البلد ولو ذراعاً ، فكشفوا سور البلد، وشرعوا في طمّ الخندق . وجاء عوّام فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباحَ ومساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين : قسم للقتـــال . وقسم مـــع الأبراج ، فأشقى البلد وبقي له رمق ضعيف ، ورُميت الأبراج بكلّ قارورة نفط فما أثّرت ، ولم يشعر المسلمون يوم السبت ، الثّامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلاّ وقد اشتعلت والتهبت ووَقعت ، وكانت آيةً مـــن قدرة الله ظهرت ، وذلك أنّه كان بعكا شابّ من أهل دمشق مولّع بجمع آلات الزرّاقين . ولم يكن النفط من صناعته ، ولكن الله سبحانه وفقّه فيها لسعادته ، فرمى عليها قدور نفط خالية من النّار ، حتّى عرف أنّه قد سقاها ورواها . ثمّ رماها بالقدور المحرقة، فتسلّطت النار على طبقاتها ، فاضرم على أهل السّعير سعيراً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، ولم يقبل على ذلك عطاء ، وقال :

هذا عملته لله . فما أريد من سواه جزاء ، وخرج أهل عكا ، فنظّفوا الخندق ، وسدّوا الثغر ، وجاؤوا إلى مواضع الأبراج فاستخرجوا الحديد منها ، وجرى القتال أيضاً في البحر بين الأسطولين ، وفي البرّ بين العسكرين ، وكان النّصر بحمد الله للمسلمين . ودخلت مير وذخائر إلى البلد ، وقُتل من العدو وجُرح في ذلك اليوم خلق عظيم .

قال العماد : قتلنا منهم مدّة مقامنا على عكا سنتين أكثر من مائة ألف ، وزرناهم بكلّ حتف ، وكلّما بادوا في البر زادوا من البحر ، وكم جَسَروا فَخَسِروا ، وقُتِلوا وأُسِروا ، وهُزِموا وكُسِروا ، وخلَفهم خلف ، وتقوم مقام مئاتهم (١) ألف ، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم ، وقطعنا أرزاقهم ، ووصلنا آجالهم ، وتواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان/في تلك الجموع ، لكن لطف الله تعالى، (١١٠/ظ) بأن ابتلاهم بالجوع وقلّة الزّاد والظهر ، حتى ألقوا بعض أقمشتهم ، وأحرقوا بعض عُددهم ، وفني منهم خلق عظيم بالموت، إلى أن وصلوا طرسوس ، فحدث لملكهم مرض بسبب سباحته في ماء شديد البرد فَقَتَلَه ، فسلقوه في خل وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشّريف ، ويدفنوه فيه ، ولمّا تحقّق السلطان قرب هذا العدوّ الثقيل من البلاد ، اتفّق هو وأمراؤه على أنّ العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق العدوّ ، ويبقى هو مرابطاً بباقي العسكر للمنازلين على عكا ، وتقدّم السلطان بهدم سور طبريّة (٢) ،

---

(١) قصد بها مئات الألوف من الأعداء . انظر الأصل (١٠٨ /ظ) ص ٢٠٤ .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٥ ص ٨١ .

وهدم يافا (١) ، وأرسوف (٢) ،وقيسارية (٣) ، وهدم سور صيدا (٤) . وجُبيل (٥) ، ونقل أهلها إلى بيروت .

وفي بعض الكتب السلطانية(٦) : (قد عرفنا خبر العدوّ المشؤوم الواصل من جهة الرّوم ، وهذا أوان تحرّك ذوي الحميّة ، ونهوض أهل الهمم الأبيّة العليّة ، فإنّ القوم في كثرة مستنوّن في طريق العثرة ، والسّيل إذا وصل إلى الجبل الراسي وقف ، والليّل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف ، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعيّن ؟ وأين المهتدون في نهج الرّشاد المتبيّن ؟ وأين المسلمون ؟ وحاشى أن يكونوا للإسلام مُسلِمين ، وأين المقدّمون في الدّين ؟ ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مُقْدِمين ، ولولا التّقيد بهذا العدوّ الرّابض ، لأطلقت أعنّة النّهضة إلى العدوّ النّاهض . ولابدّ من لقائه قبل تلفّق الجمعَين وإراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين).

ومن كتاب فاضلي إلى الخليفة ببغداد عن السلطان(٧) : (ومن خبر الفرنج : أنّهم الآن على عكا ، يمُدّهم البحر بمراكب أكثر عِدّة من أمواجه ، ويُخرج للمسلمين أمرّ من أُجاجه ، وقد تعاضدت

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (١) ص ٢٣٢ .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (١) ص ١٥٠ .

(٣) قيسارية : كانت مرفأ هاماً من مرافىء فلسطين في العصور القديمة والقرون الوسطى ، وهي تقع في خليج طبيعي يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر مابين حيفا ويافا . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٩٧ – ٩٨ .

(٤) انظر تعريفها في القسم الأول الحاشية رقم (٣) ص ٢٣٢ .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (١) ص ١٥١ .

(٦) انظر الفتح القسي ص ١٩٧ – ١٩٨ ، الروضتين ج ٢ ص١٥٧.

(٧) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ – ١٥٨ .

ملوك الكفر ، أن يُنهضوا إليهم من كلّ فرقة طائفة ، ويُرسلوا إليهم من كلّ سلاح شوكة ، فإذا قتل المسلمون واحداً في البرّ ، بَعَثَ ألفاً عوضه البحر ، فالزّرع أكثر من الحصاد ، والثّمر أنمى من الجذاذ ، وهذا العدوّ المقاتل — قاتله الله — قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة ، واستجنّ (١) من الحنايات بحصون حصينة ، فصار مُصحراً ومُمتنعاً ، حاسراً / ومتدرّعاً ، مُواصلاً ومنقطعاً ، (١١١/و)
وعَددهم الجمّ قد كاثر القتل ، ورقابهم الغُلب قد قطعت النّصل لشدّة ماقطعها النّصل ، وأصحابنا قد أثّرت فيهم المدّة الطّويلة ، والكلف الثّقيلة في استطاعتهم لافي طاعتهم ، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم ، وكلّ من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النّبويّة ، في الصّحبة البدرية ، اللّهمّ إنْ تهلك هذه العصابة ، ويُخلص الدّعاء ، ونرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة ، وقد حرّم باباهم — لعنة الله عليه وعليهم — كلّ مباح ، واستخرج منهم كلّ مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ،ولبس وألبسهم الحداد ، وحكَم عليهم أنّهم لايزالون كذلك . أو يستخلصوا المقبرة ، فيا عصبة محمد — صلّى الله عليه وسلم — اخلفه في أمته بما تطمئنّ به مضاجعه ، ووفّه الحقّ فينا ، فإنا والمسلمون عندك ودائعه ، وما مثّل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحاله (٢) ، لوقف بالعتبات ضارعاً (٣) ، وقبّل ثراها خاشعاً ،

---

(١) أجن الآجن (في لسان العرب) الماء المتغير الطعم ، والأجنة لغة في الوجنة. وأن امرأة ابن مسعود سألته أن يكسوها جلباباً فقال : إني أخشى أن تدعي جلباب الله الذي جلببك ، قالت : وماهو ؟ قال : بيتك ، قالت أجنك من أصحاب محمد تقول هذا ؟ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ (إلا مجالة عبد ، لوأمكنه لوقف .) .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ (صادعاً) .

وناداها بالقول صادعاً ، ولو رُفعت عنه العوائق لهاجر . وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالدّاء الّذي خامر ، ولو أمِنَ عدوّ الاسلام أن يقول قولاً آخر لسافر ، ولولا أنّ في التّصريح مايعود على العدالة بالتّجريح لقال مايُبكي العيون ، ويُنكي القلوب . ولكنّه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب . قائم من نفسه بما يجب ، ربّ إنّي لاأملك إلاّ نفسي وهاهي في سبيلك مبذوله . وأخي وقد هاجر إليك هجرةً يرجوها مقبولة ، ووَلدي وقد بذلت لعدوّك صفحاتِ وجوههم ، وهان عليَّ محبوبُك بمكروهي فيهم ومكروههم . ونقف عند هذا الحدّ . ولله الأمر من قبل ومن بعد) .

ومن كتاب آخر إلى بغداد أيضاً (١) : قد بُلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت . واستجابوا الصوت ، وفارقوا المحبوبَين : الأوطان . والأوطار ، وهجروا المألوفَين : الأهل والديار ، وركبوا اللّجج . ووَهبوا المُهج . كلّ ذلك طاعة لقسّيسهم ، وامتثالاً لأمرِ مركيسهم . وغيرةً لمُتَعَبّدَهم . وحميّة لمعتقدهم ، وتهالكاً على مقبرتهم ، وتحرّقاً على قمامتهم ، لايطلبون / (١١١/ظ) مع شدّة الإملاق مالاً ، ولا يجدون مع كثرة المشاقّ ملالاً ، بل يتساقطون على نيران الظُبى تساقُطَ الفرَاش ، ويقتحمون الرّدى مُتَدَرّعين الصّبر ، مُتثبّتي الجأش حتى خرجت النساء من بلادهنّ متبرّزات (٢) ، وسرن إلى الشام في البرّ والبحر متجهّزات ، وكانت منهنّ ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل فارس وراجل ،

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٢) البرزة (في لسان العرب) من النساء التي ليست بالمتزيلة التي تزايلك بوجهها تستره عنك وتنكب إلى الأرض .

رامح ونابل . والتزمت بمؤنتهم فصُودف مركبها بقرب الإسكندرية فأُخذت برجالها ، وأراح الله من شرّ احتفالها ، ومنهنّ ملكة وصلت مع ملك الألمان . وذوات المقانع من الفرنج . مقنّعات ذارعات ، يحملن إلى الطّعان الطّوارق والقنطاريّات ، وقد وُجِدَت في الوقعات التي جرت عدّةٌ مِنهُنّ بين القتلى . وما عُرفن حتى سُلِبن . وإنّ البابا الّذي لهم برومية ، قد حرّم عليهم مطعمهم ومشاربهم ،وقال : من لايتوجه إلى القدس مستخلصاً ،فهو عندي محرّم لامنكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود . وقال لهم : إنّي واصل في الرّبيع جامع على الاستنفار شمل الجميع . وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد. ويصل معه بأهله وولده كلّ من يقول : لله أهل وولد ، وهذا شرح هؤلاء . وتعصّبهم في ضلالتهم ولجاجاتهم في غوايتهم . بخلاف أهل الإسلام . فإنّهم يتضجّرون ولايصبرون بل يتفلّلون ولا يجتمعون ويتسلّلون ولا يرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متّفقة . ليُعلَم أنّ الإسلام من عند الله منصور ، وأنّ الكفر بإرادة الله محسور مدحور .

فصل (١) :

ثم كانت الوقعة العادليّة يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة ، لمّا علمت الفرنج خفّت العساكر بسبب من ذهب منهم إلى

---

(١) انظر الفتح القسي ص ١٩٩ -- ٢١٩ ، الكامل ج ١٢ ص ٥١ -- ٥٥ ، النوادر السلطانية ص ٩١ — ١٠٥ ، الروضتين ج٢ ص ١٥٨ — ١٦٤ . شفاء القلوب ص ١٦٨ - ١٦٩ ، تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

طريق العدوّ الواصل . هجموا فجأة على الميمنة ، وفيها الملك العادل أخو السلطان . فلمّا بصر النّاس بهم صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها . وركب السلطان ونادى مناديه : ياللإسلام ، وكان رحمه الله أوّل راكب .

قال القاضي : لقد رأيته/ وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير (١١٢/و) من خواصّه ، وهو كالفاقدة ولدها الثّاكلة واحدها ، ووصل الفرنج إلى المخيّم العادلي (١) قبل استتمام ركوب العساكر ، ودخلوا في وطاقه ، وامتدّت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنّهب والغارة ، فلمّا علم العادل اشتغالهم بذلك صاح بالنّاس . فحملوا عليهم فكسروهم فعادوا يشتدّون نحو خيامهم هاربين ، وسيوف الله تعمل فيهم ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن إلاّ ساعة حتى صار القوم صرعى ، كأنّهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدّوا مطرحين مِنْ مُخيّم العادل إلى خيامهم صرعى على التلول والوهاد ، وكان مقدار ماامتدّ فيه القتلى بين المخيّمين فرسخاً ، وربّما زاد على ذلك ، ولم ينج من القوم إلاّ النّادر ، وكان ذلك كلّه فيما بين الظّهر والعصر وأمر السلطان النّاس بالتّراجع ، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس مجهولين ، ولمّا أحسّ أهل عكا بما جرى بين المسلمين وبين العدوّ من الوقعة ، خرجوا إلى مخيّم العدوّ من البلد وجرى بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النّصرة ، والحمد لله ، للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدوّ ونهبوا ، واختلف النّاس في عدد القتلى منهم . فذكر قوم أنّهم ثمانية آلاف . وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر من خمسة آلاف .

---

(١) انظر حاشيتنا رقم (١) ص ١١ .

وقال العماد : حزرناهم بعشرة آلاف قتيل ، لاحَزْرَ تكثير ، بل حَزْر تقليل ، وكان الّذين حَملوا وهزَموا ، وقَتلوا أقلّ من ألف ، فقتلوا أضعافهم ، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب .

ثم جاءت الفرنجَ نجدةٌ من البحر أضعاف مانقص منهم من العدد . فأضحوا كأن لم يُنكبوا ، ووصل إليهم المعروف بالكندهري ، ففرّق الأموال ، واستخدم الرّجال ، وأنفق في عشرة آلاف راجل ، ونصب على عكا عدّة مجانيق ، فأحرقها المسلمون ، وهجم عليهم العرب من كلّ جانب ، يسرفون ، وينهبون ، ويقتلون ، ويأسرون ، ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمّن استعطافاً ، ويذكر تمكينه من إقامة الخطبة في جامع المسلمين بقسطنطينية الجمعة ، وأنّه مستمر على المودّة والمحبّة ، وخرج المركيس اللعين من صور للقاء الواصلين مع ملك الألمان ، وكان / لعنه الله ، هو الأصل في تهيّج الجموع (١١٢/ظ) البحريّة فإنّه صوّر القدس في ورقة عظيمة ، وصوّر فيه قمامة (١) ، وفيها قبر المسيح بزعمهم ، وصوّر عليه فرساً عليه مسلم وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصّورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس ، يحملونها والرؤوس مكشّفةٌ وعليهم المسوح ، ينادون بالويل والثّبور ، فهاج بذلك خلائق لايُحصي عددَهُم إلاّ الله تعالى ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده .

وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسةً لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، واشتدّت حاجة مَنْ فيها إلى الطّعام والميرة ، فعمّر المسلمون بطسةً ببيروت ، فيها أربعمائة غرارة قمح ،

---

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٦) ص ١٤٢ .

وفيها الغنم والجبن والبصل وغير ذلك من الميرة . فتزيّا جماعة بزي الفرنج ، حتّى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة ، بحيث تُرى من بُعد ، وعلّقوا الصّلبان وجاؤوا قاصدين البلد ، حتّى دخلت ميناء عكا ، وسلمت ، وكان فرجاً عظيماً .

وكان السلطان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بُطس مشحونة بالأقوات والإدام ، بحيث تكفيهم طول الشتاء ، وكتب أهل البلد في أوّل العشر الأوسط من شعبان : أنّه لم يبق بالبلد ميرة إلاّ قدر مايكفي البلد إلى ليلة النّصف من شعبان ، فقدّر الله تعالى أنّ تلك البُطس الثّلاث وصلت ليلة نصف شعبان . وخرج عليها أسطول العدوّ يقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك مـــن السّاحل . والنّاس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم ، يبتهلون إلى الله تعالى في وصولها إلى البلد سالمة . فدخلت سالمة إلى عكا وقت العصر ، رابع عشر شعبان ، ولله الحمد .

ثم اتّخذ الفرنج من آلات القتال العجيبة والصّنائع الغريبة . ماهال النّاظر ، وخيف على البلد منه ، فمن ذلك : آلة عظيمة تسمّى دبّابة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، وهي ملبّسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عَجَل يُحرّكُ بها من داخل . وفيها المقاتلة حتى يُنطح بها السّور ، ولها رأس عظيم برقبة من حديد تُسمّى كبشاً ، يُنطح بها السّور بشدّة عظيمة ، فتهدمه بتكرار نطحها .

ومن ذلك آلة أخرى وهي : قبو فيه رجال تسحبه إلاّ أن رأسها محدّد على شكل السّكة التي يُحرك / بها ، ورأس الكبش مدوّر ، (١١٣/و) هذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدّتها وثقلها ، ويسمّى سفّوداً ،

واتّخذوا من السّتائر والسّلالم الكبار الهائلة ، والأبراج أشياء، وأعدّوا في البحر بطسة هائلة ، وضعوا فيها بُرجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السّور انقلب بالمحرّكات ، ويبقى طريقاً إلى المكان الّذي ينقلب عليه، يمشي عليه المقاتلة، ونصبوا منجنيقات هائلة حاكمة على السّور، وتواترت حجارتها حتّى أثّرت فيه أثراً بيّناً ، وزُحف بذلك كلّه على برج الذّبّان الّذي على الميناء وعلى غيره من أسوار البلد ، فقدّر الله تعالى إحراق الجميع ، أو ماشاء منه ، وعلّق المسلمون في الكبش كلاليب حديد فسحبوه وهو يشتعل ، حتّى حصّلوه عندهم في البلد ، وأُلقي عليه الماء حتى برد حديده بعد أيّام ، وبلّغنا : أنّه وزن عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي، وكان ذلك من أحسن أيّام الإسلام ووقع على العدوّ خذلان عظيم ، وعلموا أنّ أعمالهم حبطت ، وآمالهم هبطت ، وألقت الرّيح بطسة للفرنج إلى ساحل قريب ، فغنمها المسلمون ، وأغار صاحب أنطاكية ، فخرج عليه عسكر المسلمون بحلب ، فقتل من عسكره خمسة وسبعين ، وأسر خلق عظيم ، وغلت الأسعار عند الفرنج ، حتّى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار .

فصل (١) :

وكان القاضي الفاضل رحمه الله في هذه الأوقات بالدّيار المصريّة ، يرتّب للسلطان أموره من تجهيز العساكر ، وتعمير الأسطول وحمل المال ، ونقل الميَرَ إلى عكا ، والسلطان يكاتبه في مهمّاته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً ومسلّياً ، فمنها (٢) :

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص٣٣٨ — ٣٣٩ .
(٢) انظر الكتاب مطولا في الروضتين ج ٢ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(ولا شبهة أنّ مولانا عزّ نصره في أشغال شاغلة ، وأمورٍ مُتشدّدة ، وقضايا غير واحدة ولا مُتعدّدة ، ولكن قد ابتُليَ النّاس فصبروا ، وأضجرتهم الأيام فما ضجروا ، وأيّ عبادة أعظم من عبادته الّتي قام بها والنّاس عنها قعود . وصبر في طلب جنّتِها على ناري الحرب والوقت ذاتي الوقود . غير أنّ مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام ، فلا ينسى نصيبه من الحزم ، ولا يعجل في الأمور الخطيرة . ولا يقدم بالعَدد القليل على العُدة الكثيرة ، فالمولى إذا/(قاتل)(١) كان واحداً ، (١١٣/ظ)
وإذا (أدبر)(٢) كان بالخلق (٣) ولا يطمع بأن يقوم به الألف . وليذكر المولى نوبة الرّملة ، الّتي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لاغضباً ، وتوفيقاً لااتّفاقاً ، ولا يكره المولى أن تطول مدّة الابتلاء بهذا العدوّ فثوابه يطول . وحسناته تزيد ، وأثره في الإسلام يبقى ، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها . والعاقبة للتّقوى ، (ولينصرّن الله من ينصره)(٤) والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصّته وبعامّة جنده ، وبالأعداد في أعدائه ، كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج . فهو جهاد قد أربى رأيُ المولى فيه فرجح ، والحديد بالحديد يفلح ، وأَكْيَدُ ماقوبل به العدوّ سلاحه ، وأسرع جناح طار لقبضه (٥) جناحه ، ودولة مولانا كالبحر كرماً وظهور عجائب ، وكالسماء مطراً وأسنّة كواكب) .

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٦ (أقبل) .
(٢) في الأصل ١١٤ / و (دبر) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ وماأضفناه عن الروضتين .
(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٦ (وكان مقوماً بجميع الخلق) .
(٤) سورة الحج الآية ٤٠ .
(٥) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٦ (الفمصة) .

ومن كتاب آخر : (المملوك يقبّل الأرض بين يدي مولانا الملك النّاصر ، لطف الله بقلبه ، وحمل عنه وروّح سرّه ووصل الرّاحة به . ونسأله أن يرحمه لنا الّذي رحمنا به فقد بلغت (١) القلوب، ووقفت في طرقها (٢) الذنوب ، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى مايستدل به على أنّ قلبه قد طاب ، وأنّ قصد العدوّ قد خاب ، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد ، مُفتّتاً للقلوب ولو أنّها جماد ، وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوماً ، والعيون ممدودة ، والأيدي مرفوعة ، بأن يفرّج الله عنّا وعنكم بوصولها ، فمن شبع في هذه الأيام فما واسى المسلمين ، ومن نام ملء عينه فما هو من إخوة المؤمنين . والمملوك شفيق على البُطّس ، فنسأل الله سبحانه أنْ لايكلنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى النّاس فنضيع ، ومجهود أهل الأرض قد انتهى ، وبقي مايفعله الله والخير مُنتَظَر منه سبحانه) .

ومن آخر (٣) : (ولو لم ير الله تعالى أنّ قوّة المولى أكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العُرى ، لما أهّلَهُ لأن ينصر ملّةً لايعرف المملوك غيرَ الله ينصرها، وغير مولانا يباشر النّصرة ويحضرها، فليس إلاّ التّجرّد للدّعاء ، والتّجلّد للقضاء ، فلا بدّ من قدَر مفعول ، ودعاء مقبول ، ومن الأمثال المنظومة :

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٦ (منا الحناجر) .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٦ (طرقنا) .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٦٧ .

نحن الّذين إذا علَوا لـم يبطـروا

يـوم الهياج وإن علُوا لم يضجروا / (١١٤/و)

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثمّ يُغلقها ، وأن يُسلّم على يدينا القدس ثمّ يُنصّره ، ثمّ معاذ الله أن نُغلب على النّصر ، ثمّ معاذ الله أن نُغلب على الصّبر ، وإذا كان مايُقدّم الله إليه المماليك قبل المولى لابدّ منه وهو لقاء الله ، فلأن نلقاه والحجّة لنا ، خير من أن نلقاه والحجّة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهره صبره . وتملأ صدره ، (فلا تهنوا)(١) وتدعوا إلى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم)(٢) وهذا دين (٣) ماغَلب بكثرة . ولا نُصر بثروة . وإنمـا اختار الله تعـالى له أرباب نيّـات وذوي قلوب معه وحالات . فليكن المولى نعم الخلف لذلك السّلف ، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)(٤) (واشتدّي أزمةٌ تنفرجي) والغمرات تذهب ثمّ لاتجيء ، والله تعـالى يُسمع الأُذن مايسرُ القلب . ويصرف عـن الإسلام وأهله غاشية هـذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم ، فإنّه ماابتلى إلاّ بذنب) .

ومن آخر (٥) : (يامولانا اعلم أنّ الله تعالى قد فعل مافعله لنفسه ، ودلّ على لطفه بك كما دلّ على قدرته ، فإنّه تعالى خلق الخلق من غير مادّة ، وأقام السّماء من غير عمد . وكذلك فعل الله بك ، خلقك بغير شبيه في الملوك كرماً وديناً ، وسهّلَ لك

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٧ (تهونوا) .

(٢) سورة محمد – آية ٣٥ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٧ (وهذا على) .

(٤) سورة الأحزاب – الآية ٢١ .

(٥) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٦٧ – ١٦٨ .

من مصر مالاً من غير جهة ، وحمّى منها بلاداً بغير جند ، وأسكن لك فيها رعيّة بغير ولاة ، فاشكر اللهَ ولا تحتقر خدمة من يبيع الأنفاس والنّوم والرّاحة اجتهاداً فيما يريحك ، ويخفّف عنك ، ثمّ لايريد العوض منك ، إنمّا يريده من الله عنك ، لأنّ خدمتك طاعة له ، يامولانا : ليس لك في مصر إلاّ الثغّور ، وما عملت في هذه السّنة إلاّ بقدر ثمن حبالٍ ماسُيّر إليك من الأساطيل ، إنّ الله آخذ بيد الكريم والمعونة بحسب المؤونة ، فليهن المولى العافية ، فشتّان (ماحساب) (١) من كنز الذّهب والفضّة ولم ينفقها في سبيل الله ، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله بالسّواء) .

ومن كتاب آخر : (وعسكرنا لانشكو منه والحمد لله خوراً ، وإنمّا نشكوا منه ضجراً . والقوى البشرية ، لابدّ أن يكون لها حد ، (١١٤/ظ) والأقدار الإلهيّة لها قصد ، وكلّ ذي/ قصدٍ خادم قصدها ، وواقف عند حدّها ، وإنمّا ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعسين من رجاله ، كما يُثبت فيه [شكر المشارع من](٢) أبطاله ، قال الله تعالى : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)(٣) .

[يامولانا](٤) : أليس الله تعالى اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يُؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يسـهل ولم يستعمل ولم يستنجد

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٧ (من الحساب) .

(٢) مابين قوسين في الأصل ١١٥/و غير واضحه والإضافة عن نسخة المغرب .

(٣) سورة آل عمران – الآية ١٥٩ .

(٤) مابين قوسين في الأصل ١١٥ / و غير واضحة والإضافه عن نسخه المغرب .

في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره حفظ قبلة موحّدية إلاّ أنت ، هذا وفي الأرض من للنّبوّة قرابة ، ومن له المملكة وراثة . ومن له في المال كثرة ، ومن له في العدد ثروة ، فأقعدهم وأقامك . وكسّلهم ونشّطك . وقبضهم وبسطك ، وحبّب إليهم الدّنيا وبغّضها إليك ، وصعّبها عليهم وهوّنها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك ، (وثبّطهم وسيّرك . وأشقاهم وأنعم عليك) (١) ، «ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة . ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم . وقيل اقعدوا مع القاعدين » ، نعم وأخرى أهمّ من الأولى ، أنّه لمّا اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدّنيا ، ومغرب الشّمس ، ومزخر البحر ، ماتأخّر منهم متأخّر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لأموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم ، مهطعين (٢) إلى الدّاعي ، ساعين في أثر السّاعي من كلّ حدب ينسلون ، ومن كلّ برّ وبحر يُقبلون ، كنتَ يامولانا كما قيل أبقاك الله :

ولستَ بملك هازم لنظيره
ولكنّك الإسلام للشّرك هازمُ

هذا وليس لك من المسلمين كافّة مساعد إلاّ بدعوة ، ولا مجاهد معك

---

(١) مابين القوسين في الروضتين ج ٢ ص ١٦٨ (بتقديم وتأخير) .

(٢) مهطعين (في لسان العرب) مقنعي رؤوسهم ؛ وقيل : المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع .

إلاّ بلسانه. ولا خارج معك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يديك إلاّ بأجرة، ولا قانع منك إلاّ بزيادة. تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنمّا تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة، وكأنّك تكلفهم النّافلة؛ وتعرض / عليهم الجنّة، وكأنّك (١١٥/و) تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوّع (بمجلسك. فقائل)(١): لم لاتتباعد عن المنزلة؟ وآخر: لم لانميل إلى المصالحة؟ ومتندّم على فائت مافيه فائدة. ومشير بمستقبل مايلوح فيه رشد. ومشير بالتخلّي عن عكا. حتى كأنّ تركها تعليق المعاملة. وما كأنّها طليعة الجيش. ولا قفل الدّار. ولا خرزة السّلك، إن وهت تداعى السلك. وانبتّ في يد الملك. فألهمك الله قتل الكافر. وخلاف المخذل. والتّجلّد وتحت قدمك الجمر. وأفرشك الطّمأنينة. وتحت جنبك الوعر.

ولكنّ مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنوّر
قليل التشكّي للمهمّ يصيبه
كثير الهوى شتّى النوى والمسالك

لاشبهة أنّ المملوك قد أطال. ولكن قد اتّسع المجال، وما مراده إلاّ أن يشكر الله على مااختاره له، ويسّره عليه، وحبّبه إليه. فربّ ممتحن بنعمة، وربّ منعمٍ عليه بمشقّة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه. ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغيّر لمولانا – أبقاه الله – وجه عن بشاشة. ولا صدرٌ

---

(١) في الأصل ١١٥ / ظ مهروزة والإضافة عن نسخة المغرب.

عن سعة . ولا لسان عن حسنة . ولا تُرى منه ضجرة . ولا يُسمع منه نُهرة . فالشّدّة تذهب ويبقى ذكرها . والأزمـــة تنفرج ويبقى أجرها ، وكما لم يُحدث استمرار النِّعَم لمولانا - عزّ نصره - بطراً . فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً . والمملوك يستحسن بيتي حاتمٍ ، ومولانا أبقاه الله . وخلد سلطانه وملكه بحفظها :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى
وما منهما إلاّ سقانا به الدّهـــرَ

فما زادنا بغياً على ذي قرابـــةٍ
غنانا ولا أزرى (١) بأحسابنا الفقر

والمملوك بأن يسمع أنّ مولانا - عزّ نصره - على مايعهده من سعة صدره ، أسرّ منه بما يسمعه من بشائر نصره) .

ومن كُتب أخر مفرّقة(٢) : (المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى وروحه، ولا يُحمله مايشغله ويثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين ، وقلوب المسلمين جسم مولانا - أبقاه الله - فبحسب المولى من جهادهِ تفقد/ جسمه وآلات مطعمه . وترويح خطراته . (١١٥/ظ)
فقد بلغ المملوك من حمله على نفسه مايخشى على مولانا الإثم فيه . وإنمّا يتجشّم كلّ مشقّة لِنسلم منه ، ونحن في ضرٍ قد مسّنا ، ولا نرجو لكشفه إلاّ من ابتلي به وفي طوفان فتنه ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ، ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا ، فنحن

---

(١) ز ر ى(في لسان العرب) عابه وعاتبه .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ .

أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَر لاسلاح لنا في دفعه ، إلاّ أن نقول : لاحول ولاقوّة إلاّ بالله . وقد أشرفنا على أهوال ، (قل الله ينجيكم منها ومن كلّ كرب) (١) وقد جمع العدوّ لنا ، وقيل لنا اخشوه ، فقلنا : (حسبنا الله ونعم الوكيل) (٢) ، منتجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلاّ ذلك الفضل العظيم وليس إلاّ الاستعانة بالله ، فما دلّنا الله في الشّدائد إلاّ على الدّعاء له وعلى طروق باب كرمه وعلى التضرّع إليه ، (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم)(٣) ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرّحمة . ومن اليأس من الفرج . فإنّه لاييأس منه إلاّ مسلوب الرّشد ، مطرود عن الله ، مقطوع الحظّ منه ولا حيلة إلاّ بترك الحيلة بل وبقصد من تمضي أقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى ، إن علم الله سبحانه من جند مولانا أنّهم قد بذلوا المجهود فقد عذرتهم فيعذرهم مولانا . وإن علم أنّهم قد ادّخروا قوّة أوقصّروا في نصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله ، والمملوك يذكّر بصبره، وبرحب صدره ، وبفضل خلقه ، وبتقوّله لربّه ، وبمداراة مزاجه ببرّ القلوب الإسلامية ببر جسمه ، (وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السّماء فتأتيهم بآية ولوشاء الله لجمعهم على الهُدى)(٤) المولى أولى بهذا البيت :

لا بطرٌ إنْ تتابعت نِعَمٌ   وصابرٌ في البلاء محتسبُ

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٤٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٣٥ .

قيل للمهلّب (١) : أيسرّك ظفر ليس فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز . ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه لاراد لحكمه فلا يتسخّط مولانا بشيء من قدره ، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور . خير من أن يجري وهو ساخط موزور (٢) : فيصطلي / (١١٦/و) ناراً لشدّة . أعاذه الله منها . ولايجد راحة الثواب . وفرّ الله حظّه منه ، من شكى بثّه وحزنه إلى الله شكى إلى مشتكى . واستغاث بقادر . ومن دعا ربّه خفياً ، استجاب له استجابة ظاهرةً . فيكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنّا . ولا يقطع الظهور الّتي لاتشتدّ إلاّ به . ولا يضيق صدوراً لاتنفرج إلاّ منه . قد علم مولانا أنه لايدبّر الدهر إلاّ برب الدهر . ولا يُنَفّذ الأمراء إلاّ بصاحب الأمر . وأنّه لايقلّ الهمّ إذ أكثر الفكر .

قد قلت للرّجل المقسّم أمرَهُ فوِّض إليه تنم قرير العين

يامولانا : هذه اللّيالي الّتي رابطتَ فيها والنّاس كارهون . وسهرتَ فيها والعيون هاجعة . وهذه الأيام الّتي (تُنادي)(٣) فيها . ياخيل الله اركبي . وهذه السّاعات الّتي تزرع الشيب في الرؤوس . وهذه الغمرات الّتي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها ، هي نعمة الله عليك وغراسك في الجنّة ومحمّلات محضرك (يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خير مُحْضَراً)(٤) . وهي مجوّزاتك على الصراط ،

---

(١) ربما قصد المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٢ هـ) انظر الطبري ج٦ ص ٣٠٤.

(٢) موزور (في لسان العرب) عبر مأجور .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ (ينادي) .

(٤) سورة آل عمران الآية ٣٥٠ .

وهي مثقلات الميزان . وهي درجات الرضوان . فاشكر الله عليها . كما تشكره على الفتوحات الجليلة (وما استعمل الله في القيام بالحقّ إلاّ خير الخلق، وما تغلو الجنّة بثمن . وما ابتلى الله سبحانه من عباده ، إلاّ من يعلم أنّه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً ، وكأنّ ماقد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنّما يقظات العين كالحُلْم ، واعلم أنّ مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين باليت أيّهما ركبت ، وبهذه العزائم سبقونا ، وتركونا لانطمع (١) بالغبار . وامتدّت خطاهم ونعوذ بالله من العثار)(٢) أهمّ الوصايا : أن لايحمل المولى همّاً يضعف به جسمه ، ويضرّ مزاجه . والأمة بنيان . وهو أبقاه الله قاعدته ، والله يثّبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحقّ ، وما يستحسن من وصايا الفرس : إن نزل بك مافيه حيلة . فلا تعجز ، وإن نزل بك ماليس (٣) فيه حيلة والعياذ بالله . فلا تجزع . (وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله) / (٤) . (١١٦/ظ)

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتاباً وهو على عكا . يخبره مالاح له من أمارات النصر ، ويقول له (٥) : ماأخاف إلاّ من ذنوبنا ، أن يأخذ الله بها . فكتب إليه الفاضل من جملة كتاب : (فأمّا قول المولى : إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا ، فالذنوب كانت

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ (في اللحاف بالغبار) .

(٢) مابين القوسين تقديم وتأخير في الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ (مالبس لك فيه) .

(٤) سورة الإنسان – آية ٣٠ ، سورة التكوير – الآية ٢٩ .

(٥) انظر . الروضتين ج ٢ ص ١٦٩ – ١٧٠ .

مثبتة قبل هذا المقام . وفيه مُحِيَت . والآثام كانت مكتوبة ، ثمّ عُفي عنها بهذه الساعات وعفّيت . فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في الجهاد . ويكفي قارعـاً لأبواب الجنّة صوت مقارعةِ الأضداد ؛ ولعين الله موقفك وفي سبيل الله مُقامك ومُنصرفك . وطوبى لقدم سعت في منهاجاك . وطوبى لوجه تلثّم بمُثار عجـاجك . وطوبى لنفس بين يديك قُبلت وقُتلت . وإن الخواطر تشكر الله فيك عن شكرها لك قد شُغلت) .

ومن كتاب آخر إليه أيضاً (١) :

(نبرّم مولانا بكثرة المطالبات منه . فلا أخلى الله المولى من القدرة عليها . وهنيئاً له آنّ الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم يطالبه بحسن الخلافة في أمّته ، والسلف الصالح من هذه الأمّة يطالبونه بمباشرة مالو حضروه . لما زادوا على مايفعله المولى . وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتّهم من الذهب . والفضّة . والحديد . وبقيّة الأ مّة تطالبه بالأمن في سربهم ،والاستقامة في كسبهم . والخفارة في سُبُلهم ،ونفسهُ الكريمة تطالبه بالجنّة – بلغه الله إليها –. ولمعالي الأمور – أعانه الله عليها – وإذا عُدِّد مايُرادُ منه فلا بدّ أن يُعدّد مايُسرّ عليه . فهل عدم من الله تعالى قطّ نصرَهُ ؟ فهل استمرّت به قطّ عُسره ؟ فهل تمّت لعدوّ قطّ عليه كرّة ؟ هل بات قطّ إلاّ راجياً ؟ هل أصبح إلاّ راضياً ؟ ألا يعلم أنّ الله تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفوءاً له غيره ؟ ألا يُحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عمّا سبق إليه المولى من الآخرة ؟ هذا سلطان

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

هو بحول الله أوثق منه بسلطانه ، قاتلت الملوك بطمعها ، وقاتل هو بإيمانه . هل تعرف راية يقاتل تحتها في سبيل الله إلا رايته ؟ هل يعرف مال ينفق في سبيل الله إلا ماله ؟ هل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله / يتلى ، وسنة رسول الله صلى الله (١١٧/و) عليه وسلم تقرأ ؟ أو يسرى به إلا الخيل تعرض ، والسلاح يقلب ؟ لاأقداح الشاربين . ولا أصوات المغنين . ولا وقائع الكذابين . ولا سعايات النمامين . فلا أعدم الله الخلق واحداً به استقام جميعهم ، ومالكاً قام يرعاهم فأقعد ما يروعهم وشفيقاً يقيهم بنفسه وبولده وبإخوته . ويتقدم إلى الأهوال أمام مماليكه وأمرائه وعسكره ،وجملته : كأنه منهم مكان بسم الله من الكتاب ، ومكان الإمام من المحراب ، ومكان النواصي من وجوه الصواهل ، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل . خير مايكون إذا لم تظن نفس بنفس خيراً ، وأغبر مايكون على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى) .

ولما (١) اشتد أمر الفرنج على عكا ، أرسل السلطان كتاباً إلى الأمير شمس الدين عبد الرحمن بن منقذ يأمره بالمسير إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن(٢) . وكان أيضاً غازياً عادلاً ،

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ . نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٤ — ٤٤٥ .

(٢) تسلم الخلافة بعد والده سنة (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ — ١١٩٩م) وتنبع شهرة المنصور الموحدي من الأعمال العسكرية التي أنجزها وخاصة في الأندلس ، وبلغ في عهده الجيش والأسطول الموحدي درجة كبيرة من القوة مما دفع صلاح الدين إلى الاستنجاد بأسطوله لايقاف النجدات الأوربية إلى الصليبيين عن طريق البحر . انظر نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٣٩ وج ١٣ ص ١٩ ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤ .

يستنصر به عليهم ، أو يقطع عنه مادّتهم من جهة البحر . وكتب على يده كتاباً بالإنشاء الفاضلي عنوانه (١) :

(بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ، ومستقرّ حزب الله الظاهر من المغرب ، أعلى الله به كلمة الإيمان ورفع به منار البر والإحسان . وأوّله بعد البسملة : الفقير إلى رحمة ربّه يوسف بن أيوب ، أمّا بعد . فالحمد لله الماضي المشيئة ، المحصي القضيّة ، البرّ بالبريّة ، الحفيّ بالحنفيّة ، الّذي استعمل عليها من استعمر به الأرض ، وأغنى من أهلها مَنْ سأله القرض ، وأجزل وأجرى أجْرَ مَنْ أجْرى على يده النافلة والفرض ، وزان سماء الملّة بذراري الذراري الّتي بعضها من بعض ، وصلّى الله على سيدّنا محمد ، الّذي أنزل عليه كتاباً فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الإسلام بأمّته الّتي شبّهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الّذين اصطفاهم ، وطهرّهم ، ونصروه ، وظاهروا رسوله صلّى الله عليه وسلّم ، فنصرهم ، وأظهرهم ، ويسّر بهم السبيل ، ثمّ السبيل يسّرهم ، وأنّ الله بهم لذو فضلٍ على الناس ، ولكنّ أكثر النّاس لايشكرون (ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) (٢) الآية ، وهذه التحيّة الطيّبة / الكريمة ، (١١٧/ظ) الصيّبة الواجبة الردّ ، الموجبة القصد ، العذبة الورد ، المتنفّسة عن العنبر والوَرد ، وقادةً على دار المُلك ومدار النسك ، وجُل الجلالة ، وأصل الأصالة ، ورأس الرئاسة ، ونفس النفاسة ، وحَكَمُ الُحكمِ ، وعَلَمُ العِلم ، وقائم الدين وقيّمه ، ومقدّم الإسلام ومقدّمه ،

---

(١) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٤ .

(٢) سورة الحشر الآية ١٠ .

ومقتضى دَين الدين . ومثبّت المؤمنين على اليقين ، ومعلي الموحّدين على الملحدين ، أدام الله له النّصرة . وجهّز به (١) العسرة ، وردّ له الكرّة . وبسط له باع القدرة . وأوثق به حبل الألفة . ومهّد له درجات الغرفة ، وعرّفه في كلٍّ مايعتزمه صنعاً جميلاً جزيلاً ، ولطفاً خفياً جليلاً ، ويسّر عليه في سبيله كلّ ماهو أشدّ وطأً وأقوم قيلا ، تحيّة استُنير منها الكتاب . واستُثيب عنها الجواب . وحفز لها حافزان : أحدهما شوق قديم ، كان مطل غريمه متمكّناً إلى أن تيسرت الأسباب ، والآخر : مرام عظيم ذكرهُ إذا استُفْتحت به الأبواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناء . بفتح البيت المقدّس ، وسكون الإسلام منه إلى المقيل والمغرس ، وما فتح الله للإسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وما أنزل عليهم من النور . ولم يخل المسلسون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنوار ذلك البدر ومطالعات تلك الجهة التي هي وإن كانت غربيّة ، فإنّ الغرب مستودع الأنوار . وكنز دينار الشمس ومصبّ أنهار النّهار ، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروَح الأسرار . وعنه يقلّب الله اللّيل والنهار (إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار)(٢) . ولم تتأخّر المكاتبة إلاّ ليُتّم الله مابدأ من فضله ، وليفتح بقيّة مالم ينقطع بتقطّع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام ، مدن وأمصار ، وبلاد كبسار وصغار ، وثغور وقلاع ، كانت للشّرك معاقل ، وللإسلام معاقر ، ولبني الكفر مصانع ، ولبني الإسلام مصارع . والباقي بيد الكفر منها ثغر أطرابلس . وصور ، وانطاكية ، يسّر الله

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٧١ (تيسير العسرة) .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .

أمرها . وفكّ من يد الكفّار أسرها ، وإذا أمّن المؤمن على هذه الدعوة رُجي إيجابها ، وما يتأخّر من الله سبحانه جوابُها : فالدعاء أحد السلاحين / ، ومع النيّة يطير إلى وكره من السماء بجناحَين . (١١٨/و)
بعد أن كُسر العدوّ الكسرة التي لم يُجبرَ بعدها ، وألجىء إلى حصونه التي للحصر أعدّها ، وكان يومها كريماً . ولُطْفُ الله فيها عظيماً . قضَتْ كلّ حاجة في النفس . وأغنت المسلمين . فأمّا العدوّ بعد يومها . فكأنْ لم يغن بالأمس . وكانت على أثر غزوات بعدها . فما الظنّ بالمجْهِزة بعد النكس . ولم يُؤخّر فتح البلاد بعدها إلاّ أن فرغ الكفّار بالشام ، استصرخ بأصل الكفّار من الغرب . فأجابوهم رجالاً وفرساناً ، وشيباً وشُبّاناً ، وزَرافات ووُحداناً ، وبراً وبحراً . ومركباً وظهراً، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً ، وبذلوا ماعوناً وذخراً ، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم . ولا أرساناً (١) تقتادهم ، بل خرج كلٌّ يلبّي دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة مَلكه ، وخرجت لهم عدّة ملوك . أقفلت العُجمة على أسمائها ، وأتت العزمة بحمد الله على أشخاصها عند لقائها . ومنهم ملك الألمان،خرج في جموع بريّة: من الله بريّة ملأت الفجاج وازدحمت ، فما نفذها العجاج (٢) . ومنهم من ركب ثبج (٣) البحر . فركب الأجاج (٤) العجاج .

---

(١) رسن (في لسان العرب) الرسن : الحبل . والرسن : ماكان من الأزمة على الأنف والجمع أرسان وأرسن .

(٢) العجاج (في لسان العرب) الغبار ، وقيل : هو من الغبارماثورته الريح، واحدته عجاجة .

(٣) ثبج (في لسان العرب) كل شيء : معظمه ووسطه وأعلاه ، والجمع أثباج وثبوج .

(٤) الأجاج (في لسان العرب) شدة الحر ، وماء أجاج أي ملح ،وقيل . مر ، وقيل : شديد المرارة .

وامتطى من البحر (شبه)(١) الرّجاج (٢) ، لينصر ديناً مشبه الزجاج ، يتقبّلُ الكسر ، ولا يُسرع إليه الجبر ؛ وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة ، وإلى قاع كفر ، وجلّب الكُفار إلى المحصورين بالشام كلّ مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغرَيهم من كلّ مطلوب ، مابين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة ، وشكة وشيكة وجنة وحديد مضروب وزبرة ، ونقد من ذهب وفضّة ، إلى أن شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة وذخائر العاجلة من حربهم وللآجلة ، لاتشرق شارقة إلاّ طلعت على العدوّ من البحر طالعة ، تُعوّض من الرجال مَنْ قُتل ، تخلف من الزاد ماأكل ، فهم كلّ يوم في حصول وزيادة ووفور مادّة ، وقد هان عليهم موقع الحصر وأعطاهم البحر مامنعهم البرّ ، وبطروا لمّا كثروا ، ونظروا في أنّهم لايستطيعون (أن يلقوا)(٣) ، ويُصحروا ويستطيعون أن يَحصروا على أن ينحصروا ، ونزلوا على عكّا بحيث يمدّهم البحر بأمداده ، ويصلُ إلى المقاتل مايَحتاجه من أسلحته
(١١٨/ظ) وأزواده . ومن يكثر به من مقاتلته وأجناده / فانقطعت مادّة عكّا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدوّ من جهة جانب البرّ . فخندقوا على نفوسهم ، وحثّوا التراب مصارع على رؤوسهم ، وعقدت عدّتهم مائة ألف أو يزيدون ، وكلّما أفناهم القتل ، أخلفتهم النجدة فكأنّهم قبل الممات يعودون ، فاهتممنا بعمارةٍ بحريّة لتبينا عمارتهم بها ، فنفذت عمارتنا إلى الثغر ، وأوصلت إليه الأقوات الّتي حمل منها

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٧٢ (شبة) .

(٢) الرجاج (في لسان العرب) بالفتح : المهازيل من الناس والإبل والغنم ، ضعفاء لا عقول لهم ، والرجرجة : الإضطراب .

(٣) مابين قوسين في الأصل ١١٨ / ظ مكرورة .

البحر مالاً يحماه الظهر . والأسلحة الّتي أمضاها الله عزّ وجلّ بيد الإسلام في صدور الكفر وما لقينا عمارة العدوّ بأوفر منها عدّة فعددُ مراكبهم كثير ، ولكن ماصدق منها عزمه والقليل مع العزم الصادق كثير . واستمرّ مقام العدوّ محاصراً للثّغر محصوراً منّا أشدّ الحصر ، لايستطيع قتال الثغر لأنّا من خلفه . ولايستطيع الخروج إلينا خوفاً من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول إليه ، لأنّه قد سوّر وخندق ، وحاجز من وراء الحجرات وأغلق . ولمّا خرج ملك الألمان (١) بحشده وسُمعته الّتي منها حشد ، وعاد جيشه الملعون على رسمٍ قديم إلى الشام ، فكان العود لأمّة أحمد صلّى الله عليه وسلّم أحمد ، قويت به نفوسهم ، وجمحت به رؤوسهم ، وظنّوا أنّه يزعجنا من مخيمنا ، ويخرجنا من مخيّمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشماليّة ، فسلك ذات الشمال متوعراً فيها محتجزاً عن لقاتها ، مُظهراً أنّه صريع داء وما به غير دائها ، وكان أبوه الطاغية ملك الألمان شبيه اللّعنِ اللّعين ، قائد جيشه إلى سجنِ سجّين ، قد هلك في طريقه غرقاً ، وخاضَ الماء فخاضه الماء شَرَقاً ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخّر ، وقائد الجمع المكسّر ، وربّما وصلهم إلى عكّا تهيّباً أن يسلك البرّ . ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً ، وسبق داء بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعاً ، ولكن لله المشيئة في البريّة ، والطاغية إنمّا يمشي إلى البليّة ، فإنّه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم

---

(١) هو : كونراد الثالث ملك ألمانيا ، شارك في الحملة الصليبية التي تسمى بالحملة الثانية . انظر الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٧ .

بالمضائق . لكان لنا ولهم شأن . وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول
الله ثانٍ لايثنيه من العدوّ ثان ، ولمّا كانت حضرة سلطان الإسلام .
(١١٩/و) وقائد المجاهدين / إلى دارِ السّلام أولى مَنْ تُوجه إليه الإسلام
بشكواه وبثّه ، واستعان بـه على حماية نسله وحرثه ، وكانت
مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّاء المحجّلة ، المؤمّرة المؤمّلة ،
المكاشفة لكلّ معضلة ، الكاشفة لكلّ مشكلة ، والأخبار بذلك
سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحُف عنه باسِمة ، والسيرَ به
معلمة وعالمة ، وكلٌّ بجهاده قد سكن إلاّ السيوف في أغمادها ،
وقد أمن إلاّ كلمة الكفر في بلادها ، لايزال في سبيل الله غادياً
ورائحاً ومواجهاً ومكافحاً وماسياً ومصابحاً . يجوز لجّة البحر
بالمجاهدين ملوكاً على الأسرَّة ، وغزاةً تصافح وجوهها السيوف ،
فلا يخمد نور الأسرَّة بذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سَبيلها لملأ
قراره كلّ واد . (وكلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله)(١) .
ولولاه لأخمدوا شرارة كلّ زناد كان المتوقّع مـن تلك الدّولة
العالية ، والعزمة الغادية ، مـع القدرة الوافية ، والهمّة المهديّة
الهادية ، أن يمدّ غربُ الإسلام المسلمين بأكثر ممّا أمدّ به غربُ
الكفّار الكافرين ، فيملأها عليهم جواري كالأعلام ، ومُدّنا في
اللّجج سواري كأنّها اللّيالي مقلعة بالأيام . تطلع علينا معشر الإسلام
آمالاً . وتطلع على الكفّار آجالاً ، وتَرِد نا إمّا جملةً وإمّا أرسالاً ،
مسوّمة تمدّها ملائكة مسوّمة ومعلمة ، تُقدّم حيازيمها أقدام حيزوم
تحت أصحابه الحزمة ، وإنمّا هي منه عزمة ، كانت تعين

---

(١) سورة المائدة – الآية ٦٤ .

أصحاب الميمنة . على أصحاب المشأمة . وكلمته كانت تنفح الرّوح في الكلمة ، ولمّا استبطئت ظُنّ أنّها توقّفت على الاستدعاء ، فصرخنا بها في هذه التحيّة . فقد تتحفّل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح ، وقد ينزل الله النّصرة . فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصّفاح ، ويسّر لحضور مجلسه الأطهر . ومحلّه الأنور ، الأمير الأجلّ المجاهد الأمين الأصيل شمس الدين ، ثقة الإسلام والمسلمين ، سفير الملوك والسلاطين . أبو الحزم عبد الرحمن ابن منقذ كتب الله سلامته ، وأحسن صحابته . وما اختير للوفادة إلاّ من هو من أهلها . ولا حَمل الوديعة إلا من هو محلّ محملها . ولا بعث لنهج الصلة/إلاّ من هو مفتاحها . ولأداء الأمانة (١١٩/ظ) إلاّ من هو فعلها ، ومهما استوصح منه وسُئل عنه : فإنّه على نفسه بصيرة ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العربيّة ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف . على أنّ تلك الجلالة [له] (١) ربّما ذعرت البيان فأخلف ، وما أجدره أن يصادف بسطةً على بساطه . ونظراً يأذن له في القول على اختصارِه وتوسّطهِ وإفراطهِ . فكلٌّ هو به وافٍ . وكلٌّ هو للفهم الكريمِ كافٍ . والله تعالى يجعل هذه العزمة منّا في استنهاض العزمة منه بالغة مبلغاً يسرُّ أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتّخذوا لها من دونه . والسلام الصادر عن القلب السليم ، والوُدّ الصميم . والعهد الكريم ، على حضرة الكرم العليّة ، وسُدّة السيادة الجليّة . سلام مودّةٍ ما وفد الغرب قبلها [مثلها] (٢) . ورسالة ماخطرت إلى أن بعثت وراءها المحبّةُ

(١) الإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) الإضافة عن نسخة المغرب .

رسلها ، وليصل السلام ، رحمة الله وبركاته ورضوانه وتحيّاته ، وكتب في شعبان ، سنة ست وثمانين وخمسمائة .

والهديّة المجهّزة صحبته ، ختمة كريمة في ربعة مخيّشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد ستمائة حبّة ، عود عشرة آمنان ، دهن بلسان مائة درهم ، قسي بأوتارها مائة واثنان ، سروج عشرون ، نصول سيوف هنديّة عشرون ، نشاب ناسج خاصّ مريّش كبير ومتوسّط ضمن صندوق سبعمائة سهم) .

وكان (١) اجتماعه بيعقوب المرسـل إليه ، ودخوله عليه بمرّاكش في العشرين من ذي الحجة ، وكان انفصاله عنه في عاشر المحرّم سنة ثمان وثمانين ، ووصل إلى الإسكندرية الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين ، ولم يحصل المطلوب بهذه الرّسالة ، لأنّ يعقوبَ هذا عزّ عليه كونه لم يُخاطَب بأمير المؤمنين ، وكان القاضي الفاضل كارهاً لهذه الرّسالة .

وقد ذكر المصنّف له رسائل في كتابه الكبير تدلّ على كراهيته (٢) لذلك .

وفي (٣) حادي عشر شوّال ، خرج الفرنج بعزم اللّقاء ،

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ١٧٣ أنه وصل في السابع ذي الحجة واستقبله الوزير أبو يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص وسلمه الكتاب وفي العشرين من ذي الحجه أدخله على يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن.

(٢) انظر رسائل القاضي الفاضل الدالة على كراهيته لذلك في الروضتين ج٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) انظر الفتح القسي ٢١٩ — ٢٣٢ ، الكامل ج ١٢ ص ٥٣ — ٥٦ ، النوادر السلطانية ١٠٧ — ١١٥ ، الروضتين ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٢ .

ووصلوا إلى رأس الماء (١) . ثمّ رجعوا إلى منزلتهم ، ولم ينجحوا بحملتهم ، وناوشهم المسلمون . وتعرّضوا لهم ، فلم يحملوا . وطلبوا مقاتليهم فلم يفعلوا ، لأنّهم عاينوا كثرة المسلمين وقوّتهم ، واهتمامهم بالغزاة وشدّتهم ، وكان الحامل لهم على هذه الحركة أنّه بلغهم / تغيّر مزاج السلطان بالمرض ، منضمّاً إلى كثرتهم (١٢٠/و) وشدّة الغلاء والجدب عليهم .

قال القاضي (٢) : ولمّا رجع العدوّ إلى خيمته ، كانت له أطلاب مستريحة ، فخرجت على يزك المسلمين ، وانتشب القتال . فقُتل من العدوّ وجُرح خلق كثير . ولم يقدر السلطان رحمه الله على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكي في حالة الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطة القوم ؟ ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر . ومخالطة (٣) الحرب . ولقد سمعت منه . وقائل (٤) يقول : إنّ الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أنّ الموت قد كثر في الطائفتين ، فأنشد متمثّلاً :

اقتلاني ومالكاً   واقتلا مالكاً معي

يريد بذلك أنني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله ؛ وحدث بذلك قوّة عظيمة في نفوس العساكر الإسلامية .

---

(١) في مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير إلى البحر ، وهذه العين هي مافصد هنا برأس الماء . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) الروضتين ج ٢ ص ١٨٠ بتصرف في اللفظ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ١٨٠ (ومخاطبة) .

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ١٨٠ (وقائلا يقول) .

وفي الثامن والعشرين من شوّال ، انتخب السلطان طائفة من أجناده ، وأمرهم أن يكمنوا تحت تلّ شمالي عكّا ، بعيد من عسكر العدوّ ، ففعلوا ، ولمّا أصبحوا ركب منهم عدّة يسيرة ، وساروا نحو الفرنج ، فخرج إليهم مائتا فارس أو أكثر ، وطمعوا فيهم لقلّتهم ، فتأخّر المسلمون قدّامهم قليلاً قليلاً حتّى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الأسر منهم مقدّمون وأكابر .

قال القاضي (١) : واشتغل السلطان لمّا هجم الشتاء وهاج البحر بإدخال البدل إلى عكّا ، وحمل الميرَ والذّخائر ، وإخراج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التّعب والسّهر ، وملازمة القتال ليلاً ونهاراً ، وكان مقدّم البدل الدّاخل من الأمراء سيف الدين المشطوب (٢) ، دخل في سادس عشر المحرّم سنة سبع [وثمانين وخمسمائة](٣) وفي ذلك اليوم خرج المقدّم الّذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء (٤) وأصحابه ، ومن كان

---

(١) انظر النوادر السلطانية ١٠٧ — ١١٥ ، الروضتين ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ بتصرف في اللفظ .

(٢) هو الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري ، المعروف بالمشطوب ، توفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٥٨٨ هـ بنابلس . انظر . الفتح القسي ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، النوادر السلطانية ص ٢٤٧ ، والأصل (١٣١ / ظ) ص ٣٩٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٢ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٣) مابين القوسين الإضافة من قبلنا لا ستقامة المعنى .

(٤) هو : الأمير أبو الهيجاء السمين الكردي ، كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، وبعد عزله عن القدس ذهب إلى بغداد حيث أرسل على رأس جيش إلى همذان وتوفي بها سنة ٥٩٣ هـ . انظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥ .

بها من الأمراء . ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء وأعيان من الخلق . وتقدّم إلى كل من دخل أن يستصحب معه ميرة سنة كاملة . وانتقل العادل بعسكره إلى حيفا إلى شاطيء النهر . وهو الموضع الّذي تحمل منه المراكب وتدخل إلى البلد . وإذا خرجت تخرج إليه . فأقام ثمّ بحثّ الناس على الدخول . ويحرس الميرَ والذّخائر لئلاّ يتطرّق اليها من العدوّ من يتعرّضها . وكان ممّا دخل إليها (١٢٠/ظ) سبعُ بُطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات . وكانت وصلت من مصر ، وكان دخولها يوم الإثنين ثاني ذي الحجة ، وانكسر منها مركب على الصّخر الذي هو قريب الميناء . فانقلب كلّ من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر ليلقى البطس وأخذ مافيها . ولمّا علم العدوّ انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر ، اجتمعوا في خلق عظيم . وزحفوا على البلد من جانبِ البرّ زحفه عظيمة . وقاربوا الأسوار وصعدوا في سُلّم واحد . فاندقّ منهم سُلّم كما شاء الله . وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . وعادوا خائبين خاسرين ، وأمّا البُطس : فإنّ البحر هاج هيجاناً عظيماً ، وضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ماكان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، وكان فيها ميرة عظيمة لوسلمت لكفتِ البلد سنة كاملة . ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وكان ذلك أوّل علائم أخذ البلد .

قال العماد : ودخل إلى عكا من لم يجرّب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارّها ، وما ثبت ممّن كان مقيماً بها إلاّ الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون أميراً ومقدّماً شبه المكرهين عوضَ ستين ، وتفاوت الدّاخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر ، ثمّ قال : وفي سابع ذي الحجّة وقعت قطعة عظيمة من سور

عكّا . فانثلم الثّغر ، وبادر الفرنج إليها . فجاء أهل البلد وسدّوا المكان بصدورهم ، وقاتلوا عنه إلى أن بنوه . وهلك ابن ملك الألمان لعنهما الله . ووقع في الفرنج مَوتان بحيث كان يموت منهم كلّ يوم المائة والمائتان ، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سَرِيّة . وأساطيل مُرضيّة . قال : وكان استأمن من الفرنج خلق عظيم . أخرجهم الجوع إلينا . وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر في براكس(١) . ونكسب من العدوّ . ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين . فأذن لهم في ذلك . وأعطاهم بركوساً ، وهو المركب الصغير ، ففعلوا ماذكروا . وأعطاهم السلطان جميع ماغنموا . ومن غريب ماتمّ لهم أنّهم نزلوا ناحية من جزيرة قبرص . وقد اجتمع جمع كثير في بيعة قريبة من البحر . وصلّوا معهم صلاة العيد ، فلمّا
(١٢١/و) فرغوا ، ضربوا على كلّ من كان / في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتّى القسيسين ، وحملوهم إلى مراكبهم ، وساروا بهم إلى اللّاذقيّة ، وكانوا أغلقوا باب الكنيسة عليهم ، ليأمنوا إفلاتهم ، فأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة واقتسموه ، قال : واستشهد في عكا سبعة من الأمراء . والتقت شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر . فأحرقت شواني الكفر برجالها . وتأخّر للمسلمين شيني أحاطت به مراكب العدوّ ، فتواقع ملاّحوه إلى الماء وأسلموه للبلاء . فقاتل مقدّمه وصابر . فعرضوا عليه الأمان ، فقال: ماأضع يدي إلاّ في يد مقدّمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير . فجاء إليه المقدّم الكبير وظنّ أنّه قد حصل له الأسير .

---

(١) براكس جمع بركوس : وهو المركب الصغير (انظر الأصل ١٢١ / و) ص ٣٧١ .

فعاقره ، وعانقه وقوي عليه وما فارقه ، ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام ، واتّفقا ، وعلى طريق الجنّة والنّار افترقا .

واستقل (١) السلطان بالعافية الكاملة من المرض الّذي كان حصل له في هذه السنة ، وكتب إليه القاضي الفاضل ، لمّا ورد عليه كتاب السلطان ، يعلمه بعافيته : (أسفرت بشارته عن أنّ المولى أتاه الفرج وغذا الفروج . واستقلّ بحمد الله وصحّ ، وقالت العافية للمرض تنحّ ، وكان مافي كتابيّة الأوّليّن من تعريق النون من الحمد لله ربّ العالمين فيــه أثر ضعف . ينتقده صيارفة الخطوط ، فأمّا هذا الكتاب المبارك ، فقد صحّت فيه التعريقة ، وقويت اليد ، وطلعت النون أهمّ إلينا مــن مطلع الهلال الفطري الّذي شبّهه الشعراء بالنّون ، ومنهم من قال :

ولاحَ هلال مثل نون أجادها

بذوب النضارِ الكاتبُ ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الّذي ماأوجبه للمملوك إلاّ مسرّته بعافية المولى ، أدامها الله وأدام المسرّة بهــا له وللخلق ، فما يشبهها المملوك إلاّ بنور الشمس الّذي له في كلّ مكان أثر ، ولكلّ عين به نظر ، فلا أخلى الله الدنيا من آثاره . والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الإسلام عافيته به من المرض الّذي هو العدوّ ، فيجمع الله تعالى للمولى والخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنّعمتين . فقد جلى الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وما صقله إلاّ لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومــن فوائد هذا المرض أنّ (١٢١/ظ)

---

(١) انظر . الروضتين ج ٢ ص ١٧٦ .

المولى يستأنف العمر جديداً والعزم جديداً ، ويستقبل التّدبير بنشاط قد حضر ، وأعضاء قد فارقها ماكان سبب الضجَر) .

ثمّ (١) وصل القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر السلطان في ذي الحجّة من هذه السنة .

قال العماد : فرجع الفضل ، واجتمع الشّمل ، واستأنس الملك بصاحب تدبيره ، وتأسّس ركنه برأي مُشيره .

وكتب الفاضل عن السلطان إلى أخيه العادل وهو بمصر ، في أواخر هذه السنة أو في أوّل الّتي قبلها (٢) : (انتهى إلينا أنّ بالديار المصرّية ، وبالحضرة العليّة ، (٣) جماعة من الفقهاء ، قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف ، وأنشأوا من العصبيّة ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ماأماته الله من أهل حميّة الجاهليّة . والله سبحانه يقول : — وكفى بقوله حجّة على من كان سميعاً مطيعاً — : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) (٤) ولم يزل التّعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها ، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف ، فكيف بأهل الوفاق ؟ إلاّ أن يُقال أحسنها ، وما علمنا أنّ في ذلك نيّة تنجد ، ولا مصلحة توجد ، ولا هداية تُعتقد ، بل رأس فتنة تُعتمد ، ونار عداوة تُوقد ، فالمجلس ، أعزّه الله ، يوعز بكّف

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ١٨٢ بتصرف في اللفظ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) في نسخة المغرب : « أن جماعة »

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

الألسنة الخائضة . وعقل الأعنّة الرّاكضة . فإن أقنع بلطفه المرضي وإلاّ كانت همّته الرايضة . ومن عاد بعد الزّجر أبعد عن مستقرّه وأُزعج ، وليسع الخلفَ ماوسع السّلف من الأدب . وليعلم العبد أنّه يكتب كتاباً إلى ربّه ، فليفكّر فيما كتب وإلى من كتب .

وفي هذه السنة : توفي بالموصل قاضي القضاة بها محيي الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري (١) في الثامن والعشرين من جمادى الأوّل ، ثمّ نُقل من الموصل إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام . في سنة سبع وثمانين الّتي بعد هذه ، فدفن بها . وكان حزقاً جوّاد البذل ، واسع المروءة ، جامع أسباب الفتوّة ، أثنى عليه بذلك وبغيره العماد الكاتب ، وأنشد له في التّوحيد :

١ — قامت بإثبات الصّفات أدلّـة
قصمت ظهور أئمّـة التّعطيـلِ

٢ — وطلائعُ التّنزيـه لمّا أقبلـت
هزمت ذوي التّشبيه والتّمثيلِ / (١٢٢/و)

٣ — فالحقّ ماصرنـا إليه جميعنـا
بأدلّة الأخـبار والتّنزيـلِ

٤ — من لم يكن بالشّرع مقتدياً فقد
ألقاه فرط الجهل في التّضليـلِ

---

(١) هو . أبو حامد كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري (ت ٥٨٦ — ١١٩٠ م) . انظر الكامل ج ١٢ ص ٥٩ ، الروضتين ج ٢ ص ١٨٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٨٧ .

ثمّ دخلت سنة سبع وثمانين (١) :

ففيهـــا : وصل إلى الفرنج ملك إفرنسيس (٢) ، وملك أنكلتيرة (٣) وغيرهما ، وأخذت عكّا . يسّر الله فتحها ، وذلك أنّهم ضايقوا البلد ، وأخذوا في طمّ الخندق ، حتّى إنّهم كانوا يلقون فيه موتاهم وموتى دوابّهم ، وانقسم آهل البلد أقساماً : قسم ينزلون إلى الخندق ويقطّعون الموتى والدّواب ، وقسم ينقلون مايقطّعه أولئك ، ويلقونه في البحر ، وقسم يدبّون عنهم ويدافعون حتّى يتمكّنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم التّعب والنّصب من تواتر الأعمال المختلفه عليهم ، قال العماد : ولمّا أعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدبيراتهم والجُمَل ، وذلك أن آبراجهم الخشبيّة أحرقت ، وستائرهم ودّباباتهم وكباشهم وزّعت ومزّعت ومزقت . آقاموا قدّام خبـــامهم صوب عكا تلاً من التّراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيباً مهيلاً ، ثم نقلوه وحوّلوه ، وكانوا يقفون وراءه ، ويحوّلون إلى قدّامه ترابه ، فلا تعمل فيه النّار ، ولا يصل إلى دفعه الاقتدار ، حتّى صار من المدينة على نصف غلوة سهم . وضعفت نفوس أهل البلد ، وتمكّن العدوّ من

---

(١) انظر الفتح القسي ص ٢٣٨ — ٢٦٩ مع عدد من كتب العماد ، الكامل ج ١٢ ص ٦٣ — ٦٨ ، النوادر السلطانية ص ١١٦ — ١٣٣ ، الروضتين ج٢ ص ١٨٢ — ١٩٠ ، السلوك ج ١ ق١ ص ١٠٥ - ١٠٧ ، تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤١ — ٣٤٤ .

(٢) في الفتح القسي ص ٢٣٨ ، هو (فلبب) .

(٣) هما . ريتشارد واب الأسد ، وملك أنكلترى هو ابن هنرى الثامن . انظر الحاشيه رقم واحد في الفتح القسي ص ٧٧ ؛

الخنادق . فملؤوها ونقبوا سور البلد . وحشوه وأحرقوه ؛ فوقعت بدنة من الباشورة ، ودخل العدوّ إليها ، وقُتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً . وكان فيهم ستّة أنفس من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : لاتقتلوني حتّى أُرحِل الفرنج عنكم بالكلّية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية . وفي الغد ناداهم الفرنج : احفظوا الستّة فإنّا نطلقكم كلّكم بهم . فقالوا قد قتلناهم ، فحزن الفرنج . وبطلوا عن الزّحف ثلاثة أيام ، ولمّا عرف السلطان أنّ لاسلامة ، وأنّ عكّا عدمت الاستقامة . نفــذ إلى جماعة عكا سِرّاً وقال لهم : خذوا مــن العدوّ حذراً ، واتّفقوا . واخرجوا من البلد يداً واحدة . وسيروا عــلى جانب البحر . وصادموا العدو بالنّهر ، وخلّوا البلد بمافيه ، فشرعوا في ذلك ، واشتغل كلّ منهم باستصحاب مايملكه ، فما تمكّن من / المراد حتّى أسفر الصّباح ، ولم (١٢٢/ظ) يصح ذلك في اللّيلة الثانية لمصير السرّ إلى العلانية ، واطّلع الفرنج على هذا السّر ، فحرسوا الجوانب والأبواب وأرسل إليهم السلطان يبذل لهم عكّا بما فيها دون من فيها ، وإطلاق أسرى لهم بعدد العدّة الّتي تحويها ، فأبوا ، فزيدوا صليب الصّلبوت ، فاشترطوا إعادة جميع البلاد وإطلاق جميع أساراهم من الأقياد . وضعف البلد ، وعجز من فيه عجزاً لايمكن تلافيه ، وجاءت كتبهم يقولون فيها : أنّا قد تبايعنا على الموت ، فإيّاكم أن تخضعوا لهذا العدوّ ، أو تلينوا له ، فأمّا نحن فقد فات أمرنا ، ثمّ إنّ أهل البلد صالحوا الفرنج على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعُدّد والمراكب ، ومائتي ألف دينار ، وألفا وخمسمائة أسير مجاهيل ، ومائة أسير معيّنين من جانبهم . يختارونهم وصليب الصلبوت على أنّهم يخرجون

بأنفسهم سالمين ، وبما معهم من الأموال والأقمشة المختصّة بهم وذراريهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيس الملعون عشرة آلاف دينار لأنّه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار . واستقرت القاعدة على ذلك ، وارتفعت أعلام الكفر وشعاره وصلبانه على أسوار البلد ، نهار يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، وصاح الفرنج صيحة واحدة . وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتدّ حزن الموحّدين . وانحصر كلام العقلاء من النّاس في تلاوة (إنّــا لله وإنّـــا إليه راجعون)(١) . ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنّحيب ، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، ومنعوهم من الخروج . واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم فجمع السلطان المال ، وأحضر الصّليب ، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم . فأخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم . وكان السلطان قد أبعد منزلته عنهم ، إذ لم يبق فائدة في المضايقة بعد أخذهم لعكّا .

وركبوا (٢) وقت العصر السّابع والعشرين من رجب ، حتّى توسّطوا المرج بين تلّ كيسان وتلّ الغيّاضية ، ثمّ أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله عليه الشهادة ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوا بهم ، وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد ، فقتلوهم صبراً وطعناً وضرباً ، رحمة الله عليهم / . واليزك (١٢٣/و)
الإسلامي يشاهدهم . ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم ، وكان اليزك

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٦ .

(٢) انظر الفتح القسي ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، الكامل ج ١٢ ص ٦٨ ، النوادر السلطانية ص ١٣٤ . الروضتين ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك مـــن قوّاه ، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة . جرى فيها قتل وجَرح من الجانبين ، ودام القتـــال إلى أن فصل اللّيل بين الطائفتين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال ، فوجدوا الشّهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوا منهم ، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم ، ولم يُبقوا من المسلمين إلاّ رجلاً معروفاً مقدّماً أو قويّاً أُعد للعمل في عمائرهم .

قال كاتبه خليل بن العلائي الشافعي (١) : لمّا انتهيت إلى هذا الموضع أحببت أن أصل بـــه ذكر فتوح عكّا هذه على المسلمين . بعد مائة وثلاث سنين من هذا التاريخ ، وما قابل الله تعالى به الفرنج — خذلهم الله — على صنيعهم هذا الّذي عماوه مع المسلمين ، بعد أمانهم ومصالحتهم ، ليشتفي القلب بذلك ، والله سبحانه المعين (٢) .

لمّا (٣) كان في ثالث شعبان سنة تسع وثمانين وستمائة ، ثار جماعة من الفرنج بعكّا ، وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين المتردّدين إليها للتّجارة ، وكان ذلك في أثناء هدنة ٍ وصلح بينهم وبين المسلمين ، وقيل إنمّا فعل ذلك أقوام غُتم من داخل الجزائر ، ولم يكن ذلك يرضي أهل

---

(١) هو : ناسخ اصل الكتاب هذا . انظر ترجمته في الأصل (١٤٧ / و) ص ٤٣٥ .

(٢) بازائه في حاشية الأصل (١٢٣/ظ) : (مطلب في ذكر فتوح عكا على يد الملك الأشرف صلاح الدين بعد وفاة ابيه قلاوون).

(٣) انظر . المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤ ، ويذكر أن وفاة المنصور في سادس ذي القعدة ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٠ — ٣٢١ ، شفاء القلوب ص ٤٥٥ — ٤٥٧ .

عكّا ، فبلـــغ ذلك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصّالحي (١) ، تغمّده الله برحمته ، وكان قـــد عزم في هذه السنة عـــلى الحج ، فغضب لذلك غضبـــاً شديداً ، ورأى أن يقدم غزوهم والانتقام منهم على الحجّ ، فأخذ في تجهيز العساكر والبعوث لمضايقتها ، وضرب الدّهليز ظاهر القاهرة وبابهُ إلى جهة عكّا ، وخرج إلى الدهليز وهو متوعّك لأيام خلت مـــن شوّال مـــن السنة المذكورة ، فأقام به واشتدّ مرضه ، ثمّ توفّي إلى رحمة الله تعالى في ذي القعدة من هذه السنة ، وأفضت (٢) السلطنة إلى ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدّين خليل (٣) ، رحمه الله ، فثبت أشهراً بالقاهرة إلى أن استقرّت قدمه في الملك ، ثم في أوائل سنة تسعين وستمائة ، حصل منه الاهتمام بحصار عكا ، وإتمام ماكان / والده (١٢٣/ظ) الملك المنصور عزم عليه ، فحالت المنية بينه وبينه .

---

(١) هو : الملك المنصور قلاوون بن عبدالله التركي الصالحي الألفي ، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب بألفي دينار ، تزوج الملك السعيد بن الظاهر ابنته غازية خاتون ، ثم عظم شأنه إلى أن استقل بالملك سنة أربع وثمانين وتوفي في السادس والعشرين من ذي القعدة .

انظر : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ١٢ — ١٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٧ — ٣١٨ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٠٩ — ٤١٠ ، شفاء القلوب ص ٤٥٥ — ٤٥٦ .

(٢) بازائه في حاشية الأصل (١٢٣/ظ) : (إفضاء السلطنة بمصر إلى الملك الأشرف صلاح الدين بعد أبيه سيف الدين قلاوون رحمهما الله تعالى) .

(٣) هو . صلاح الدين الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، قتل سنة ٦٩٣ ﻫ . البداية والنهاية ج١٣ ص ٣١٦ -- ٣٢٤ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٤ و ٢٩ -- ٣٠ ، شفاء القلوب ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

فخرج (١) السلطان الملك الأشرف من الديار المصرية بالعساكر في ثالث شهر ربيع الأول . وسار في يوم الخميس رابع ربيع الآخر . وهو خامس نيسان ، ثم إنه طلّب ونازلها . بعد أن استدعى عساكر الشام جميعها . واجتمع عليها من الأمم مالايحصى كثرة ، ولم يتخلف عن شهود حصارها إلا القليل ، وكان المطوعة مـــن العلماء والفقهاء والصالحين ، والفقراء ، وعوام الناس أكثر من الجند وأتباعهم . ونصب عليها من المجانيق الكبار الأفرنجيّة خمسة عشر منجنيقاً ، منها مايرمى بقنطار دمشقي ، وأقل منه وأكثر ، وأما المجانيق الشيطانية ، واللعب ، والقرابغا (٢) فشيء كثير . ونقب عدة نقوب . وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بوكه بن سيروك بنفسه وعسكره ، وفي ليلة قدومه عليهم ، أشعلوا نيراناً كثيرة ، لم يُر مثلها فرحاً به ، وأقام عندهم ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى بلده عندما شاهد انحلال أمرهم . وعظم مادهمهم من العساكر الإسلامية ، ولم يزل الحصر عليها . والجدّ في أمرها إلى أن تحللت عزائم من بها ، وضعف أمرهم . واختلفت كلمتهم . وأخذت النقوب مأخذها ، وهدمت المجانيق أعالي الأبراج والأسوار ، واستشهد عليها جماعة من المسلمين . رحمهم الله تعالى .(٣) فلما كان يوم الجمعة ، سابع عشر جمادى الأولى ، ركب السلطان والعساكر ، وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس . وضربت الكوسات السلطانية . فكان لها أصوات مهولة ،

---

(١) انظر : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) جميعها من أنواع الأسلحة الجماعية .

(٣) بازائها في حاشية الأصل (١٢٤/و) . (في يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى من سنة ٦٩٠ ملك المسلمون مدينة عكا بالسيف ولله الحمد والمنة) .

وحسّ عظيم مزعج ، فحالة وصول العساكر للأسوار هربت الفرنج . ومُلكت المدينة بالسيف . ولم يمض ثلاث ساعات من ذلك اليوم إلاّ وقد استولى المسلمون عليها ، ودخلوها من أقطارها ، وطلب الفرنج البحر ، وقُتلَ مَنْ أُدرِكَ منهم : ولم ينج إلاّ نفر يسير ، واستولى المسلمون على جميع مافيها من الأموال والذخائر ، والعُدد والمتاجر والغلال ، وسائر الأصناف ، فإنها كانت حينئذ ميناء عظيمة للتجار . ولم يكن يومئذ للفرنج ببلاد الشام مثلها ، فغنم المسلمون
(١٢٤/و) جميع ذلك ، واشتمل القتل والأسر على معظم أهلها / ، وعصى الديوية والأسبتارية وأسبتار الأرمن في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد ، فتحصّروا فيها ، فلما كان يوم السبت صبيحة يوم الفتح ، قصد جماعة من الجند وغيرهم البرج الذي فيه الديوية ، فطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ، وصيّر إليهم سنجقاً (١) فأخذوه ، ورفعوه على برجهم ، وفتحوا الباب ، فصعد إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم ، فلما صاروا عندهم داخل البرج ، تعرض بعض الجند والناس للنهب ، ومدّوا أيديهم إلى ماعندهم من الحريم والأولاد ، فغلق الفرنج الباب ، ووضعوا فيهم السيف ، فقتلوا جماعة من المسلمين ، منهم : الأمير سيف الدين أقتبغا المنصوري أحد أمراء الشام ورموا السنجق ، وعادوا إلى العصيان ، وعاد الحصر عليهم .

وفي هذا اليوم نزل الذين كانوا في برج أسبتار الأرمن بالأمان على أنفسهم ، على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوري ، ثم في يوم الأحد العشرين من جمادى الأول طلب الديوية ومن تبقى

---

(١) السنجق : كلمة تركية الأصل وتعني : العلم أو الراية .

في الأبراج الأمان . فأمنهم السلطان على أنفسهم وأهلهم ، على أن يتوجهوا حيث شاؤوا . فلما خرجوا على هذه الصورة قتلوا منهم فوق الألفين وأسر مثلهم ، وساقوا إلى باب الدهليز من النساء والصبيان فوق الألف . وبذل الناس أيديهم في نهب ماتبقى من النساء والصبيان والإناث . وكان السلطان حنق عليهم بسبب قتلهم الّذين قتلوا في البرج من المسلمين ، وكونهم عرقبوا (١) خيولهم ، وأذهبوا ماأمكنهم إذهابه ، وتمسّك في قتلهم وأسرهم الشُبه والتأويلات وأخذ الجيش منهم من المكاسب مالا يحصى . ولما علم من تبقى منهم في بقية الأبراج ماجرى على أصحابهم ، تمسكوا بالعصيان ، وامتنعوا من قبول الأمان ، وقاتلوا أشدّ قتال . واختطفوا جماعةً من المسلمين . ورموهم من أعلى البرج ، فسلم بعضهم ومات الباقون ثم في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر أخذ البرج الذي كان تأخر . وهو برج الأسبتار وأنزل من فيه بالأمان ، وكان قد غُلق من سائر جهاته ، فلما نزلوا منه وحول معظم مافيه سقط على جماعة كثيرة من المسلمين متفرجين وغيرهم ، فهلكوا تحته ، ثم إنّه عزل النساء والصبيان من الفرنج ناحية . وضُربت رقاب الرجال كلّهم ، إلى لعنة الله / ، فهذا كلّه جرى عليهم مكافأة لسلفهم على مافعلوه بالمسلمين (١٢٤/ظ) عند أخذهم عكا كما تقدّم ، فانتقم الله منهم بنظيره ، وقدّر الله تعالى أن المسلمين فتحوا عكا في مثل اليوم والساعة منه ، والتاريخ من الشهر ، الذي استولوا عليها فيه الفرنج .

---

(١) عرقب الدابة (في لسان العرب) قطع عرقوبها ، والعرقوب وهو الوتر الذي خلف الكعبين من فصل القدم والساق من ذوات الأربع ، والعرقوبان من الفرس : ماضم ملتقى الوظيفين والساقين من مآخرها من العصب .

فقد تقدم أنهم استولوا على عكا ، يوم الجمعة ، سابع عشر جمادى الآخرة ، الثالثة من النهار وفتحها المسلمون كما تقدم في مثل تلك الساعة من يوم الجمعة سابع عشر . لكن جمادى الأولى (١) ولله الحمد والمنّة .

ثم (٢) أضيف إلى ذلك (٣) فتح صور وبقية البلاد التي كانت بأيديهم من ساحل الشام ، وذلك أن السلطان الملك الأشرف جهّز وهو منازلٌ عكا جماعة مقدمهم : الأمير علم الدين سنجر الصوابي متولي برّ صفد إذ ذاك إلى جهة صور لحفظ الطرق ، وأن يعرف بالأخبار ، فلما فتحت عكا ، وأحرقت ، وطلع دخانها . وفرّ من هرب منها في البحر . عرف أهل صور ذلك بقرينة الحال ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، فأخلوهـا ، وهربوا ،فدخلها الصوابي ، وطالع السلطان بذلك . فجرّد إليه طائفة من العسكر وجماعة من الحجّارين . والزرّاقين ، والنجارين ، وغيرهم ، لخراب صور ، وخراب حيفا ، فأخربت كلّ منهما . وكانت صور من أمنع القلاع . لاترام ، وقد تقدم عجز السلطان صلاح الدين عنها ، ولم يكن في نفس الملك الأشرف . تطلّعٌ إليها ، ولا طمعٌ بها ، ولكن الله يسرّ ذلك ، فهدم أسوارها ، ونقل من زخارفها ، والرخام الذي بها ماأمكن ، وكذلك فعل بعكا ، فإنّه هدّها إلى أن لم يبق لها مَنَعَة ، ولا يمكن استبطانها ، وشملها الهدم والحريق . وأنفذ الله تعالى ماكان

(١) فى المختصر ج ٢ ص ٢٥ (في يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة) .

(٢) بازائه في حاشية الأصل (١٢٥/و) : (فتح صور وماكان بأيدي الفرنج من ساحل الشام) .

(٣) انظر : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

عزم عليه السلطان صلاح الدين ، رحمه الله ، من خرابها ، وعاقه القدر عن ذلك إلى أن أنفذ الله أمرَهُ .

وأقام الملك الأشرف على عكا إلى أن تكمّل خرابها ، ثم رحل عنها في خامس جمادى الآخرة ، (١) ودخل دمشق ضحى يوم الإثنين ، ثالث عشره ، وزُين البلد ، واحتُفل به غاية مايمكن ، ودخل بين يديه الأسرى تحتهم الخيول ، وهم في القيود، وفي يد كثير منهم سنجق من سناجقهم مُنكّس وفي رأسه عدّة شعف (٢) من رؤوس قتلاهم ، والرجالة يقودون كلّ جماعة في حبل واحد . ولمّا رحل السلطان عن عكا ، ترك الأمير علم الدين / (١٢٥/و) الشجاعي بعسكر الشام منازلاً لصيدا (٣) ، فتسلّمها الشجاعي ، وتحصّن من كان بها من الفرنج في البرج ، وهو في البحر لايصله حجر منجنيق ولا سهم له أثر وهو في غاية المنعة، فنازله الشجاعي ، وفتحه يوم السبت ، خامس عشر رجب ، بحكم أنّ الذين فيه أخلوه ، وانتقلوا إلى الجزيرة المجاورة لصيدا ، ثم إنهم أحرقوا الجزيرة ، ورحلوا إلى قبرس ، وأحرق المسلمون قلعة صيداء ، وهدموها ، ومن الغرائب ، أنّ شواني (٤) المسلمين ، كانت قد حضرت من ميناء اللاذقية، ومقدمها الأمير سيف الدين بلبان التقوي،

---

(١) بإزائه في حاشية الأصل (١٢٥/و) : (دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق عقيب فتح عكا فزينت البلد وبين يديه الأسرى) .

(٢) شعفة كل شيء : أعلاه ، والخصلة من أعلى رأس الشعر (من المجاز) .

(٣) بازائه في حاشية الأصل (١٢٥/ظ) : (فتح صيدا بمباشرة الشجاعي وعسكر الشام في ١٥ رجب ٦٩٠) .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٥٤ .

فلما وصلت ميناء البترون(١) ، مرّ بها أهل صيدا الهاربون من مراكبهم ، فظنّوا أن شواني المسلمين لأصحابهم الفرنـــج . فقربوا منهم . فلما تبيّن لهم أنها للمسلمين [لاذوا بالفرار] (٢)، فتبعهم التقوي إلى أن أدركهم ، واستولى عليهم قتلاً وسبياً ، واستنقذ منهم جماعة من أسرى المسلمين .

وأما (٣) أهل بيروت فإنهم كانوا متمسكين بالهدنة ، لكنّهم جنوا ذنوباً منها : أنهم آووا من هرب من الفرنج ،فتقدم الشجاعي إلى التقوي بحفظ الميناء وما فيه من المراكب ، وجاء هو من جانب البرّ بالعساكر الشامية ، فدخل المدينة، واستولى عليها وعلى القلعة وما فيها، وكانت من أحصن القلاع ، وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من رجب ، وأما صاحب جبيل : فإنّ حصنه كان قد هدمه قبل ذلك الملك المنصور ، رحمه الله ، لمّا كان محاصراً طرابلس ، وأقرّه فيه ، فلمـــا فتحت عكا ، أخلاه أهله ، وهربوا ، وكذلك فعـــل أهل عثليث (٤) ، فإنّهم أحرقوا ماقدروا على أحراقه ، وقتلوا خيولهم ، وهربوا ليلة الأحد . غرّة شهر شعبان ، وكان حصنهم يضرب بحصانته المثل .

---

(١) البترون : ميناء يقع على البحر المتوسط من سواحل القطر اللبناني شمالي بيروت بين طرابلس وجبيل . انظر الأطلس المصور اللبناني .

(٢) مابين قوسين إضافة من قبلنا ليستقيم المعنى .

(٣) بازائه في حاشية الأصل (١٢٥/ظ) : (فتح بيروت في ٢٣ رجب من السنة المذكورة) .

(٤) عثليث (ي ياقوت) بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر لامه وياء مثناة من تحت ساكنة وثاء مثلثة أخرى . اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر .

وأما (١) أهل أنطرسوس : فإنّهم لمّا بلغهم ذلك عزموا على الهرب ؛ فجرّد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي إليها ، فلما أحاط بها ليلة الخميس ، خامس شعبان ، ركبوا البحر ، وهربوا إلى جزيرة أرواد ، وهي بالقرب منها ، فتوجه إليها التقوي بما معه من الشواني والمراكب ، فأخلوها ، ولله الحمد . وتنظّف بفتح هذه الحصون جميع بلاد الشام من الفرنج ، فلم يبق لهم فيه مملكة ، بحمد الله(٢) ، لأنّ الملك الظاهر : ركن الدين بيبرس الصالحي(٣) ، رحمه الله ، فتح قبـــل ذلك بلاد أنطاكية ، وصفد ، والشقيف (٤) ، وغير ذلك ، وفتح الملك المنصور (٥) المتقدم ذكره / أطرابلس (٦) ، (١٢٥/ظ) وحصن أنفة (٧) ، وغيرها .

---

(١) بازائه في حاشية الأصل (١٢٥/ظ) : (ذكر طرسوس وارواد بسعي سيف الدين بلبان والتقوي رحمهما الله) .

(٢) بازائه في حاشيه الأصل (١٢٥/ظ) . (مطلب أن الفاتح لانطاكية وصفد والشقيف الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله تعالى) .

(٣) هو : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب البلاد المصرية والشامية الحلبية وغير ذلك ، تسلم الحكم سنة (٦٥٨ هـ) ودام إلى أن توفي سنة ٦٧٦ هـ . فتح في هذه الفترة : قيسارية وأرسوف، ويافا والشقيف . وغير ذلك من الحصون) . انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٣) ص ١٨٢ .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٢ .

(٦) بازائه في حاشية الأصل (١٢٦/ظ) : (قف على أن الفاتح لمدينة طرابلس الملك المنصور المتقدم ذكره) .

(٧) حصن أنفة (في ياقوت) بالتحريك : بليدة على ساحل بحر الشام وشرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ .

فهذا فصل ذكرته هنا استطراداً ، ليُعلم به فضل الله ونعمته ، وانتقامه من أعدائه الكافرين ، ولله الحمد والمنّة .

ومدح الملك الأشرف (١) ، لمّا فتح عكا جماعة من الفضلاء ، منهم شيخنا العلامة شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ، بقصيدة بديعة قرأتها عليه ، أوّلها (٢) :

١ ــ الحمد لله (ذلّت) (٣) دولة الصُلُب
وعزّ (بالنصر دين المصطفى)(٤) العربي

٢ ــ هذا الذي كانت الآمال لو طلبت
رؤياه في النوم لاستحيت من الطلبِ

٣ ــ مابعد عكا وقد هُدّت قواعدها
في البحر (للشرك)(٥) عند البرّ من أربِ

٤ ــ عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها
دهراً وشدّتْ عليها كفّ مُغتصبِ

٥ ــ كانت تخيّلها آمالنا ونرى
أنّ التفكّر فيها غايةُ العجبِ

٦ ــ أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً
شاب الوليد بها هولاً ولم تشبِ

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٥٢ .
(٢) انظر . البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٣) في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ (زالت) ، وكذا في شعر الجهاد .
(٤) في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ (بالترك دين النبي) .
(٥) في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ (للترك) .

ومنها :

٧ ـ يايوم عكا لقد أنسيت ماسبقت
به الفتوح وما قد خُطّ في الكُتُبِ

٨ ـ كانت تمنى بك الاحلام عن أمم
والحمد لله شاهدناك عن كثَبِ

٩ ـ أغضبت عُبّاد عيسى إذ أبدتهم
(وكم له من رضىً في ذلك الغضَبِ)(١)

١٠ـ فأطلع الله جيش النّصر فابتدرت
طلائع الفتح بين السُمر والقُضبِ

١١ـ وأشرف (المصطفى الهادي)(٢) البشير على
ماأسلف الأشرف السلطان من قُرَبِ

١٢ـ وسار في الأرض مسرى الريح سمعته
فالبرّ في (طرَبٍ)(٣) والبحرُ في (حرب)(٤)

ومنها :

١٣ـ بشراك يامللك الدنيا لقد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرُتبِ

---

(١) في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ ورد الشطر الثاني : (لله أي رضى في ذلك الغضب) .

(٢) في المصدر السابق (الهادي المصطفى) .

(٣) في شعر الجهاد ص ٣٣٣ (طلب) .

(٤) في شعر الجهاد ص ٣٣٣ (هرب) .

١٤ــ مابعد عكا وقد لانت عريكتهـــا
لديك شيء تلاقبه على تَعَـــب

١٥ــ كم قد دعت وهي في أسر العدى زمناً
صِيد الملوك فلم تسمع ولم تُجِب

١٦ــ لبيتها ياصلاح الــدين معتقداً
فإنّ ظنّ صلاحِ الدين لم يخـــبِ

١٧ــ أدركت ثأر صلاح (الدين) إذ غضبَتْ
مِنــه لسرٍّ طواه الله في اللّقبِ

وهي طويلة ، اقتصرت منها على هذا القدر ،لتعلّقه بذكر السلطان صلاح الدين ، وأخذها منه ، ثم فتحها على يد سميّه رحمهما الله ، ثم نعودُ إلى بقية أخبار السلطان صلاح الدين رحمه الله مع الفرنج / . (١٢٦/و)

ثم (١) إنّ الفرنج بعد أخذ عكا رحلت صوب عسقلان مستهل شهر شعبان والمسلمون في عراضهم ، يتخطفونهم ، وكان لهم بأرسوف (٢) وقعة ، قُتل فيها من الطائفتين مقتلة ، ثم نزل العدوّ بيافا (٣) ، وهي

---

(١) انظر . الفتح القسي ص ٢٧٧ – ٢٨٩ حيث يورد أيضاً كتابين عن السلطان إلى الديوان العزيز ببغداد . الكامل ج ١٢ ص ٦٩ – ٧٥ ، النوادر السلطانية ص ١٣٥ – ١٤٨ ، الروضتين ج ٢ ص ١٩٠ – ١٩٤ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٠٥ – ١٠٧ ، شفاء القلوب ص ١٧٠ – ١٧٤ .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٠ .

(٣) بإزائها في حاشية الأصل (١٢٦/ظ) (يافا متوسطة بين القدس وعسقلان) .

متوسطة بين القـــدس وعسقلان (١) ، فأُشـــير على السلطان بخراب عسقلان ، ليتوفر الحفظ لبيت المقدس . فأمر بذلك . وقال : والله لأن أفقد أولادي بأسرهم ، أحبّ إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله ذلك ، وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع ؟ ثم إن السلطان لم يزل بها حتّى فرغ مـــن خرابهـــا ، ورحل ثاني رمضان . وأمر بتخريب حصن الرملة (٢) وكنيسة له ، ثم جرت وقعات كثيرة بين المسلمين والفرنج في البر والبحر . ورجع ملك أفرنسيس (٣) إلى بلاده . لأمرٍ اختلّ عليه فيها ، وبقي ملك أنكلتيرا (٤) ، وكان ذا دهاء ومكر شديد ورأى وخبرة ، فصار يراسل السلطان في طلب ردّ البلاد الساحليّة والقدس إلى الفرنج ، ويقع الصلح . يأخذ المسلمين في ذلك مرّة بالملاطفة ، ومرّة بالمشاددة ، ومرّة بالمخادعة .

وفي (٥) هذه السنة : توفي الفقيه نجم الدين الخبوشاني . في أوائلها بمصر ، وهو الذي عمّر تربة الشافعي ، رضي الله عنه ، وبنى السلطان له المدرسة في جوارها ، ووقف عليها وقوفها .

---

(١) انظر تعريفها في القسم الأول ص ٢٢١ حاشية رقم ٣ .

(٢) انظر تعريفه في القسم الأول ص ٣١٠ حاشية رقم ٢ .

(٣) هو : فيليب (حطين ص ١٧٨ – ١٨٠).

(٤) هو . ريتشارد قلب الأسد ملك أنكلترا (زكار : حطين ص ١٧٥ – ١٧٦) .

(٥) في الفتح القسي : (توفي أواخر هذه السنه) ص ٢٩٧ . وكذا في الروضتين ج ٢ ص ١٩٥ ، وفي البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٧ ورد اسمه (نجم الدين الخيوشاني) .

وصاحب حمـــاة (١) ، تقي الدين عمر ابن أخي السلطان شاهنشاه في تاســع عشر شـــهر رمضان في طريق خلاط (٢) . ودُفن بحماة .

وحســـام الدين محمد بن عمر بن لاجين (٣) ، وهـــو ابن ست الشام أخت السلطان . ودفن في التربة الحسامية المنسوبة إليه من بناء والدته ست الشام . وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق . وغيرهم . رحمهم الله .

قال ابن القادسي (٤) : ووصل الحاج في صفر ، بعدما اعتاقت أخبارهم ، وأخبروا أنّ داود (٥) أمير مكّة . أخذ مافي الكعبة من الأموال . وطوقاً كان يلزم الحجر الأسود ، وهو الّذي شُدّ به لمّا ضربه القرمطي بالدبوس سنة نيف وأربعمائة فتشعّث ، وتكسّر منه شظيات . فَجُمعَ بهذا الطوق الّذي أخذه داود ، فلما وصل أمير الحاج إلى مكة عزل داود وولّى أخاه مُكثِراً ، ونقض قلعة كان

(١) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٣٠٩ حاشية رقم ٥ .

(٢) خلاط (في ياقوت) البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات وهي قصبة أرمينية الوسطى .

(٣) انظر . الفتح القسي ص ٢٩٣ ، الكامل ج ١٢ ص ٧٧ ، الروضتين ج ٢ ص ١٩٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٦ — ٣٤٧ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٦ ، شفاء القلوب ص ٥٥ .

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ١٩٥ .

(٥) هو : داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني (ت ٥٨٩ هـ) في نخلة) . انظر الروضتين ج ٢ ص ١٩٦ ، (والأصل ١٢٦ / ظ) ص ٣٨٢ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٤٦ .

بناهاداود على جبل أبي قبيس (١) ، وهو داود بن عيسى بن فليتة ابن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني وكلّ هؤلاء من آبائه . ولي إمرة مكة شرّفها الله ، ولمّا صُرف أقام بنخلة (٢) حتّى توفي بها في رجب سنة تسع وثمانين . / (١٢٦/ظ)

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين (٣) :

والسلطان مقيم بالقدس وقد شرع في تحصينه ، وعمارة أبراجه (وأسواره) (٤) . وحفر خنادقه ، وأرسل إلى البلاد في جمع رجال هذه الأعمال ، وتقبل الأمراء فيه العمل . وعمل السلطان فيه بنفسه . ينقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والولاة والأمراء . قال العماد : قسّم سور البلد على أولاده، وأخيه ، وأجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كلّ يوم ، فينقل الصّخر على قربوس سرجه (٥)، فيستنّ الأكابر والأمراء في نقل الحجارة ببهجة ، ولو رأيتَهُ وهو

---

(١) أبو قبيس (في ياقوت) بلفظ التصغير هو : اسم الجبل المشرف على مكة وجهه إلى قعيقعان ، ومكة بينهما . أبو قبيس من شرقها وقعيقعان من غربها) .

(٢) نخلة (في ياقوت) . بالفتح ثم السكون ، اسم جنس النخلة منزل من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين ، وقيل : موضع منجد من أرض غطفان مذكور في غزاة ذات الرقاع وهو موضع في طريق الشام من ناحية مصر .

(٣) انظر : الفتح القسي ص ٣٠٠ - ٣١٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٨١ - ٨٦ ، النوادر السلطانية ص ١٤٨ - ١٩٣ ، الروضتين ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٦ ، البداية والنهايه ح ١٢ ص ٣٤٧ - ٣٥١ ، السلوك ج ١ ق١ ص ١٠٨ - ١١٠ ، شفاء القلوب ص ١٧٤ - ١٧٧ .

(٤) في الأصل ١٢٧ /و مطموسة والإضافة عن نسخة المغرب .

(٥) قربوس سرجه : يعني : حجره أي طرف ردائه انظر ، الروضتين ج٢ ص ١٩٦ .

يحمل حجراً في حجره لعرفت أنّ له قلباً ، كم حمل جبلاً في فكره ؟ وما تغلو دار يبنيها في الجنّة ، ينقل حجارتها ليكون ملكاً في دارها ، وقسراً في دارتها .

وجرت للفرنج مع المسلمين وقعات، وكبس الأنكلتير — لعنه الله — قفلاً عظيماً ، جاء من مصر ، فغنمه وبدّد شمله ، ثم صحّ عزمهم على قصد القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال ، والجمال التي تنقل الميرة والزاد ، ورتبوا جماعة على لدّ (١) ، يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ، وأنفذوا إلى عكا ، وصور ، وطرابلس ، يستحضرون من فيها من المقاتلة ، ليصعدوا إلى القدس ، ولمّا عرف السلطان ذلك منهم ، عمد إلى أسوار القدس ، فقسّمها على الأمراء ، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصهاريج (٢) كلّها ، والجباب ، بحيث لم يترك حول القدس ماء يُشْرَب أصلاً ، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميع أرضها ، لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب ، وسيّر إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد .

ولما كان ليلة الخميس ، تاسع عشر جمادى الآخرة ، أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر أبو الهيجاء السمين ، والمشطوب ، والأسديّة بأسرهم ، وجماعة الأمراء .

قال القاضي : (٣) ثم أمرني أن أكلمهم ، وأحثّهم على الجهاد ،

---

(١) لد (في ياقوت) : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٢) الصهاريج : سدود تحجز المياه خلفها .

(٣) انظر : مختارات من كتاب النوادر السلطانية ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

فذكرت مايسّر الله من ذلك ، وكان مما قلته : إن النبي صلى الله عليه وسلّم لمّا اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدوّ ، ونحن أولى من تأسى به ، صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف / على الموت ، فلعلّ ببركة (١٢٧/و) هذه النيّة ، يندفع هذا العدوّ ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه .

ثم شرع السلطان رحمه الله بعد أن سكت زماناً في صورة فكر والنّاس سكوت ، كأن على رؤوسهم الطير ، فقال : الحمد لله ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلّقة في ذممكم ، وأن هذا العدوّ ليس له من يلقاه إلاّ أنتم ، فإن لويتم أعنّتكم — والعياذ بالله — طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمّتكم ، فإنّكم أنتم الّذين تصدّيتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم ، والسلام .

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال : يامولانا نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكبّرتنا وعظّمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله مايرجع أحد منّا عن نصرتك إلى أن يموت ، فقال الجماعة كلّهم مثل ماقال . وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على أشدّ حال في التأهب والاهتمام حتى كان العشاء الآخرة ، اجتمعنا في خدمته على العادة ، وسمرنا حتى مضى هزيع من اللّيل وهو غير منبسط على

عادته ، ثم صلّينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني رحمه الله وقال لي : أعلِمتَ ماالّذي تجدّد ؟ قُلتُ : لا ، قال : إنّ أبا الهيجاء (١) أنفذ إليّ اليوم وقال : إنّه اجتمع عندي جماعة من المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : إنّه لامصلحة في ذلك ، فإنّا نخاف أن نُحصرَ ويجري علينا مثل مايجري على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأي أن نلتقي مصاف ، فإن قدّر الله أنْ نَهزِمَهم مَلَكْنا بقيّة بلادهم ، وإن تَكُنْ الأُخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها مدّة بغير القدس ، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ، فشقّ عليه هذه الرسالة ، وأقمتُ تِلكَ الليّلة في خدمته حتى (أصبح) (٢) الصباح وهي من الليالي
(١٢٧/ظ) التي أحياها في سبيل الله رحمةُ اللهِ عليه /، وكان مما قالوه في الرسالة: أنّك إن أردتنا نقيم ، فتكون معنا ، أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده ، وإلاّ فالأكراد لايدينون للأتراك ، والأتراك لايدينون للأكراد ، وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان السلطان، رحمه الله ، يحدث نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه ، لما فيه من خطر [على] (٣) الإسلام ، فلما قارب الصبح أشفقت عليه . وخاطبته في أن يستريح ساعة ، لعلّ العين تأخذ حظّها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فما وصلت

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٤٢ .
(٢) مابين القوسين الإضافة عن نسخة المغرب .
(٣) الإضافة مابين القوسين من قبلنا لتوضيح المقصود .

إلاّ والمؤذن قد أذّن . فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلاّ والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه في غالب الأوقات. فَعُدتُ إلى خدمته ، وهو يجدّد الوضوء ، فصلينا ، ثم قلت له : قد وقع لي أمرٌ أعرضه ، فأذِنَ فيه ، فقلتُ له : المولى في اهتمامه ، وما قد حمّل نفسه في هذا الأمر ، مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، فينبغي أن ترجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث ، ونحن في أبرك موضع ، نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ، ويتصدّق بشيء خِفْية بحيث لايُشعَرَ بأنّه منكَ ، وتصلّي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربّك ، وتفوّض مقاليد أمورك إليه ، وتعترف بعجزك عمّا تصدّيت له ، فلعلّ الله سبحانه يرحمك ، ويستجيب دعاك ، قال : وكان،رحمه الله،حسن العقيدة تامّ الايمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثمّ انفصلنا . فلما كان وقت الجمعة صلّيت إلى جانبه في الأقصى ، وصلّى ركعتين ، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مُصلاه . رحمه الله . ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيّتها ونحن في خدمته على العادة ، وصلت رقعة جرديك ،وكان في اليزك (١) يقول فيها : إنّ القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا في البر على ظهر ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وقد سيّرنا جواسيس تكشف أخبارهم ، ولما كانت صبيحة السبت . وصَلَت رقعة أُخرى ، يُخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى

---

(١) اليزك : مقدم الجيش (انظر القسم الأول ص ٢١٠ حاشية رقم ٢) .

القدس والرحيل إلى بلادهم. فذهبت الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس وقالوا : نحن إنّما جئنا من بلادنا بسبب القدس ، ولا نرجع دونه . (١٢٨/و) وقال الأنكلتير : إنّ هذا الموضع قد / أُفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أينَ نَشرب ؟ فقالوا له : نشرب من نهر نقوع (١) ، وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال : كيف نذهب إلى السقي ؟ فقالوا : نتقسّم قسمين : قسم يذهب إلى السقي مع الدواب ، وقسم يبقى على البلد في اليزك ، ويكون الشرب في اليوم مرّةً ، فقال الأنكلتير : إذاً يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية . فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكّم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يُفعل ، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل . فلم تمكنهم المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين ، من جمادى الآخرة ، راحلين إلى نحو الرّملة ناكصين على أعقابهم ، ولله الحمدُ والمنّة ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلاّ الآثار ، ثم نزلوا بالرملة (٢) ، وتواتر الخبر بذلك ، فركب السلطان صلاح الدين — قدّس الله روحه — وركب الناس ، وكان يوم سرورٍ وفرح .

ثم تردّدت رسل الأنكلتير في معنى الصلح باللّين تارة وبالخشونة أخرى ، فلم ينتظم أمر ، وبلغ السلطان في عاشر رجب أن

---

(١) لم أعثر على ترجمة لها ، ربما قصد به النبع الواقع إلى الغرب من القدس ، بالقرب من بلدة عين كارم في فلسطين ، (انظر مصور فلسطين — أطلس) .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول ص ٣١٠ حاشية رقم ٢ .

الفرنج رحلوا طالبين بيروت فبرز ، ثم رحل ونزل على يافا ونصب المنجنيقات . فأرسل أهلها في طلب الصلح ، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته فأجابوا إلى ذلك واشترطوا أويُمهلوا إلى تاسع عشر رجب : فإن جاءتهم نجدة ، وإلاّ تمّت القاعدة ، فأبى السلطان إلاّ الحصار ، ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وعلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش ممّا نُهب من القافلة المصرية ، وبلغ الأنكلتير ذلك . فرجع عن قصد بيروت إلى يافا في نيف وخمسين مركباً منها خمسة عشر شينياً . فلما وصلوا رأوا البلد مشحوناً ببيارق المسلمين ورجاله ، فخافوا أن تكون القلعة أُخذت . وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى مَنْ في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النّجدة من النزول مع كثرتها ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد قد أخذ ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكان رَمْلاً ، فلم يصبه شيءٌ ، / وعدا إلى البحر ، وحدّث الأنكلتير بالحديث ، فما كان (١٢٨/ظ) إلاّ ساعة حتى نزل كلّ من في الشواني إلى الميناء ، فحملوا على المسلمين ، فأخرجوهم من الميناء ، ثم رحل المسلمون إلى يازور (١) ، فأمر السلطان بخرابها ، وخراب بيت جن(٢)، ورتّب اليزك بيازور ،

(١) يازور (في ياقوت) بالزاي والواو ساكنة ثم راء : بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين .

(٢) بيت جن : بلدة تقع في السفح الجنوبي الشرقي لجبل حرمون وهي حالياً من أعمال محافظة القنيطرة . وهي باعتقادنا ليست المقصودة لبعدها عن مسرح الأحداث . أما المقصودة هنا فهي قرية في فلسطين، شرقي عكا بانحراف قليل الى الشمال ، تبعد عنها ٣ كم . (معجم بلدان فلسطين) .

وسار إلى الرملة ، ثم نزل العوجاء (١) ، وبلغه أن الأنكلتير نازل خارج يافا في نفر يسير ، فوقع له أن يكبسه . فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيَم ، فحملوا عليهم فثبتوا ، ولم يتحركوا من أماكنهم ، وكشّروا عن أنياب الحرب ، وكانوا على الموت أصبر ، فارتاع العسكر منهم . ووجموا من ثباتهم ، وداروا حولهم حلقة ، وكانت عـدّة الخيل سبعة عشر ، وقيل تسعة ، والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة ، ودار على الأطلاب بنفسه ، يحثهم على الحملة ، ويعدهم بالحسنى على ذلك ، فلم يفعلوا ، فغضب وسار إلى يازور ، ثم إلى النطرون ، ثم ترددت الرسل في معنى الصلح . فعقُدت هدنة عامّة في البر والبحر ، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية(٢) إلى عكا إلى صور ، وأدخلوا في الصلح أطرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أوّلها : مُبتدأ أيلول الموافق الحادي والعشرين من شعبان ، وأمر السلطان أنْ يُنادى في الوطاقات(٣) ، والأسواق ألا إنّ الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً ، غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالايعلمه إلاّ الله .

قال القاضي : والله العليم أن الصلح لم يكن من إيثار السلطان ، فإنّه قال لي في بعض محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح وما

---

(١) العوجاء : حالياً العوجة : وتقع بالقرب من مصب نهر العوجة على الساحل الفلسطيني إلى الشمال من يافا (انظر الأطلس مصور القطر الفلسطيني) .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢١٣ .

(٣) الوطاقات : جمع وطاق : وهي معسكرات الجند وأماكن تجمعاتهم . ولاتزال هذه الكلمة تستخدم بهذا المعنى في الأقطار العربية .

أدري أيّ شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدوّ . وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم . وترى كلّ واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلّة – يعني حصنه – وقال : لاأنزل ويهلك المسلمون . فهذا كلامه وكان كما قال . لكنّه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة . وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فإنّه اتّفقت وفاته بُعيد الصلح ، ولو كان اتّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطرٍ ، فما كان الصلح إلاّ توفيقاً وادةً ،)

واختلط العسكرانِ / ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في (١٢٩/و طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدوّ إلى القدس للحجّ ، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك ، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم ، حتى يردّوهم إلى يافا ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرّهم ، ولمّا علم الملك كثرة من يزور منهم ، صعب عليه ذلك ، وسيّر إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح أن لايأذن لأحد إلاّ بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه . وعلمت الفرنجية ذلك فَعَظُم عليها ، واهتموا في الحج ، فكان يرد في كلّ يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكّرون .

وشرع السلطان في إكرام من يرد ، ومدّ الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم ، وأذن لهم في الحج وعرّفهم إنكار الملك ذلك ، وأنّه لم يلتفت إلى إنكاره ، واعتذر إلى الملك : بأنّ قوماً قد وصلوا من ذلك البعد، ويُسّر لهم زيارة هذا المكان الشريف ، ولا أستحلّ منعهم .

ثم اشتد المرض بالملك (١) ، فرحل آخر شعبان وقيل : إنّه مات لارحمه الله ، فما بلي المسلمون بأدهى منه ولا أمكر ولا أكثر إقداماً ، ولقد سلمت البلاد منه سلامة عظيمة ، بما أجراه الله تعالى على يد السلطان من حسن التدبير والثبات ، وقد ذكره ابن الساعاتي (٢) في بعض قصائده التي مدح بها السلطان ، فوصفه بما كان متوقعاً منه ، فقال (٣) :

١ – لولاك أم البيتَ غير مدافعٍ
(ولسالَ سيل يداك) (٤) في بطحائه

٢ – وبكت جفون القدس ثانيةً دماً
لترنّم الناقوس في أفنائه

ثم أعطى السلطان العساكر دستوراً ، وأشاع رحمه الله أن طريق الحجّ قد فتح من الشام ووقع له عزم الحجّ . قال القاضي : وكان هذا ماوقع لي ، وبدأت بالاشارة به في يوم تتمّة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه موقعاً عظيماً ، وقوي عزمه على براءة الذمّة منه ، فأمر الديوان : أن كلّ من عزم على الحجّ من العسكر يثبت اسمُهُ ، حتّى يحصي عدّة من يدخل معه الطريق ، وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد ، وسيرها إلى البلاد ليُعدّوها .

وقال العماد : وعزم السلطان على الحجّ وصمّم ، وكتب إلى

---

(١) قصد ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد .

(٢) انظر ترجمه في حاشيتنا رقم (١) ص ٦٣ .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٤) مابين القوسين في الروضتين (وأسال سيل نداه) .

مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر أن يحمل له في كلّ / ما يحتاج (١٢٩/ظ) إليه من الأزواد والنفقات والثياب والكسوات . فقيل له : لوكتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجّك حتى لايظُنّ بك أمرٌ أنت منه بريء والوقت قد ضاق ، ويبلغ الخبر الآفاق ، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث ، وهذه المعاقل التي في الثغور حِفْظها من أهم الأمور ، ولا تغتر بعقد الهدنة ، فإنّ القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فما زال به الجماعة حتى حلّوا عقد عزمه على الحجّ . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته ، ومن كلام القاضي الفاضل :(١) (غدر الفرنج معلوم :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها أن لايدوم لها عهد

القوم هادنوا لمّا ضعفوا ويفسخون إذا قووا) . . وكتب إلى السلطان مشيراً بترك الحجّ (٢) : (إنّ الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح ،فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم ، وافتراق عسكرنا ، وسفر سلطاننا سفراً مقدّراً معلوماً مدّة الغيبة فيه ، أن يَسْروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلةٍ ، فيدخلوا إليه والعياذ بالله ، فيفرط من يد الإسلام ويصير الحجّ كبيرة من الكبائر التي لاتغفر ، ومن العثرات التي لاتُقال) .

قال العماد (٣) : وعاد السلطان بعد السلم إلى القدس ، وتفقدَ أحواله ،

---

(١) انظر الكتاب مطولاً في الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) انظر المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) انظر : العماد الفتح القسي ص ٣١٧ – ٣٢٥ ، الكامل ج ١٢ ص ٨٦ – ٨٧ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٠٦ – ٢٠٩ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥١ ، شفاء القلوب ص ١٧٧ – ١٧٨ .

وعَرَض رجاله ، واشتغل بتشييد أسواره ، وتحصينها ، وتعميق خنادقه ، وزاد في وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها ، وأرضاً ببساتينها ، وكذلك رتّبَ أحوال الصوفيّة في رعايتها ، والوقف الكافل لكفايتها ، وعيّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان ، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع ، وأدار سور القدس على قبّة صهيون ، وأضافها إلى المدينة ، وأمرَ بإدارة الخندق على الجميع ، وصمّم العزم على الحجّ ، فلم يوافقه القدر ، وتأسّف على فواته ، بعد أن قدّم مقدّماته ، وأقام شهر رمضان ، وأفاض الإحسان ، ثمّ آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابراً ، وفي أحوالها ناظراً ، فخرج من القدس يوم الخميس خامس شوال ، وبات على بركة الداوية (١) ، ونزل يوم الجمعة بظاهر نابلس ، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت ، حتى كشف مظالم ،
١٣٠/و) ووظّف مكارم ، وكان بها / سيف الدين المشطوب ، فشكا أهلها نوائب من جانبه تنوب ، فأزال الشكوى ، وأزاح البلوى ، ورحل بعد ظهر السبت ، وبات عند عقبة ظهر حمار ، بموضع يُعرف بالفريديسية ، ورتعنا في مروجها الأنيسة ، وأصبحنا راحلين ، ونزلنا ضحوة على جنين (٢) ، وهناك ودّعنا المشطوب وداع الأبد ، فإنّه انتقل بعد أيام إلى رَحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان (٣) ، وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية ، فأبصر قُلَلها العالية ،

---

(١) لم أعثر على تعريف بها وربما قصد بها بركة الخيزران وهي (في ياقوت) موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٧ ص ١١٥ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ .

وقال : الصواب بناء هذه ، وتخريب كوكب (١) . ثم رحل ظهراً وبات بقلعة كوكب ، وصعّد نظر رأيه فيها وصوّب ، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبريّة وقت العشاء ، وهناك لَقينا بهاء الدين قراقوش ، وقد خرج من الأسر وتوجّه إلى مصر . وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل (٢) الذي عليه صفد ، وصعد إليها وكمّل فيها الرجال والعُدَد ، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة (٣) إلى قلعة تبنين (٤) وجاز يوم الأحد على هونين (٥) ، وخيّمنا على عين الذهب (٦) ، ثم سرنا إلى مرج عيون (٧) إلى جسر كامد (٨) ، وطريقنا بين عمل صبدا ووادي التيم ، ثم طلعنا من تلك الأودية والشعاب ، ودخل يوم الخميس بيروت ، وهناك وصل إليه ابرنس أنطاكية بيمُند في جماعة من مقدّمي فرسانه ، فشرّفهم وأعطاهم ، وعبر يوم الإثنين عين

---

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ٨٢ .

(٢) هو · جبل الجرمق انظر (الأطلس مصور القطر الفلسطيني) .

(٣) جبال عاملة أو عامر (في ياقوت – تبنين) هي الجبال المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٣ ص ١٥٠ .

(٥) انظر تعريفها في القسم الأول ص ٢٤٢ حاشية رقم (٣) .

(٦) لم أعثر على تعريف بها والمرجح أنها واقعة في سفوح الجبال المطله على سهل الحولة في فلسطين المحتلة .

(٧) مرج عيون (في ياقوت) بسواحل الشام . نقول : تقع في جنوب سلسلة جبال لبنان الغربية إلى الشمال الغربي من الحبام في القطر اللبناني (انظر الأطلس مصور القطر اللبناني) .

(٨) في الروضتين ج ٢ ص ٢٠٧ (حامد) ، لم أعثر على تعريف به ولا أظنه إلا جسراً على نهر اللبطاني جنوبي البقاع الجنوبي .

الحر (١) إلى مرج يبوس (٢) ، وهناك توافَدَ أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ، ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرادة (٣) . وأصبحنا يوم الأربعاء إلى جنّة دمشق داخلين بسلام آمنين ، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين ، فأخرجت دمشق أثقالها ، وأبرزت نساءها ورجالها ، فكان يوم الزينة ، وخرج كلّ من في المدينة ، وحُشر الناس ضحى ، وأشاعوا استبشاراً وفرحاً . وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت ، فاهتزّت بقدومه واختالت ، وقَرَّتْ بفضائله الأعين ، وقرّت بفواضله الألسن ، وأبدوا وجوه الاستبشار ، وألسن الاستغفار ، وأعين الاستعبار ، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدعاء ، عن خالص (١٣٠/ظ) الولاء ، وحـــلّ في القلعـــة حلول الشمس في برجهـــا ، وأخذت / بحار محاسنه في موجها ، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار ، وأنال وأثار ، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنانه وأبهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ، ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وهو مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر للفُرَص ، وقرّب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضّل الكرماء ، وما كان أحسن إلى الخلق إصغاءه ، وأسرع للباطل إلغاءه .

وقال القاضي : أقام السلطان بالقدس إلى أن صحّ عنده إقلاع مركب الانكلتير المخذول متوجّهاً إلى بلاده في مستهلّ شوّال ، فعند

---

(١) عين الحر (في ياقوت) موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٧ .

(٣) لم أعثر على تعريف بها ، ولا أظنها واقعة إلا على طريق دمشق – جديدة اليبوس .

ذلك جرّد عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، ويتفقّد القلاع البحريّة إلى بانياس . ويدخل دمشق ، يقيم بها أياماً ، ويعود إلى القدس سائراً إلى البلادِ المصرية ليتفقد أحوالها ، ولما وصل إلى بيروت ، وصل إلى خدمته الابرنس صاحب أنطاكية (١) مسترفداً ، فبالغ في إكرامهِ ومباسطته ، وأنعم عليه بالعمق (٢) وأرزغان (٣) ومزارع ، تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار إلى دمشق بعد الفراغ في تصفّح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسدّ خَلَلِها ، وإصلاح أمور أجنادها ، فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر من شوال وفيهـــا أولاده: الأفضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار ، وكان يحبّ البلد ويؤثر فيه الإقامة على البلادِ ، وأقام يتصيّد هو وأخوه وأولاده ، ويتفرّجون في أراضي دمشق ومواطن الصِّبا ، وكأنهُ وجد به راحة ممّا كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهَر الليل ، وما كان ذلك إلاّ كالوداع لأولاده ومرابع نُزهه ، وهو لايشعر ، ونسي عزمه المصري ، وعرَض له أمور أخر ، وعزمات غير ذلك ، وأنشده في عيد الأضحى الرشيد النّابلسي (٤) قصيدة منها (٥) :

---

(١) هو : بيمند (الأصل ١٣٠/ظ) ص ٣٩٣ .

(٢) العمق : ربما قصد بها بحيرة العمق التي تقع إلى الشمال الشرقي من أنطاكية (انظر الأطلس مصور القطر السوري) .

(٣) أرزغان : لم أعثر على ترجمة لها . وربما قصد بها قرق خان الحالية : وهي مدينة حالياً في تركيا وتقع إلى الشمال من بحيرة العمق، في السفح الشرقي لجبال الأمانوس (انظر الأطلس مصور القطر السوري).

(٤) في الروضتين ج ٢ ص ٢٢١ هو : الرشيد بن النابلسي ، وكذا في شعر الجهاد ص ١٢٩ .

(٥) انظر . الروضتين ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

١ – ملك طبق الممالك (عدلا) (١)

مثلمـــا أوســـع البريّة بِـــرّا

٢ – فتمـــلّ الأعياد صومـــاً وفطراً

وتلق الهناء (عشراً) (٢) ونحرا

٣ – (يأمر الطاعـــاتِ) (٣) للهِ إن أضـ

ـحى مليك على الهنـــاة مُصِرّا

٤ – (نلت ماتبغي) (٤) من الدين والدنـ

ـيا فتيهاً على الملوكِ وفخرا) / (٥) (١٣١/و)

٥ – قد جمعت المجدين أصـــلاً وفرعاً

وملكت الدارين دنيا وأُخـــرى

وفي هذه السنة : توفي قاضي العسكر شمس الدين بن الفرّاش(٦) ، والأمير سيف الدين المشطوب (٧) . ووقف السلطان بعـــده ثلث نابلس وأعمالها عـــلى مصالح القدس ، وأقطع ولده (٨) وأميرين معه الثلثين ، محافظة على حقّه .

---

(١) في البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥١ (بالعدل) .

(٢) في الروضتين ج٢ ، ص ٢٠٨ (نظار) .

(٣) في البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٥٢ (يأمر بالطاعات) .

(٤) في البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٥٢ (ماتسعى) .

(٥) في الروضتين ج ٢ ص ٢٠٨ ورد البيت الرابع قبل الثالث .

(٦) انظر ترجمته في القسم الأول الحاشية رقم ١ ص ٣٩٤ .

(٧) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٤٢ .

(٨) هو : عماد الدين أحمد بن المشطوب . انظر النوادر السلطانية ص ٢٤٧ .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة :

وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين ، رحمه الله .

قال العماد : (١) واستهلّت السنة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره والأيّام مشرقة بمطالع أنواره ، ورُسل الآفاق مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض إنعامه عائمون (٢) والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، ويجلس في كلّ يوم وليلة لإسداء الجود وإبداء السعود ، وبثّ المكارم وكشف المظالم ، وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزادِ خمسة عشر يوماً ، واستصحب معه أخاه العادل ، وأبعد في البريّة ، وظهر عن ضَمَيره ضمير (٣) إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص ، ثم عاد يوم الإثنين حادي عشر صفر ، ووافق ذلك عود الحاج الشامي ، فخرج للتلقي ، وسعاداته في الترقّي ، ولمّا لقي الحُجاج ، استعبرت عيناه ، كيف فاته من الحجّ ماتمنّاه ، وسألهم عن أحوال مكّة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومَحلها ، وكم وصلهم من غلاّت مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين ورواتبهم وإدراراتها .

---

(١) انظر : الفتح القسي ص ٣٢٥ — ٣٢٦ ، النوادر السلطانية ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، الروضتين ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢ ، السلوك ح ١ ق١ ص ١١٢ — ١١٣ ، شفاء القلوب ص ١٧٩ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٢١١ (غانمون) .

(٣) ضمير (في ياقوت) تصغير : مرضع قرب دمشق قيل : هو قريه وحصن آخر حدود دمشق مما يلي السماوة) . نقول : هي قرية تقع حالياً إلى الشرق من دمشق على طريق دمشق العراق وتبعد عن دمشق حوالي (٥٠) كم .

وقال القاضي بهاء الدين بن شداد ، رحمه الله : دخلت عليه فقال : ماالذي عندك من خبر الحاج ؟ فقلت : قد اجتمعت بجماعة منهم ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنّهم في غدٍ يدخلون ، فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم ، ونقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها كانت كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار ، ثم بكّر فركب في يوم الجمعة فلحقته ، وقد لقي الحاج ، ولم أجد عليه كزاغنده (١) ، وما كان له عادة يركب بدونه ، وكان يوماً عظيماً . قد اجتمع فيه للقاء الحاج ، والتفرّج على السلطان معظم من في البلد . فأذكرته ذلك ، فكأنه استيقظ ، فطلب الكزاغند ، فلم يوجد . وأوقع الله في قلبي تطيّراً بذلك ، ثمّ سار رحمه الله بين البساتين . يطلب / جهة المنيع (١٣١/ظ) حتّى أتى القلعة ، فعبر على الجسر إليها وهي طريقه المعتاد . وكانت هذه آخر ركباته ، رحمه الله .

ولمّا (٢) كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً ، فما انتصف الليل حتّى غشيته حمّى صفراويّة ، كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره ، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر وعليه أثر الحمّى ، ولم يظهر ذلك للناس ، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الأفضل (٣) ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من

---

(١) الكزاغند : رداء منسوج من الصوف أو الحرير ، لايزال هذا الاسم دارجاً في الريف السوري .

(٢) انظر : الفتح القسي ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٩٥ ، النوادر السلطانية ٢٠٠ — ٢٠٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢ — ٣ ، شفاء القلوب ص ١٧٩ — ١٨١ .

(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ١٣١ .

قلقه بالليل . وطاب لـه الحديث إلى قريب الظهر ، ثمّ انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدّم إلينـا بالحضور على الطعـام في خدمة ولده الأفضل . ولم يكن للقاضي عـادة بذلك فانصرف ، ودخلت إلى الديوان القبلي ، وقد مُدّ الطعام وولده الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ، وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً ، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه ، ثم أخـذ المرض في تزايد من حينئذ . ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وأدخلُ إليه أنا والقاضي في النّهار مراراً ، ويغطي الطريق في بعض الأيام التي نجد فيها خفّة ، وكان مرضه في رأسه . وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه . الذى كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً ، ورأى الأطباء فصده (١) ، ففصدوه في الرابع . فاشتدّ مرضه ، وقلّت رطوبات بدنه . وكان يغلبه التّنفس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه ، وأسندناه إلى مخدّة . وأُحضر ماء فاتر ليشربه ، عقيب شراب يليّن الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدّة حرّه ، فَغُيّر ، وعُرض عليه ثانياً ، فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ، رحمه الله ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله لايمكن أحداً تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي من عنده ، وقد اشتد منّا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر هـذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها . والله لو أنّ هذا بعض النّاس كان قد ضرب بالقدح رأس مـن أحضره ، فاشتدّ / مرضه في السـادس (١٣٢/و)

---

(١) الفصد : (في لسان العرب) شق العرق .

والسابع والثامن ولم يزل متزايداً ، وتغيّب ذهنه ، ولمّا كان التاسع حدثت به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب . واشتدّ الإرجاف في البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق . وغشي النّاس مـن الكآبة والحزن . مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كلّ ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثمّ نحضر في باب الدار . فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلاّ تعرّفنا أحواله . وانصرفنا ، وكنّا نجد النّاس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا ، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا ، ولمّا كان العاشر من يوم مرضه ، حُقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخف . وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ، وفرح النّاس فرحاً شديداً ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثمّ أتينا باب الدار ، فوجدنا جمال الدولة إقبالاً (١) ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد ،ثمّ أنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه(٢) يقول : إنّ العرق قد أخذ في ساقيه . فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيّبة قلوبنا ، ثمّ أصبحنا ، فأخبرنا أنّ العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ، وتأثرت به الأرض ، وأنّ اليُبس قد تزايد به تزايداً عظيماً ، وخارت القـوّة ، واستشعر الأطباء ، ولمّا رأى الملك الأفضل ماحلّ بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع في تحليف

---

(١) لم أعثر علىّ ترجمة له .

(٢) هو : المعظم فخرالدين أبو منصور توران شاه بن يوسف ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وهو آخر أولاده وفاة،توفي بحلب في سنة ثمان وخمسين وستمائة . انظر الأصل (١٤٤/و) ص ٣١٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٨ ، شذرات الذهب ح ٥ ص ٢٩٢ .

النّاس ، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه ، ولمّا كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه ، وضعفت قوّته ، ووقع في أوائل الأمر من أوّل الليل، وحال بيننا وبينه النّساء ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير الفاضل ذلك ، فإنّ الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف أن لاينزل ، فيقع الصوت في البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا / ، واستحضار (١٣٢/ظ) الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة (١) ، وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إن احتضر بالليل ، حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذكّره بالشهادة ، وذِكْر الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكلّ منّا يودّ فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلاّ في الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر: أنّه لمّا انتهى إلى قوله تعالى (هو الله الذي لا إله إلاّ هو، عالم الغيب والشهادة) (٢) ، سمعَهُ وهو يقول : صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك ، وكانت وفاته ، رحمة الله عليه ، بعد صلاة الصبح ، من يوم

(١) الكلاسة هي : مدرسة بجوار الجامع الأموي من شمال، ولها باب إليه ، عمرها نور الدين الشهيد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع الأموي ، ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديدها ، وأول من صلى بها أبو جعفر أحمد بن علي القرطبي (ت ٥٩٦ هـ – ١٢٠٠ م) (انظر الحاشية رقم ٥٨٤ في شفاء القلوب ص ١٨٠ ، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٤٤٧ – ٤٤٨ .

(٢) سورة الحشر ٥٩ الآية ٢٢ .

الأربعاء ، السابع والعشرين من صفر ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح ، فحضر وفاته ، ووصلت أنا وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحلّ كرامته . ولقد حُكي لي : أنّه لمّا بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : (لاإله إلاّ هو ، عليه توكّلت) (١) ، تبسّم وتهلّل وجهه (٢) ؛ وسلّمها إلى ربّه . وكان يوماً لم يُصَب الاسلام والمسلمون مثله ، منذ فقد الخلفاء الراشدون . وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ، مالايعلمه إلا الله تعالى . وبالله لقد كنتُ أسمع من بعض النّاس : أنّهم يتمنون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم ، فأحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخّص إلى ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري ، أنّه لو قُبِلَ الفداء ، لَفُديَ بالنفس . ثمّ جلس ولده الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي . وحُفِظَ باب القلعةِ إلاّ عن الخواص وكان يوماً عظيماً ، قد شغل كلّ إنسان ماعنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة ، عن أن ينظر إلى غيره ، وغسّله الدولعي (٣) الفقيه . وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجّى بثوب فوط ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج ، حتى إنّ الغافل يتخيّل

---

(١) سورة التوبة ٩ الآية ١٢٩ .

(٢) بازائه في حاشية الأصل (١٣٣/و) : لعلها (وتقدر من خمسماية) .

(٣) هو : عبد الملك بن زيد بن يس التغلبي الدولعي خطيب دمشق . والدولعية : قرية من قرى الموصل ، قدم دمشق واستوطن بها ، وأصبح خطيبها (ت ٥٩٨ هـ — ١٢٠٢ م) .

انظر : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٢ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٨١ ، والحاشية رقم ٥٨٦ في شفاء القلوب ص ١٨٠ .

أنّ الدنيا كلّها تصيح صوتاً واحداً ؛ وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة . وصلّى عليه الناس أرسالاً . وكان أوّل من أمّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي (١) ، ثمّ أعيد ، رحمه الله ، إلى الدار التي في البستان / التي كان متمرّضاً بها ، (١٣٣/و) ودفن في الصفة الغربية منها ، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر ، ثمّ نزل في أثناء النهار ولده الظافر (٢) ، وعزّى النّاس فيه ، وسكن قلوب الناس . وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهّب والفساد ، فما يوجد قلب إلاّ حزين ، ولا عين إلاّ باكية ، إلاّ من شاء الله . ثمّ رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ، ولم يَعُد منّا أحد في تلك الليلة إلاّ أنا ، حضرنا وقرأنا ، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته وعمّه يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً ، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلّم المتكلّمون ولم ينشد شاعر . ثمّ انفضّ المجلس في ظهير ذلك اليوم ، واستمر الحال بكرة وعشيا في حضور الناس لقراءة القرآن والدعاء له . رحمة الله عليه .

وكتب القاضي الفاضل إلى ولده الظاهر بحلب يعزيه به (٣) .

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٥ ص ٣١ .

(٢) هو أبو العباس وقيل : أبو الفتح الملك المنسمر خضر بن يوسف ، الظافر (ت ٦٢٧ هـ) انظر الفتح القسي ص ٣٢٩ ، النوادر السلطانية ص ٢٥١ ، الروضتين ج١ ص ٢٧٦ ، شفاء القلوب ص ١٩٦ .

(٣) بازائه في حاشية الأصل (١٣٣/ظ) : (من هنا تكتب) وأيضاً (آخر المجلد) .

وقال العماد (١) : انتقل السلطان ، رحمه الله ، من دار الفناء إلى دار البقاء ، سحرة يوم الأربعاء ونابت الظلماء عن الضياء ، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين (٢) في السرار ، ودجت مطالع الأنوار . ومات بموته رجاء الرّجال ، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال ، وغاصت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، ودفن بقلعة دمشق بمسكنه ، فَدُفن جماع الفضل والكرم بمدفنه ، ثمّ بنى الملك الأفضل (٣) قبة شمالي الجامع في جواره ، بشباك إلى الجامع لزوّاره . ونقله إليها يوم الخميس : يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين ، واسترجعنا وقلنا : مالنا إلاّ أن نستعيذ بالله ونستعين ، قال : ومما قلته رباعيّة في المرثية :

١ – قال الملك النّاصر من كلّفني
في الجود (بشيمتي)(٤) فما أنصفني

٢ – مايعلم أن ذلك الملك فني
لم يبق من (الوجود)(٥) إلاّ كَفَني

وقال العماد أيضاً في رسالته الموسومة بعتبى الزمان : (٦) (وكان السلطان ، رحمه الله ، لمّا توفي ، دفن بالقلعة في منزله ، وما زال

---

(١) انظر الفتح القسي ٣٢٦ – ٣٢٧ .
(٢) في شفاء القلوب ص ١٨٠ (وقيل : رابع عشرين بعد صلاة الصبح) .
(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ١٣١ .
(٤) في الروضتين ج ٢ ص ٢٤١ (شيمتي) .
(٥) في الروضتين ج ٢ ص ٢١٤ (الوجود) .
(٦) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٢١٤ – ٢١٥ .

الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه ، واستشار في ذلك ، فأشير عليه في سنة تسعين ، بأن يبني تربته عنـد مسجد القدم ، ويبني عندها مدرسة للشـافعية ، وقالوا : إذا وصـل الملك العزيز (١) استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها وقالوا: إن السلطان ،رحمه الله، لمّا مرض بحرّان سنة إحدى وثمانين ، وصىّ أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا . ويكون قبره على / النهج السابل وطريق القوافل ، ليدعو (١٣٣/ظ) له الوارد والصادر ، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر ، قالوا : وإن تناءت هذه الأرض عن مكان الوصية ، فهي منه قريبة ، فأمر الأفضل ببناء التّربة عند مسجد القدم ، وتولّى عمارتّها بدر الدين مودود والي دمشق ، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار ، وهم قد شرعوا في عمارتها ، فخرّب ماكان قد ارتفع من البناء ، ثمّ استمرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التّربة فيهـا ، فوفّق لدارٍ كانت لبعض الصالحين ، وهي في حدّ المكان الّذي زاده الأجلّ الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه ، وأمر بعمارتها قُبة فعُمّرت ، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ، ومشى الأفضل بين يدي تابوته ، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم الّتي فيها منّته ، فقال لهم الأفضل : كفته أدعيتكم الصالحة الّتي هي في المعاد جُنّته ، وحمله مماليكه وخدمه وأولياؤه وحشمه ، وأُخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد ، وأُدخل منه إلى الجامع ، ووُضـع قدّام باب النسر ، وصلّى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي بإذن الأفضل ، ثمّ حُمل منه على الرؤوس إلى بطن مُلحده ثمّ جاء

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٥) ص ١٣٠ .

الأفضل وحده ، ودخل لحده ، وأودعه ، وخرج ، وسدّ على أبيه الباب ، وجلس هنـــاك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء . وأنفقت ستّ الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة .

قلتُ : وحُكي لي (١) : أنه رُؤي في المنام النبيّ صلّى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة ، زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله ، وأنّهم لمّا صاروا عند الشباك سجدوا . وذُكِرَ : أنّه دفن معه سيفه الّذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي القاضي الفاضل، وقال: (٢) هذا يتوكأ عليه إلى الجنّة . وفي بعض الكتب الفاضلية : (أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان رحمه الله . قائلاً يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن . — وهو من الأثر النبوي (الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر) — (٣) ، قال : (وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالإضافة إلى ماصار إليه إلاّ في سجن ، فرضي الله عن تلك الروح ، وفتح له باب الجنّة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح (٤) .

وكتب العماد عن الملك الأفضل إلى بغداد (٥) : (أصـــدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء ،

---

(١) قصد محمد بن القادسي انظر الروضتين ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) في الروضتين ج ٢ (وقيل) ٢١٤ .

(٣) انظر المعجم المفهرس ج ٢ ص ٤٣١ ، ومسلم بن حجاج ، زهد ج ١ ص ٥٠ ، والترمذي ، زهد ١٦ ، ابن ماجة ، زهد ٣ ، أحمد بن حنبل ج ٢ ص ١٩٧ — ٣٢٣ و ٣٨٩ — ٤٨٥ .

(٤) بازائه حاشية في الأصل (١٣٤/و) . (نقل السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب في كون الرضاء لله على نبيه رؤي يزور قبره) .

(٥) انظر : الفتح القسي ٣٤٠ — ٣٤٣ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٢٥ .

ويده / مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر (١٣٤/و) النّعماء ، وجنانه ثابت من المحبّة والمهابة على الخوف والرجاء ، وطرفه مغضٍ من الحياء ، وهو للأرض مُقبِّل ، وللفرض متقبل ، وهو يمت بما قدّمه ، وأسلفه من الخدمات ، وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات وقد أحاطت العلوم الشريفة . بأن الوالد السعيد ، الشهيد السديد ، الممثر (١) للشرك المبيد . لم تزل أيام حياته وإلى ساعة وفاته مستقيماً على سنن الجدّ مستقيماً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد ، ومصر بل الأمصار في اجتهاده شاهدة ، والأنجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة ، والبيت المقدّس من فتوحاته ، والملك العقيم من نتائج عزماته ، وهو الّذي ملك ملوك الشرق وغلّ أعناقها ، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها . وقمع عبدة الصلبان وقطع أصلابها ، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها ، ونظّم أسبابها ، وسدّ الثغور ، وسدّد الأمور وقبض وعدلهُ مبسوط وأمره محوط ووزره محوط وعمله بالصلاح منوط ، وماخرج من الدنيا إلاّ وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل ، وبمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحل ،ولم يكن له وصيّة إلاّ بالاستمرار على جادّتها ، والاستكثار من مادّتها ، وإن مضى الوالد على طاعة إمامه ، فالمماليك أولاده ، وأخواه في مقامه) .

وختم العماد الكاتب كتابه البرق الشامي بقصيدة نظمها ، رثى بها السلطان وعددها في ديوانه بخطّه مائتان واثنان وثلاثون بيتاً،أوّلها(٢) :

---

(١) في الروضتين ج ٢ ص ٢٢٥ (المبير) . والمثرة (في لسان العرب) الذحل والعداوة وجمعها مثر .

(٢) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣ ، شفاء القلوب ص ١٨١ - ١٨٣ .

١ ـ شمل الهدى والملك عمّ شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناتهُ

٢ ـ أين الّذي كانت لـه طاعاتنا
مبذولةً ولربّه طاعاتُه ؟

٣ ـ أين الّذي عنت الفرنج لبأسهِ
ذلاً ومنها أُدركت ثاراتُهُ ؟

٤ ـ مَنْ في الجهاد صِفاحُه ماأُغمدت
بالنّصرِ حتى أغمدت صفحاتهُ ؟

٥ ـ لذّ المتاعبَ في الجهاد ولم تكن
مذ عاش قطّ لِذاتهِ لذّاتهُ

٦ ـ (مسعودة عدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواتهُ)(١)

٧ ـ في نصرة الإسلام يسهر دائباً
ليطول في روض الجنان سُباتهُ / (١٣٤/ظ)

٨ ـ لاتحسبوه مات شخص واحد
(فممات)(٢) كلّ العالمين مماتهُ

٩ ـ الدين أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاتهُ

---

(١) البيت السادس لم يرد في نسخة المغرب .
(٢) في شفاء القلوب ص ١٨٢ (بل عم) .

١٠ – من لليتامى والأرامل راحــم

متعطّف مفضوضــة صدقاتهُ)؟

١١ – لو كان في عصر النّبي لأُنزلت

في ذكره من ذكره آيــــاتهُ

١٢ – فعلى صلاح الدين يوسف دائماً

رضوان ربّ العرش بل صلواتهُ

١٣ – وكعادة البيت المقدّس يحزن الـ

ــبيت الحرام عليه بل عرفاتهُ

١٤ – بكت الصوارم والصواهل إذ خلت

مِنْ سَلّها وركوبها غزواتهُ

١٥ – ياوحشــة الإسلام يوم تمكّنت

في (كلّ قلبٍ)(١) مؤمنٍ روعاتهُ

١٦ – وقف الملوك على انتظار ركوبه

لهم ففيم تأخّرت ركباتــهْ

١٧ – كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه

واليوم هم حول السرير مشاتهُ

١٨ – هذي مناشير الممالك تقتــضي

توقيعه فيها فأين دواتــهُ ؟

(١) في الأصل ١٣٥ /و (كل مؤمن) ومااثبتناه عن الروضتين ونسخة المغرب وسفاء القلوب .

١٩ ــ والقدس طامحة إليك عيونــه
عجّل فقد طمحت إليه عداته

٢٠ ــ أضجرتَ منّا أم أنفتَ فلم يكن
ممّن تُصاب لشدّةٍ ضجراتــهُ

٢١ ــ أعزز على عيني برؤية بهجة الــ
ــدنيا ووجهك لاتُرى بهجاتــهُ

ورثاه جعفر بن شمس الخلافة (١) بقصيدة منها (٢) :

١ ــ ألستَ ترى كيف انبرى الخطب ثائراً
ومدّ يداً منه إلى دافــع الخطــبِ

٢ ــ إلى النّاصرِ الملك الّذي مُلِئت به
قلوب البرايا من رجاءٍ ومن رعبِ

٣ ــ كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يــكن
لينزله إلاّ عــلى السهل والرُحبِ

٤ ــ ولو خاب منه قبل ذلك ســـائل
لخاب وليس البخل من شيم السحبِ

(١) هو : أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبو عبدالله محمد ابن شمس الخلافة مختار الأفضلي الملقب بمجد الملك (ت ٦٢٢ هـ ــ ١٢٢٦ م) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٣ ، والحاشية رقم ٦٠٤ في شفاء القلوب ص ١٨٤ .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٢٤ ، شفاء القلوب ص ١٨٥ حيث يذكر /١٦/ بيتاً من القصيدة ،

٥ ــ قضى(فقضى)(١)المعروف وانقرض الندى

وحُطّت رحال الوفد في الشرق والغربِ

٦ ــ أفاض على الدنيا سجال نوالــــه

ففاضت عليه أعين العُجم والعُرب

٧ ــ ولو أنّه يُبكى على قــدر حقّهِ

(أسال)(٢) دموع المزن من أعين الشهب

٨ ــ / جزاهُ عــن الإســلام خيراً إلهُهُ (١٣٥/و)

فما ملّ عنه من دفاعٍ ومــن ذبٍّ

٩ ــ تداركه بعد ابتذالٍ فقــد غــــدا

وكان شديد الخوف في أمنع الحُجبِ

١٠ ــ وأصبح للبيت المقدّس مُنقــــذاً

بأصلب عزم من مقارنة الصُلــبِ

١١ ــ أذلّ له الله العدا مذ أطاعَـــهُ

وسهّل منهــم كلّ ممتنع صعبِ

١٢ ــ (ففي) (٣) الخلد عند الله دار مقرّه

يُمتّع مِنهُ بالجوارِ وبالقربِ

---

(١) في شفاء القلوب (فانقض) ص ١٨٥ .

(٢) في شفاء القلوب (لسالت) ص ١٨٥ .

(٣) في الروضتين ج ٢ (سقى) ص ٢٢٤ .

فصل في تركة السلطان ، ووصف أخلاقه . رحمه الله (١) :

ذكر القاضي بهاء الدين بن شدّاد : أنّه لمّا مات ، لم يخلف في خزانته من الذهب والفضّة إلاّ سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجُرماً (٢) واحداً ذهباً صُورياً ، ولم يخلّف مُلْكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ، ولا قريةً ، ولا مزرعةً — يعني لا في البلد مُسقَفاً ولا ظاهراً مُستَغلاً من أنواع الأملاك — .

وقـال العماد الكاتب في كتابه الفتح القُسي : خلف السلطان صلاح الدين ، رحمه الله ، سبعة عشر ولداً ذكراً وابنةً صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ، ومحاسن كثيرة . ولم يخلف في خزانته سوى ديناراً واحداً ، وستة وثلاثين درهماً ، فإنّه كان بإخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مُغرماً ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، وإذا عرف بوصول حملٍ وقّعَ عليه بأضعافه ، وخصّ الآحـاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولا جَبَّهَ أحداً بالردّ إذا سأله ، بل تلطّف له ، كأنّه استمهله ، فإنّه يقول : ماعندنا شيء الساعة ، ومفهومه أنه يعطي وإن كان يبطيء ، وأنّه يصيبـه بالنوال ولا يخطيء ، وكان مشغوفاً في سبيل الله بالإنفاق ، موقوفاً عزمه في الأعداء بإدناءِ الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق ، وما عُقر

---

(١) انظر : الفتح القسي ص ٣٢٧ — ٣٤٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٩٦ — ٩٧ بخلاف حيث ذكر (أربعون درهماً) ، النوادر السلطانية ص ٣ — ٢٤ ، الروضتين ج ٢ ص ٢١٧ — ٢٢٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤ ، شفاء القلوب ص ١٩٠ — ١٩٧ .

(٢) جرم : أي دينار . انظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤ .

في سبيل الله فرس أو جُرح إلاّ وعوّضَ مالكه مثله ، وزاده من فضله فضلةً ، وحُسِبَ ماوهبه من الخيل العِراب والأكاديش(١) الجياد ، للحاضرين معه في صَفِّ الجهادِ مدّة ثلاث سنين وشهر . منذ نزل الفرنج على عكا في رجب ، سنه خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبـــان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وجحش وأكديش / ، وذلك غير ماأطلقه (١٣٥/ظ) من المال في أثمان الخيل المصابة في القتال .ولم يكن له فرس يركبه إلاّ وهو موهوب (٢) ، أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه . وما حضر اللّقاء إلاّ استعار فرساً فركبه وهجر جياده ، فإذا نزل جاء صاحبه واستعاده ، فكُلّهم يركبُ خيله ، ويطلب خيره ، وهو يستعر جواداً ، ويستعِدّ في الجهاد اجتهاداً . قال : وحضرت بعده عند بعض الملوك ، وقد قيدت إليه عراب(٣) فقيل له : كان السلطان يضيع هذه ، ومالها عنده حساب ، ونسبوا جوده بها إلى السرف ، وعدّوه من معـــائبه ، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه . وبمثل ذلك استتبّت له الفتوح ، وخلصت له طاعة كتائبه) . قـــال : (وكان رحمه الله لايلبس إلاّ مايحلّ لبسه ، وتطيب به نفسه ، كالكتان والقطن والصوف ،وكسوته يخرجها في إسداء المعروف ،وكانت

---

(١) الاكاديش . جمع مفردها كدش وهو ابن الفرس ليس أصيل الأبوين ، ولا يزال هذا دارجاً في ريف القطر السوري .

(٢) كل ماوهب لك من ولد وغيره فهو موهوب ، والوهوب : الرجل الكثير العطاء) . انظر لسان العرب .

(٣) الاعراب (في لسان العرب) معرفتك بالفرس العربي من الهجين إذا مهل ، وخيل عراب : معربة .

محاضره مصونة من الحظر وخلواته مقدّسة بالطُهّر ، ومجالسه منزّهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعتُ له قطّ كلمة تسقط ، ولا لفظة فظّة تُسخط ، ويغلظ على الكافرين الفاجرين ، ويلين للمؤمنين المتقين ، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد ، ويكلّم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد ، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء والأسباب ، أعلم منهم بالأحكام الشرعية والآداب المرضية والأدلّة المرعيّة ، وكان من جالسه لايعلم أنّه جليس السلطان . بل يعتقد أنّه جليس أخٍ من الإخوان ، وكان حليماً مُقيلاً للعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفياً صفياً ، يُغضي ولا يغضب ، ويبشر ولا يتقطّب ، ماردّ سائلاً ، ولا صدّ نائلاً ، ولا أخجل قائلاً ، ولا خيّب آملاً) .

قال : (ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان . فلمّا وصل ، سأله عن سبب تخلفه فذكر ديْناً ، فأحضر غرماءه وتقبّل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصريّة وكسراً) . قال : (ولمّا كنّا بالقدس في سنة ثمان وثمانين . كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر ، أن واحداً ضمن معاملة بمبلغ . فاستنهض منها ألفي دينار وتسحّب ، وربما وصل إلى الباب فتحيّل وتمحّل وكذب ، فجاء من أخبر السلطان : بأن الرجل (١٣٦/و) بالباب ، فقال له : قل له : إنّ ابن منقذ (١) / يطلبك ، فاجتهد أن لاتقع في عينه ، فعجبنا من حلمه وكرمه ، بعد أن قلنا : قدم الرجل إلى حينه بقدمه) . قال : (ومما أذكره له في أوّل سفري

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٦ .

معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين أنّه حوسب صاحب ديوانه . عمّا تولاّه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه . فما طلبها ولا ذكرها ، وأراه أنّه ماعرفها ، على أنّ صاحب الديوان ماأنكرها ، وكان يرضى من الأعمال بما يحمل صفواً عفواً ، ويحصل عذباً حلواً ، وكلّه يخرج في الجود والجهاد ، ثمّ لم يرض له بالعطلة ، فولاّه ديوان جيشه) . قال : (ولمّا كنّا بظاهر حرّان (١) ، عمّ بصدقاته الفقراء والمساكين . وكتب إلى نوابه في الولايات ، بإخراج الصدقات . وقال لي : اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق ، أن يتصدّق بخمسة آلاف دينار صوريّة . فقلت له : الذهب الذي عنده مصري ، فقال : يتصدّق بخمسة آلاف دينـار مصريّة ، وأشفق مـن صرف المصري بالصوري فيكون حراماً . ويكتسب في الأجر آثاماً ، فسمح ومنح ، وتاجر الله وربح . ولمّا عزم على الرحيل من حرّان ، أفاض بها الفضل ، وبثّ الإحسان ، وقال لي يوم الرحيل : انظر كم بقي بالباب مـن الوافدين أبناء السبيل ، وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم ، وكانوا عدّة يسيرة لم تبلغ عشرة . فعيّنت لكلّ اسم قسماً ، فبلغ أربعمائة دينار فأعلمته ، وقلت : أُنقص من كلّ قسم ربعاً ، فقال : أجرِ ماجرى به القلم) . قال : (وكان ،رحمه الله، إذا أطلق لعافٍ عارفةً ، وقلت له : هذه مايكفيه ردّها مضاعفة) . قال : (وكان يغضب للكبائر ،ولا يغضي عن الصغائر ،ويرشد إلى الهدى،

(١) حران مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مصر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم . (معجم البلدان) .

ويهدي إلى الرشاد . ويسدّد الأمر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصّه . بل أمراؤه وأجناده ، أعفّ من الزهاد العُبّاد) . قال : (ورأى لي يوماً دواة محلاّة بالفضّة ، فأنكرها ، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد والد الإمام أبي المعالي (١) قد ذكر وجهاً في جوازه . ثمّ لم أكتب بها عنده بعدها) . قال : (وكان محافظاً على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها ، مواظباً على أداء مفروضاتها ومسنوناتها ، فما رأيته صلّى إلاّ في جماعة ، ولم يُؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة / ، وكان له (١٣٦/ظ) إمام راتب ملازم مواظب ، فإن غاب يوماً صلّى من حضره من أهل العلم إذا عرفه مُتقياً متجنباً للإثم ، وكان يأخذ بالشرع ، ويعطي به . ولم يكن إلى المنجّم مصغياً . ولم يزل لقوله مُلغياً ، ولا يتعيّف ولا يتطيّر ، ولا يعيّن وقتاً ، ولا يَتخيّر ، بل إذا عزم توكّل على الله ، فلا يفضّل يوماً على يوم ولا زماناً على زمان إلاّ بتفضيل الشرع . ومازال ناصراً للتوحيد ، وقامعاً جميع أهل البدع بالتبديد ، شافعي المذهب أصولاً وفروعاً معتقداً له معقولاً ومسموعاً ، يدني أهل التنزيه ، ويقصي أهل التشبيه ، ويديم استفادة فقه الفقيه ، واستزادة نباهة النّبيه ووجاهة الوجيه ، فالعالِمون في عدله ، والعالمون في فضله والبلاد في أمنه والعباد في منّه) .

وقال القاضي ابن شداد ، رحمه الله : كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت(٢) ،

---

(١) هو : أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الطريثيثي النيسابوري ، المنعوت بالقطب الشافعي ولد سنة خمس وخمسائة (ت ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م) بدمشق ودفن في مقابر الصوفية . انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٢ - ٣١٣ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٣ ، ترويح القلوب ص ٨٨ .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول ص ٢٦٣ حاشية رقم ٤ .

وكان والده أيوب بن شاذي (١) والياً بها إذ ذاك ، وكان حليماً كريماً أريحيّاً ، حسن الأخلاق ، مولده بدَوين (٢) ، ثمّ اتّفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام إلى أن ترعرع ، وكان والده محترماً مقدّماً ، هو وأخوه أسد الدين شيركوه (٣) عند الأتابك زنكي (٤) ، واتّفق لوالده الانتقال إلى الشام ، وأُعطي بعلبك ، وأقام بها مدّة . ومعه ولده المذكور . فأقام في خدمة والده ، يتربّى تحت حجره ، ويرتضع محاسن أخلاقه ، حتّى بدت منه أمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، وقدّمَه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، رحمه الله ، وعوّل عليه ، ونظر إليه ، وقرّبه وخصّصه ، ولم يزل كلّما تقدّم قدماً ، تبدو منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه ، حتّى اتّفق لعمه أسدالدين الحركة إلى مصر ، والنهوض إليها . فذكر القصّة في سلطنته ، وقد تقدّم ذلك) . ثمّ قال : (ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينيّة ، وملاحظته للأمور الشرعيّة ، ورد في الحديث الصحيح عن النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، أنّه قال : (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت)(٥) . قال : (وكان السلطان رحمه الله / حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى قد أخذ (١٣٧/و)

---

(١) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٢٦٢ حاشية رقم (٣) .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول ص ٢٦٣حاشية رقم (١) .

(٣) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٢٤٦حاشية رقم (٥) .

(٤) انظر ترجمته في القسم الأول ص ١٨٣ حاشة رقم(٢) .

(٥) انظر المعجم المفهرس ج ١ ص ٢٢١ .

عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع المشايخ العلماء وأكابر الفقهاء ، ويفهم من ذلك مايحتاج إلى تفهّمه ، بحيث أنّه كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فيحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل جارية على نمط الاستقامة .

وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع مايُحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدّة حرصه عليها ، يعلّمها الصغار من أولاده ، حتّى تترسّخ في أذهانهم من الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها من حفظه بين يديه ، قال : وأمّا الصلاة : فإنّه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتّى أنّه رحمه الله ذكر يوماً أنّ له سنين ماصلّى إلاّ جماعة ، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ، ويكلف نفسه القيام ، ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له ركعات يصلّيها إن استيقظ بوقت من الليل ، وإلاّ أتى بها قبل صلاة الصبح ، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه ، ولقد رأيته في مرضه الّذي مات فيه يصلّي قائماً ، وما ترك الصلاة إلاّ في الأيام الثلاثة الّتي تغيّب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى ، وأمّا الزكاة : فإنّه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه الزكاة ، وأمّا صدقة النفل : فإنّها استنفدت جميع ماملكه من الأموال ، وأما صوم رمضان : فإنّه كان عليه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضان متعدّدة ، وكان القاضي الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام،وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة الّتي توفي فيها ، وواظب على الصوم

مقدار زائد على شهر، فإنّه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ، وكان الصوم لايوافق مزاجه ، فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبّت الأيام الّتي يصومها ، فإنّ القاضي كان غائباً والطبيب ياومه وهو لايسمع ، ويقول : لاأعلم مايكون ، فكأنّه كان ملهماً براءة ذمّته ، ولم يزل حتى قضى ماعليه رحمه الله ، وأمّا / الحجّ : فإنّه لم يزل عازماً (١٣٧/ظ) عليه وناوياً له ، لاسيما في العام الّذي توفي فيه ، فإنّه صمّمَ العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعُملت الزوّادة ، ولم يبق إلاّ المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عمّا يليق بأمثاله ، فأخّره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ماقضى) . قال : (وهذا شيء اشترك في العلم به الخاصّ والعامّ ، وكان رحمه الله يحبُّ سماع القرآن العظيم ، حتى أنّه كان يستخير إمامه ويشرط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه ، وكان يستقرىء من يحضره في الليل وهو في برجه الجزأين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع ، وكان يستقرىء في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته فقرّبه ، وجعل له حظاً من خاصّ طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعةٍ ، وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة ، إذا سمع القرآن يخشع قلبه ، وتدمع عينه في معظم أوقاته ، وكان شديد الرّغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممّن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصّين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث

إجلالاً له ، وإن كان الشيخ ممّن لايطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، تردّد إلى الحافظ السلفي(١) بالإسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، فكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرأ هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة ، رقّ قلبه ، ودمعت عينه ، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلاً : تبعث الأجسام ونشورها ، ومجازات المحسن بالجنّة ، والمسيىء بالنّار ، مصدّقاً بجميع ماوردت به الشرائع ، منشرحاً بذلك صدره ، مُبغضاً للفلاسفة والمعطّلة والدّهريّة ، ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده الظاهر ، صاحب حلب ، بقتلِ شاب كان نشأ ، يُقال له : السهروردي (٢) قيل عنه : أنّه كان معانداً للشرائع مُبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور ، لما بلغه من خبره ، (١٣٨/و) وعرّف / السلطان به ، فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله ، وكان حسن الظنّ بالله كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ؛ ولقد شاهدت من آثار ذلك ماأحكيه ، فذكر التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج ببيت المقدس ، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر ، فصلّى ودعا ، فكُفي ذلك ، وقد تقدم ذكره) .

ثمّ قال : (وكان رحمه الله ، عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القويّ ، وكان يجلس للعدل في كلّ يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين ، حتّى يصل إليه كلّ أحد من كبير وصغير ،

---

(١) أنظر ترجمه في حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٢ .

(٢) هو الفيلسوف شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك قتل سنة ٥٨٧ هـ العبر ج ٤ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٩٠ .

وعجوز هرمة . وشيخ كبير . وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنّه كان في جميع زمانه قابلاً لما يُعرض عليه من القصص . كاشفاً لما يُنهى إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كلّ يوم ، ثمّ يجلس مع الكاتب ساعة ، إمّا في الليل أو النهار ، ويوقع على كلّ قصة بما يطلق الله على قلبه . وما استغاث إليه أحد إلاّ وقف وسمع ظلامته وأخذ قصّته وكشف قضيته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق ، يُقال له : ابن زهير (على) (١) تقي الدين ابن أخيه(٢) ، فأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم ، فما خلّصه إلاّ أن أشهد عليه شاهدين ، أنّه قد وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين ، قاضي حماة في المخاصمة ، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه ، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم . فساواه ، وكان من خوّاص جلساء السلطان ، ثمّ جرت المحاكمة بينهما ، واتّجهت اليمين على تقي الدين ، وكان تقي الدين من أعزّ الناس عليه وأعظمهم عنده . ولم يحابه في الحقّ) . قال : (وكنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل علـيّ شيخ حسن ، تاجر معروف يُسمّى عمر الخلاطي (٣) ومعه كتاب حكمي ، سـأل فتحه وقال : خصمي السلطان وهذا بساط الشرع . وقد سمعنا أنّك لاتحابي ، فقلت : وفي أي قضيّة هو خصمك ؟ فقال : إنّ سنقر الخلاطي ،

(١) في النوادر السلطانية ص ٩ (علي) .

(٢) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٣٠٩ حاشية رقم ٥ .

(٣) لم أعثر على ترجمة له ، وربما نسبه يعود إلى خلاط وهي (في ياقوت) البلد: العامرة المشهورة طولها أربع وستون درجة ونصف وثلث ، وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلثان ، في الاقليم الخامس ، وهي قصبة أرمينية الوسطى .

كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلّها لي ومات عنها . واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه بها (١) ، فقلت : ياشيخ وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية ؟ فقال : الحقوق لاتبطل بالتأخير . وهذا الكتاب الحكمي / ينطق بأنّه لم يزل (١٣٨/ظ)
في ملكي إلى أن مات ، فأخذت الكتاب منه ، وتصفّحت مضمونه ، فوجدته يتضمّن حلية سنقر الحلاطي ، وأنّه اشتراه من فلان التاجر نارجيش (٢) في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا ، وأنّه لم يزل في ملكه إلى أن شذّ عن يده سنة كذا . وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجهٍ ما ، وتمّم الشرط إلى آخره ، فتعجّبتُ من هذه القصّة . وأعلمت السلطان بذلك ، فأحضره واستدناه ، حتى جلس بين يديّ ، وكنت إلى جانبه ثمّ انفرك رحمه الله من طرّاحته حتى ساواه ، ثمّ ادّعى الرجل وفتح كتابه . وقرىء تاريخه ، فقال السلطان ، رحمه الله ، لي من يشهد أنّ هذا سنقر في هذا التاريخ ، كان في ملكي وفي يدي بمصر . وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدّم على هذا التاريخ بسنة ، وأنّه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته ، ثمّ استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين . فشهدوا بذلك . وحكوا القصة كما ذكرها ، وذكروا التاريخ كما ادّعاه . فأبلس (٣) الرجل ، فقلت له : يامولاي ،

---

(١) يعود هذا الحق إلى نظام الرقيق ، فإذا أعتق العبد أصبح مولى لسيده الذي أعتقه ، وإذا مات هذا المولى أو كان لايزال في الرق ، ولم يك له وريث من صلبه ، يصبح الحق في إرثه لسيده الذي يملكه أو لمولاه الذي أعتقه .

(٢) لم أعثر على ترجمته .

(٣) الإبس والأبس (في لسان العرب) بكع الرجل بما يسوءه .

هذا الرجل مافعل ذلك إلاّ طاباً لمراحم السلطان . وقد حضر بين يدي المولى ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد . فقال السلطان ، رحمه الله : هذا باب آخر ، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة (١) ، قال : فانظر إلى مافي طيّ هذه القصة من المعاني الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد إلى الحق . وإرغام النّفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامّة رحمة الله عليه . قال : وكرمه كان أظهر من أن يسطّر ، كان يهب الأقاليم . وفتح آمد (٢) ، فطلبها منه ابن قرا رسلان(٣) فأعطاه إيّاها ، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ، ولم يكن في الخزانة مايعطيهم ، فباع قرية من بيت المال ، وفضضا عنها عليهم . ولم يفضل منه درهم واحد . وكان يُعطي في وقت الضائقة كما يُعطي في حال السعة ، وكان نواب خزانته . يُخفون عنه شيئاً من المال حذار أن يفجأهم مُهمٌ لعلمهم أنّه متى علم / به (١٣٩/و)
أخرجه . وسمعته يوماً يقول : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال ، كما ينظر إلى التراب ، فكأنّه أراد بذلك نفسه ، وكان يعطي فوق مايؤمّل الطالب . وما سمعته يوماً قطّ يقول : أعطينا فلاناً ،

---

(١) بازائه في حاشية الأصل ١٣٩/و (وجدت في بعض المجاميع أن شخصاً زور على السلطان صلاح الدين رحمه الله توقيعاً بألف دينار على الخزانة ، فأنكره المباشرون ، ودخلوا بالتوقيع إلى السلطان فأوقف عليه القاضي الفاضل فقال : يضع مولانا السلطان علامته بجانب هذه العلامه ليميز بينهما ، فلما كتب علامته قال : يامولانا السلطان إن كانت تلك العلامة زورا فهذه الآن حق ، فما حمل الرجل على هذه الفعلة إلا الحاجة وصدقات مولانا السلطان كثيرة ، فضحك السلطان رحمه الله وأمضى التوقيع) .

(٢) انظر تعريفها في القسم الأول ص ١٨٧ حاشية رقم ٣ .

(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٩٦ .

وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمُعطَى بسط من لم يعطِ شيئاً ؛ وكان الناس يستزيدونه في كلّ وقت ، وما سمعته قطّ يقول : قد زدت مراراً فكم أزيد ؟ وأكثر الرسائل تكون على لساني ويدي ، وكنت أخجل من كثرة مايطلبونه ، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك ، وماخدمه قطّ أحد إلاّ وأغناه عن سؤال غيره . وأمّا تعداد عطاياه ، وتعداد صنوفها ، فلا مطمع فيه أصلاً ، ولقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي وقد تجارينا عطاياه ، فقال : حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير . فكان عشرة آلاف فرس ، ومن شاهد مواهبه يستقلّ هذا القدر — اللّهم أنت ألهمته الكرم وأنت أكرم منه . فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك . ياأرحم الراحمين — قال : وكان . رحمه الله . من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات . لايهوله أمر ، ولقد رأيته مُرابطاً في مقابلة عدّة عظيمة من الفرنج ، ونُجدهُم تتواصل ، وعساكرهم تتزايد . وهو لايزداد إلاّ قوّة نفس وصبراً ، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس . وهو لايزداد إلاّ قوّة نفس . ولقد كان يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة ، ولقد سألت باليان بن بارزان . وهو من كبار ملوك الساحل ، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدّتهم ؟ فقال الترجمان عنه إنّه يقول : كنت أنا وصاحب صيدا — وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم — قاصدين عسكرنا من صور ، فلمّا أشرفنا عليه تجاوزناه ، فحزره هو بخمسمائة ألف . وحزرته أنا بستمائة ألف أو قال

عكس ذلك ، فقلت له : فكم هلك منهم ؟ فقال : أمّا بالقتل فقريب من مائة ألف . وأمّا بالموت والغرق . فلا يُعلم . وما رجع من هذا العالم إلاّ الأقلّ .

قال القاضي : (١) وكان لابدّ له من أن يطوف / حول العدوّ (١٣٩/ظ) كلّ يوم مرّة أو مرّتين إذا كنّا قريباً منهم . وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، على يده جنيب (٢) . ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة . يُرتّب الأطلاب (٣) . ويأمرهم بالتقدّم ، والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره ، ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفّين . وذلك أني قلت له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة . وما نُقل أنّه سُمع بين الصفّين . فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك ، كان حسناً . فأذن في ذلك . فأحضر جزءاً هناك من له به سماع . فقُرىء عليه ، ونحن على ظهور الدوابّ بين الصفّين . يمشي تارة ويقف أخرى . ومـا رأيته استكثر العدوّ أصلاً . ولا استعظم أمرهم قطّ ، وكان مع ذلك يذكر بين يديه الأقسام كلّها في حال الفكر والتدبير . ويرتّب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ، ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤس والعَلَم ، وهو ثابت القـدم في نفرٍ يسير وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم

---

(١) انظر الخبر مطولا في الروضتين ج٢ ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

(٢) جنيب (في لسان العرب) يقال ارسلوا مجنبتين ، أي كتيبتين أخذتا ناحيتي الطريق وقيل : هي الكتيبة التي تأخذ احدى ناحيتي الطريق ، وجنيب : قاده إلى جنبه .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٥ ص ١٣٤ .

حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك ، حتى عَكَرَ المسلمون على العدوّ في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهاء سبعة آلاف ، مابين راجل وفارس . ولم يزل مُصابراً لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإنّ الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنّهم كانوا يتوقّعون النُجَد ، ونحن لانتوقّعها ، وكانت المصلحة في الصلح . وكان ، رحمه الله ، يمرض ويصحّ ، وتعتريه أحوال مهولة ، وهو مُصابر مرابط ، وتتراءى النّاران ، ويُسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منّا صوت الأذان إلى أن انقضى الأمر . قال :

وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف : أنّه ماأنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلاّ في الجهاد أو في الإرفاد ، لصدق ، وبرّ في يمينه ، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ،

(١٤٠/و) بحيث ماكان له حديث إلاّ فيه ، ولا نظر إلا آلته ، ولا اهتمام إلاّ برجاله /. ولاميل إلاّ إلى من يذكره ويحثّ عليه . ولقد هجر في محبّة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه ، وسكنه وسائر ملاذّه . وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمة ، تهبّ بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريّحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في المرج ، وإلا قتلته ، ولم يزده ذلك إلاّ رغبة ومصابرةً واهتماماً . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثه على الجهاد ، أو يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد ، ولقد أُلّف له كتبٌ عدّة في الجهاد ، وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً ، ولأحكينّ عنه ماسمعت منه في ذلك : في سنة أربع وثمانين ، لمّا ودّع أخاه وعسكر مصر بعسقلان ، سرنا على الساحل طالبي عكا . وكان الزمان شتاء عظيماً ، والبحر هائجاً

هيجاناً عظيماً ، وموجه كالجبال ، كما قال الله تعالى (١) ، وكنت حديث عهد برؤية البحر . فعظم أمر البحر عندي ، حتى خُيّل ليّ أنني لو قال لي قادر : لو جزت في البحر ميلاً واحداً ملّكتك الدنيا ، لما كنت أفعل واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر ، هذا كلّه خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه ، فبينا أنا في ذلك ، إذ التفت إليّ ، وقال : في نفسي (٢) أنّه متى يسرّ الله تعالى فتح بقيّة الساحل ، قسّمت البلاد ، وأوصيت، وودّعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره أتبعهم فيها ،حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت . قال : فعظم وقع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ماكان يخطر لي ، وقلت له : ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى نيّةً منه في نصرة دين الله ، وحكَيتُ له ماخطر لي ، ثمّ قلت له : ماهذه إلاّ نيّة جميلة . ولكنّ المولى يُسيّر في البحر العساكر وهي سُور الإسلام ، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ماأشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله . فقال : غاية مافي اللباب أن أموت أشرف الميتات) قال : (فانظر إلى هذه الطويّة ماأطهرها ، وإلى هذه النّفس ماأشجعها وأجسرها — اللهمّ إنّك تعلم أنّه بذل جهدَهُ في نصرة دينك رجاء رحمتك ، فارحمه) . قال : (وأما صبرهُ فلقد رأيته بمرج عكا ، وهو على غاية / من مرض اعتراه ، (١٤٠/ظ)

(١) ربما أنه قصد الآية (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) سورة الأنعام ٦ الآية ٦٣ .

(٢) في الروضتين ج ٢ (نفسه) ص ٢٢٢ .

بسبب كثرة دماميل (١) ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته . بحيث لايستطيع الجلوس . وإنمّا يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرّق على الناس . وكان رحمه الله مع ذلك كلّه يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر . يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابر على شدّة الألم ، وقوّة ضربان الدماميل ، وكنّا نعجب من ذلك فيقول : رحمه الله : إذا ركبت يزول ألمها عني حتى أنزل قال : وهذه عناية ربّانيّة ، ولقد مرض ونحن على الخروبة (٢) ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه ، فبلغ الفرنج ذلك . فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه — وهي نوبة النهر - فخرجوا في مرحلةٍ إلى الآبارِ التي تحت التل ، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا . فركب رحمه الله على مضضٍ ، ورتّب العسكر ، وجعل أولاده (٣) في القلب ، ونزل هو وراء القوم بطلبه ، وكلّما سار العدو يطلب رأس النهر ، سار هو يستدير إلى ورائهم . حتّى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعة ثمّ ينزل يستريح ، ويُظلّلُ على رأسه بمنديل من شدة وقع الشمس . ولا ينصب له

---

(١) دماميل (في لسان العرب) الدمل : واحد دماميل القروح ، والدمل : الخراج على التفاؤل بالصلاح ،والجمع دماميل . ولا تزال هذه التسمية للقروح دارجه .

(٢) الخروبة (في ياقوت) حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا.

(٣) انظر ترجمتهم في حاشيتنا رقم ٤ و ٥ و ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

خيمـــة حتى لايُري العـــدوّ ضعفـــاً ، ولم يـــزل كذلك حتى نـــزل العـــدوّ برأس النهر ، ونـــزل هـــو قبالتهم عـــلى تل مطلٍّ عليهم إلى أن دخل الليل ثمّ أمر العسكر أن تعود إلى محلّ المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخّر هو إلى قمّة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ، ويستيقظ أخرى . حتى لاح الصباح . ثمّ ضرب البوق وركب رحمه الله . وركبت العساكر ، وفي ذلك اليوم ، قدم أولاده بين يديه احتساباً . الأفضل والظاهر والظافر وجميع من حضره منهم ، ولم يزل يبعث من عنده ، حتى لم يبق عنده إلاّ أنا والطبيب ، وعارض الجيش . والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير ، فيظنّ الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً كثيراً ، وليس تحتها إلاّ واحد بحلق عظيم ، رحمه الله / ، بقي في موضعه والعساكر على (١٤١/و) ظهور الخيل قبالة العدوّ إلى آخر النهار ، ثمّ أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم ، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح ، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس مـــن مضايقة العدوّ . قال : ولقد رأيته ليلة على صفد ، وهو يحاصرها ، وقال : لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمسة مجانيق ، ورتّب لكلّ منجنيق قوماً يتولون نصبه ، وكنّا طول الليل في خدمته في ألذّ فكاهة ، وأرغد عيشة ، والرسل تتواصل مخبرة بأنّه نُصب مـــن المنجنيق الفلاني كذا ومن الآخر كذا ، حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ، وكانت من أطول الليالي ، وأشدّها برداً ومطراً . قال : ورأيته وقد جاءه خبر وفاة ولدٍ له بالغ

أو مراهق ، يُسمّى إسماعيل (١) ، فوقف على الكتاب ، ولم يُعرِّف أحداً ، ولم نَعرِفْ حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنّهُ لمّا قرأ الكتاب دمعت عينه ، رحمه الله . قال : رأيتُهُ وقد وصله خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه (٢) ، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة ، وفي كلّ ليلة تقع الصيحة ، فنقلع الخيام ويقف الناس على ظهر إلى الصباح ، والعدوّ بيازور (٣) وبيننا وبينه شوط فرس لاغير (٤) ، فأحضر العادل (٥) وابن جندر(٦) وابن المقدّم (٧) وابن الداية سابق الدين (٨) ، وأمر الناس فبعدوا

---

(١) هو : الملك الصالح اسماعيل بن يوسف بن أيوب ، صاحب حلب (ت ٥٧٧ هـ) وما يذكره في ترويح القلوب الحاشية ١٥٧ والتي هي تحقيق الملك الصالح اسماعيل وليست للملك المنصور أبو بكر ، إذ في الأمر تصحيف ربما نجم عن الطابع .

انظر الروضتين ج ٢ ص ٢١ ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٣٠٩ حاشية رقم ٥ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧١ .

(٤) شوط الفرس ربما قصد به مسافة طول ميدان السبق والتي تقدر بحوالي ٣٠٠– ٤٠٠ م ولا يزال هذا الاسم دارجاً في ريف القطر العربي السوري .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (١) ص ١١ .

(٦) هو : عزالدين إبراهيم بن المقدم ، كان شجاعاً عاقلا وله قلعة بارين وفامية ومنبج والراوندان (ت ٥٩٧ هـ – ١٢٠٠ م) بدمشق ودفن بمقبرة باب الفراديس . انظر النوادر السلطانية ص ٢٥١ ، الذيل على الروضتين ص ١٢٠ .

(٧) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٤٠٣ حاشية رقم ١ .

(٨) هو سابق الدين عثمان بن الداية (أي قابلة في زمننا) وهو أحد أولاد الداية الأربعة وأمهم دايه نور الدين محمود بن زنكي (لذلك سمي ابن الداية) (ت ٥٩٢ هـ – ١١٩٦ م) انظر : النوادر السلطانية ص ٢٥١ ، الذيل على الروضتين ص ١٠ .

عن الخيمة ، بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم ، ثمّ أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ، ثمّ قال رحمه الله والعبرة تخنقه : توفي تقي الدين ، فاشتدّ بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثمّ عدتُ إلى نفسي ، فقلت : استغفروا الله من هــذه الحالة ، وانظروا أين أنتم وفيما أنتم ، وأعرضوا عمّا سواه . فقال رحمه الله : نعم أَستغفِرُ الله ، وأخذ يكرّرها . ثمّ قال : لايعلم هذا أحد . قال : وكان ــ رحمه الله ــ شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار . وهو صابر على مفارقتهم . راضٍ ببُعدهم عنه . وكان صابراً على مُرّ العيش وخشونته مع القدرة التّامة على غير ذلك احتساباً لله تعــالى ــ اللّهمّ إنّهُ ترك ذلك ابتغاءً لمرضاتك ، فارض عنه برحمتك) . / قال : (ولقد كان ــ رحمه الله ــ حليماً متجاوزاً (١٤١/ظ)
قليل الغضب ، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا ، وكان من عادته ، أنّه يركب في وقت الركوب ، ثمّ ينزل فيمدّ الطعام ، ويأكل مع الناس ثمّ ينهض إلى خيمةٍ خاصٍّ لَهُ ينام فيها . ثمّ يستيقظ من منامه ويصلّي ، ويجلس خلوةً ، وأنا في خدمته ، يقرأُ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه ، ولقد قرأ عليّ كتاباً مُختصراً لسُليم الرازي(١) ، يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه . فنزل يوماً على عادته . ومُدّ الطعــام بين يديه . ثمّ عزم على النهوض ، فقيل لــه : إنّ وقت الصلاة قد قرب ، فعاد إلى الجلوس ، وقال : نُصلّي وننام ، ثمّ جلس يتحدّث حديث متضجرّ . وقد أُخلي المكان إلاّ عمّن لزم ، فتقدّم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصّة لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجر أخّرها ساعة ، فلم يفعل . وقدّم القصّة إلى قريب مــن

---

(١) هو سليم بن أيوب بن سليم الرازي المتوفى سنة ٤٤٧ هـ . فقيه . له مصنفات . (وفيات الأعيان ٢١٢/١) .

وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها ، فعرفه وقال : رجل مستحق ، فقال : يوقّع له المولى . فقال : ليست الدواة حاضرة الآن ، وكان رحمه الله جالساً في باب الخركاه (١) ، بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدرها والخركاه كبيرة ، فقال له المخاطب : هاهي الدواة في صدر الخركاه) قال القاضي : (فليس لهذا معنى إلاّ أمْرُهُ إيّاه بإحضار الدواة لاغير . فالتفت رحمه الله فرأى الدواة ، فقال : والله لقد صدق ، فامتدّ على يده اليُسرى ، ومدّ يده اليمنى وأحضرها ، ووقّع له . فقلت له : قال الله تعالى في حقّ نبيّه ، صلّى الله عليه وسلّم : (وإنّك لعلى خلق عظيم) (٢) ، وما أرى المولى إلاّ قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ماضرّنا شيء ، قضينا حاجته . وحصل الثواب) قال القاضي : (ولو وَقَعتْ هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وَقَعد ، ومَنْ الّذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حُكمه بمثل ذلك ؟ وهذا غاية الإحسان والحلم (والله لايضيّع أجرَ المحسنين) (٣) . قال : ولقد كانت طرّاحته تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو لايتأثّر لذلك ، ولقد نَفَرتْ يوماً
(١٤٢/و) بغلتي مني / وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسّم ، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير كثير الوحل إلى

(١) الخركاه : جمع خركاوات ، كلمة فارسية تعني : القبة التركية ، أي الخيمة التركية ويقال في تعريبها : خرقاهة (انظر : المغرب ج ١ ص ٢٥٢ ، مختارات من كتاب النوادر السلطانية الحاشية رقم ١ ص ٣٣) .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٠ (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

القدس ، فنضحت (١) البغلة عليه مـن الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه وهو يتبسّم ، وأردت التأخُر عنه بسبب ذلك فما تركني ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ مايمكن أن يُسمع ، ويلقى ذلك بالبشر والقبول ، قال : وهذه حكاية يندر أن يُسَطرَ مثلها ، فذكر ماتقدّم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الأنكلتير ، وهو في جمع يسير من أصحابه بعد أن أطافوا به ، وواجه الجناحُ أخو المشطوب بكلام خشن (٢) ، فرجع السلطان مُغضباً ، وظُنَّ أنّهُ رُبّما صَلَب وقَتَلَ في ذلك اليوم ، فنزل بيارور (٣) . وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة ، فطلب الأمراء ليأكلوا فحضروا ، فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، قال : وكان رحمه الله كثير المروءة ، نديّ الوجه ، كثير الحياء منبسطاً لمن يرد عليه من الضيوف ، يُكرم الوافد عليه وإنْ كان كافراً ، ولقد وقف عليه البرنس صاحب أنطاكية . فما أحسّ به إلاّ وهو واقف على باب خيمته ، بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس إلى دمشق . وقد تقدم ذلك ، فعرض له في الطريق ، وطلب منه شيئاً ، فأعطاه العمق (٤) وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين . ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب

---

(١) نضحت (في لسان العرب) النضح : الرش، نضح عليه الماء ينضحه نضحاً، إذا ضربه بشيء ، فأصابه منه رشاش (لسان العرب ج ٢ ص ٦١٨) .

(٢) في النوادر السلطانية ص ١٩ : (وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة ، فأجابه بعض الأكراد بكلام فه خشونة ...) .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧١ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧٩ .

صيدا . فاحترمه وأكرمه وأكل معه وعرض عليه الإسلام . وذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثّه عليه ، وكان يُكرم مَنْ يَرِد عليه من المشـايخ . وأرباب العلم والفضل ، وذوي الأقدار ، وكان يوصينا ألاّ نغفل عمّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى يحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه ، ولقد مرّ بنا في سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوّف . وكان من ذوي الأقدار . وكان أبوه صاحب توزين (١) ، فأعرض هو عن فنّ أبيه ، واشتغل بالعلم والعمل ، وحجّ ، ووصل زائراً لبيت الله المقدّس ، ولما قضى لبانته
(١٤٢/ظ) منه ، ورأى آثار السلطان فيه ، وقع / له زيارته ، فوصل إلينا إلى العسكر ، فلتيته ورحّبت به ، وعرّفت السلطان وصوله ، فاستحضره وشكره عن الإسلام ، وحثّه على الخير ، وانصرف وبات عندي في الخيمة ، فلمّا صلّينا الصبح ، أخذ يودّعني ، فقبّحتُ له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ، ولم يلو على ذلك ، وقال : قضيت حاجتي منه ، ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ، ثمّ انصرف من ساعته ، ومضى على ذلك ليالٍ ، فسأل السلطان عنه ؟ فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار العتَب ، كيف لم أُخبرهُ برواحه ؟ وقال رحمه الله : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل ، وينصرف عنّا من غير إحسان (يَمَسّهُ منّا)(٢) ؟ وشدّد النكير عليّ في ذلك ، فما وجدت بُدّاً من أن كتبت إلى قاضي دمشق كتاباً كلّفته فيه السؤال عن حال الرجل ، وإيصال رقعة كتبتها طيّ كتابي ، أخبرته فيها بإنكار

---

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٦ .

(٢) في الأصل ١٤٣ / و (بمسنا منه) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ وما ثبتناه عن نسخه المعرب .

السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسّنت له فيها العود ، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فعاد واجتمعَ بالسلطان فرحّبَ به وانبسط معه ، واستوحش له ، وأمسكه أياماً ، ثمّ خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركوباً لائقاً وثياباً كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه ونفقة يرتفق بها ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له ، وأخلصهم دعاء لأيامه) . قال (ولقد رأيته رحمه الله وقد مَثُلَ بين يديه أسير أفرنجي وقد هابه ، بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتي له ، وحضوري بين يديه ، أيقنت أني ماأرى إلاّ الخير ، فرقّ له ومَنّ عليه وأطلقه) . قال : (وكنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ، وقد وصل بعض اليزكيّة ومعه امرأة شديدة التحرّق كثيرة البكاء ، متواترة الدقّ على صدرها على ولد صغير لها أخــذه المسلمون ، قال : وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدوّ يسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمّه باتت مُستغيثة بالويل والثبور في طول / تلك الليلة ، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، (١٤٣/و)
فقالوا لها : إنّه رحيم القلب وقد أذنّا لك في الخروج إليه ، فاطلبيه منه ، فإنّه يردّه عليك ، فخرجت تستغيث إلى اليزك الإسلاميّ وأخبرتهم بواقعتها ، فأطلقوها ، وأنفذوها إلى السلطان ، فأتته وهو راكب على تلّ الخروبة وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاءً شديداً ، ومرّغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصّتها ؟ فأخبروه ، فرَقّ لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ،

فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري . وأخذه منه ، ولم يزل واقفاً رحمة الله عليه حتى أُحضر الطفل وسُلِّم إليها ، فأخذته وبكت بكاءً شديداً ، وضمّته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم ، فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها ، فحُملت على فرس ، وأُلحقت بعسكرهم مع طفلها) وقال : (فانظروا إلى هـــذه الرحمة الشاملة لجنس الإنس — اللّهمّ إنّكَ خلقته رحيماً ، فارحمه رحمة واسعة —) قال : (وكان رحمه الله ، لايرى الإساءة إلى مَنْ صَحِبَه وإن أفرط في الخيانة ، ولقد قلّب في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنوّاب شيئاً ، سوى أنّه صرفهم عن عملهم لاغير . وكان رحمه الله حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بِسيرَهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عارفاً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد مُحاضِرُهُ منـــه مالا يسمعه من غيره ، وكان يسأل الواحد منّا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه ، وتقلّبات أحواله ، وكان طاهر المجلس ، لايُذكر بين يديه أحد إلاّ بالخير ، وطاهر السمع ، فلا يحبّ أن يسمعَ عن أحدٍ إلاّ الخير ، وطاهر اللسان ، فما رأيته أولع بشتم قطّ ، وطاهر القلم ، فماكتب بقلمه أذى لمسلم قط ، وكان حسن العهد والوفاء ، فما أُحضر بين يديه يتيم إلاّ وترحّم على مخلفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه [بتربيته] سلّمه) (١) إليه ، وإلاّ أبقى له من

---

(١) في الأصل ١٤٣ / ظ (يعتمد عليه وسلمه) والإضافة من قبلنا لا نسياق المعنى .

الخبز مايكفي حاجته ، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته ، وكان لايرى شيخاً إلاّ ويرقّ له ويعطيه ، ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ إلى مقر رحمته ، ومحلّ رضوانه / . (١٤٣ظ)

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة المصنّف : وقرأت ورقة بخط القاضي الفاضل إلى السلطان رحمه الله يقول فيها : (وممّا يجب أن يعلم المولى ، أنّ أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً ، يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله تعالى ، وربّما كانت ثلاثمائة ألف دينار) .

قال : ولمّا مات السلطان . رحمه الله ، خلف سبعة عشر ولداً ذكراً (١) وابنةً (٢) ، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي (٣)

---

(١) انظر الفتح القسي ص ٣٢٧ – ٣٣١ ويذكر أنه لما مات السلطان خلف سبعة عشر ولداً وابنة ، وفاته هنا ذكر ابنين هما : عماد الدين شاذي لأم ولد ، ونصرة الدين مروان لأم ولد ، انظر الروضتين ج١ ص ٢٧٦ – ٢٧٧ وذكر أن الابنة هي مؤنسة خاتون(الروضتين ج٢ ص ٢٢٤ – ٢٢٥) وفي (شفاء القلوب) ذكر أنه خلف ثمانية عشر ولداً وبنتاً ، مات واحد منهم في حياته وهو : الصالح معين الدين حسن وخلف الباقي ، وقيل : سبعة عشر وقيل : بل هم ستة عشر . نقول : إن الذي مات في حياة والده هو : الصالح إسماعيل . انظر النوادر السلطانية ص ١٦ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٥ ولم يذكر تاريخ وفاته ، السلوك ج ١ ق١ ص ١١٣ – ١١٤ .

(٢) هي : مؤنسة خاتون بنت يوسف ، تزوجها الملك الكامل محمد ، وهو ابن عمها الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة (٥٩٦ هـ – ١٢٠٠ م) . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٧٧ ، والأصل (١٤٤/ظ) ، شفاء القلوب ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(٣) انظر : الفتح القسي ص ٣٢٩ ، النوادر السلطانية ص ٢٥١ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ والذيل ص ١٤٥ ، شفاء القلوب ص ١٩٦ – ١٩٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠٨ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ١٠١ ،

مولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة . ثمّ الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان (١) ، ولد بمصر ثامن جمادى سنة سبع وستين ، والملك الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر(٢)، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين وهو شقيق الأفضل ، والملك الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي (٣) . ولد بها منتصف رمضان سنة ثمان وستين ، والمعزّ فتح الدين أبو يعقوب إسحاق (٤) ، ولد بها أيضاً في ربيع الأول سـنة سبعين . والمؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود ولد بدمشق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ، وهو أخو الملك العزيز لأبويه ، وشقيقهما أيضـاً الأعزّ شرف الدين أبو يوسف يعقوب (٥) ، ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين ، والزاهر مجير الدين أبو سليمان داود (٦) . ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين ، وهو شقيق الملك الظاهر ، والمفضّل قطب الدين أبو

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٥ ص ١٣٠ .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) انظر ترجمنه في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٣٠ .

(٤) هو : الملك المعز أبو يعقوب إسحاق بن يوسف . انظر الروضتين ج ١ ص٢٧٦ ، وفي شفاء القلوب ص ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٥ والحاشية رقم ١٥٠ .

(٥) هو : الملك الأعر ، ويقال المعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ابن أيوب . انظر : الروضتين ج ١ ص ٧٦ ، ترويح القلوب ص ٩٤ ، شفاء القلوب ص ١٩٦ .

(٦) هو : الملك الزاهر ، وقيل : الزاهد ، وقبل : مجير الدين أبو سليمان داود بن يوسف بن أيوب ، صاحب البيرة ، بغرب سمسياط (ت٦٣٢ هـ-١٢٣٦م) انظر . الروضتين ج١ ص ٢٧٦ ، شدرات الذهب ج ٥ ص ١٤٨ ، شفاء القلوب ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٧ والحاشية رقم ١٦٢ .

محمد (١) موسى ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر أيضاً سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل أيضاً ، والأشرف عز الدين أبو عبدالله محمد (٢) . ولد بالشام سنة خمس وسبعين ، وشقيقهُ المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد (٣) ، ولد بمصر سنة سبع وسبعين ، والمعظم فخر الدين أبو منصور توران شـاه ، ولد بمصر في ربيـع الأول سنة سبع وسبعين أيضاً وهو آخر أولاده وفاة . لأنه مات بحلب في سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وهي السنة التي أخرب التتار فيها مدينة حلب / ، والجواد ركن الدين أبو سعيد (٤) أيوب ، ولد في (١٤٤/و) ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعزّ إسحاق المتقدم ،

(١) هو المفضل قطب الدين ، ويقال : مظفر الدين موسى بن يوسف بن أيوب (ت ٦٣١ هـ - ١٢٣٥ م) . انظر الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ ويذكره (المفضل أبوموسى) وهو تصحيف ، شفاء القلوب ص ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) هو : الملك الأشرف عز الدين ، أبو عبدالله ، محمد بن يوسف بن أيوب ، (انظر : ترويح القلوب ص ٩٥ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ ، والأصل (١٤٤ / و) ، وفي شفاء القلوب (وقيل نصير الدين) ص١٩٦ .

(٣) هو : المحسن ، ظهير الدين (وفي شفاء القلوب زين الدين) ، أبو العباس ، أحمد بن يوسف بن أيوب ، (ت ٦٣٣ هـ - ١٢٣٧ م) ، (انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٧٦ ، العبر في أحداث سنة ٦٣٤ ، شذرات الذهب ج٥ ص ١٦٢ ، شفاء القلوب ١٩٦ ، مفرج الكروب ج٢ ص ٤٢٥ ، وفي ترويح القلوب (ذكر وفاته سنة ٦٣٤) ص ٩٨ .

(٤) هو : الملك الجواد ، ركن الدين (وفي شفاء القلوب ، وقيل . نجم الدين) ، أبو سعيد أيوب بن يوسف بن أيوب (لم يرد تاريخ وفاته) انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٧٧ ، والأصل (١٤٤ / و) ، شفاء القلوب ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٥) .

والغالب نصير الدين أبو الفتح ملكشاه (١) ، مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو أخو المعظّم تورانشاه ، ولهما شقيق ثالث وهو المنصور أبو بكر (٢) ، وكان مولده بحرّان بعد وفاة السلطان رحمه الله سنة تسع وثمانين ، وعماد الدين شاذي (٣) ، ونصرة الدين مروان (٤) ، أم كلّ منهما أمّ ولد ، وأما البنت فهي مؤنسة خاتون ، تزوّجها ابن عمّها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سنة ست وتسعين وخمسمائة .

فكان (٥) بيد الملك الأفضل عقيب وفاة السلطان ، دمشق ،

(١) هو الملك الغالب فرخشاه (وفي شفاء القلوب : ملك شاه ، وقيل فروخ شاه) ولم يرد تاريخ وفاته) انظر : الروضتين ج ١ (وهولأم المعظم أبو منصور نورانشاه) ص ٢٧٧ ، والأصل ١٤٤ / و) ، شفاء القلوب ص ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٦ .

(٢) هو الملك المنصور أبو بكر ، وهو شقيق نصير الدين أبو الفتح ملكشاه ، والمعظم تورانشاه، وكان مولده بحران بعد وفاة السلطان سنة ٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م، ولم يرد تاريخ وفاته (انظر : الروضتين ج ١ ص ٢٧٧ ، والأصل (١٤٤ / و) ، ترويح القلوب ٩٦ والحاشية رقم ١٥٧ هي ترجمة للملك الصالح إسماعيل وليس كما جاء فيها أنها ترجمة له ، وفي شفاء القلوب (المنصور نصرة الدين ، وقيل سيف الدين أبو بكر ، وقيل أنهما إثنان ...) .

(٣) هو عماد الدين شاذي ، أمه أم ولد (وفي شفاء القلوب : ويسمى عمر ، ولم يذكره بعضهم) فهو مختلف فيه (انظر : الروضتين ١ ص ٢٧٧ ، والأصل (١٤٤ / و) شفاء القلوب ص ١٩٦ ، ترويح القلوب ص ٩٧ .

(٤) هو : نصرة الدين مروان ، أمه أم ولد ، لم يرد تاريخ ميلاده ولا وفاته (انظر : الروضتين ج ١ ص٢٧٧ ، شفاء القلوب ص ١٩٦ ، ترويح القلوب ١٠ والحاشية رقم ١٦٩ .

(٥) انظر : الفتح القسي ص ٣٢٨ — ٣٣٣ ، الكامل ج ١٢ ص٩٧ — ١٠١ و ١٠٩ — ١١٠ و ١١٨ — ١٢٠ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٢٤ —٢٢٥ .

والساحل وأعمالها . وهو الذي حضر وفاة والده ، وقام بالعزاة كما تقدّم ، وأنفذ إلى بغداد صحبة الكتاب المتقدّم ذكره عدّة والده في الغزاة وهدايا وغيرها . وتولّى أخوه الملك العزيز عثمان مصر وأعمالها، وتولّى أخوهما الملك الظاهر غازي حلب وأعمالها ، فاستمرّت بيده إلى أن مات ، ثمّ بيد ولده الملك العزيز محمد (١) . ثمّ بعده بيد ابنه الملك الناصر صلاح الدين (٢) يوسف إلى [أن](٣) أخذها التاتار منه مع بلاد الشام سنة ثمان وخمسين وبه انقرض مُلك نسل السلطان صلاح الدين رحمه الله وعقبه .

وأمّا (٤) الملك العزيز عثمان ابن السلطان ، فاستمرّ بمصر مالكها إلى أن توفي بها شاباً ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وكتب القاضي الفاضل إلى عمّه الملك العادل بالشام ، يعزّيه به : (أدام الله سلطان مولانا الملك العادل ، وبارك في عمره وأعلى أمره وبآمره . وأعزّ نصر الإسلام بنصره . وفدت الأنفس نفسه الكريمة ، وأصغر الله العظائم بنعمته في العظيمة ، وأحياه الله حياة طيبّة يقف هو فيها والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب

---

(١) هو الملك العزيز غياث الدين محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب توفي سنة (٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م) : انظر الذيل على الروضتين ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٥ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٨ ، ترويح القلوب ص ٩٢ والحاشية رقم ١٣٠ ، شفاء القلوب ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) هو : الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب ، تم الشام سنة (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م) وليها مدة عشر سنين ثم قتل في تبريز سنة (٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م) انظر الذيل على الروضتين ص ٢١٢ ، شذرات الذهب ج٥ ص ٢١٢ ، سفاء القلوب ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٣) الإضافة من قبلنا لتوضيح المقصود .

(٤) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٣٤ .

عنها بالأمور المسلمة ، والعواقب السليمة ، ولا نقص له رجالاً ولا عدداً ، ولا قصر له ذيلاً ولا يداً ، ولا أسخن له قلباً ولا كبداً ، ولا كدّر له خاطراً ولا مورداً / . ولمّا قدّر الله ماقدّر في الملك (١٤٤/ظ) العزيز ، رحمة الله عليه وتحيـاته مكرّرة إليه من انقضاء مهله ، وحضور أجله ، كانت بديهة المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، فرحم الله ذلك الوجه ونضّره ، ثم السبيل إلى الجنّة يسّره .

وإذا محاسن أوجـهٍ بليـت

فعفا الثرى عن وجهـه الحسَنِ

فاعزِز على المملوك والأولياء ، بل على قلب مولانا ، لاسلبه الله ثوب العـزاء بسرعة مصرعه وانقلابه إلى مضجعه ، ولبـاسهِ ثوب البلاء قبل أن يبلى ثوب الشباب وزفّه إلى التراب وسريره محفوف باللّدات والأتراب ، وكانت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين ، وكانت وفاته في ليلة الأحد العشرين من المحرّم والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض قلبٍ وجسد ووجع أطراف وغليل كبد ، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد ، والأسى عليه في كلّ يوم جديد) .

(١) واجتمع الأمراء بمصر بعد وفاة العزيز هذا على ابنهِ الملك المنصور محمد ، وهو طفل (٢) . فساق الملك العادل ، وملك الديار المصريّة وذلك سنة ست وتسعين .

---

(١) انظر : الكامل ج١٢ ص ١٢١ – ١٥٦، الروضتين ج٢ ص ٢٢٨–٢٣٩ ، شفاء القلوب ص ١٩٧ – ٢١٣ .

(٢) في الروضتين ج ٢ ص ٢٣٤ (وقد أنافت سنوه على عشر) .

وأمّا الملك الأفضل علي صاحب دمشق وأعمالها . فإنّه جرى بينه وبين أخيه الملك العزيز قبل وفاته خطوب كثيرة ، يطول شرحها ، ولا حاجة إلى ذكرها ، إلى أن خرجت دمشق عن يده ، واقتصر من أعمالها على صرخد (١) ، فأقام بها يسيراً ، ثمّ توجه منها إلى سميساط (٢) ومَلَك البــلاد ، فأقام هنالك ، واستقرت دمشق بيد الملك العادل عمّه ، ثمّ ملك جميع بلاد الشام خلا حلب وأعمالها ، فإنها استقرّت بيد الملك الظاهر كما تقدّم ، وخلا مدينة حماة ، فإنها استقرت بيد أولاد تقي الدين ابن أخي السلطان ، وهي إلى الآن على ذلك ، وخلا مدينة حمص ، فإنها بقيت في يد أولاد أسد الدين شيركوه إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة . ثمّ ملك الملك العادل الديار المصرية كما تقدّم .

وما (٣) أحسن كلام القاضي الفاضل (٤) في بعض كتبه : (أمّا هذا البيت فإنّ الآباء منه اتّفقوا ، فملكوا ، وأنّ الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا ، وإذا غرّب نجم فما في الحيلة تشريقه / ، وإذا بدأ خرق ثوب ، فما يليه إلاّ تمزيقه ، وهيهات أن يُسدّ على قَدَر طريقه ، وقد قُدِّر طرُوقه وإذا كان الله مع خصم على خصم ، فمن كان الله معه فمن يطيقه ؟) . (١٤٥/و)

(١) انظر تعريفه في القسم الأول ص ٢٠٣ حاشية رقم ١ .

(٢) سمسياط (في ياقوت) مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن ومالكها هذا الزمان – أي زمن ياقوت – الملك الأفضل علي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين .

(٣) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

(٤) انظر ترجمته في القسم الأول ص ٣١٧ حاشية رقم ٢ .

وكانت وفاة القاضي الفاضل رحمه الله في سنة ست وتسعين وخمسمائة .

قال العماد (١) : تمت الرزيّة الكبرى ، والبليّة العظمى ، وفجيعة أهل الدين في الدنيا ، بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة ، في سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء ، وكان ليلة الثلاثاء صلّى العشاء ، وجلس مع الفقيه ابن سلامة ، مدرّس مدرسته ، وتحدّث معه ماشاء ، وشوهد من كلّ ليلة أبش وأبسم ، وأهش ، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة ، وانفصل إلى منزله صحيح البدن ، فصيح اللسان ، وقال لغلامه : رتّب حوائج الحمّام ، وعرّفني حتى أقضي مني المنام ، فوافاه سحراً للإعلام ، فما اكترث بصوت الغلام ، ولم يدر أنّ كلم الحمام حمى من الكلام ، وأنّ وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمّام ، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت ، فعرف أنّ القدر له باغت ، فلبث يومه لايسمع له إلاّ أنين خفي ، عُلم منه أنّه بعهد الله وفي ، ثمّ قضى سعيداً ، ومضى شهيداً حميداً ، فوفّاه الله تعالى الوصيّة ، فكانت له بسيّد المرسلين عليه الصلاة والسلام أسوة ، وإن تردّى عن رداء العمر ، فله من حلل البقاء في عليّين كسوة ، لأنّه لم يُبق في مدة حياته عملاً صالحاً إلاّ وقدّمه ، ولا عهداً في الجنّة إلاّ أحكمه ، ولا عقداً في البرّ إلاّ أبرمه ، فإنّ صنائعه في الرقاب ،

---

(١) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٢٤١ – ٢٤٢ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤ – ٢٦ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٤ – ٣٢٧ ، الخريدة ج ٤ ق ١ ص ٣٥ – ٣٧ و ٤٤ – ٥٢ .

وأوقافه على سبُل الخيرات متجاوزة عن الحسنات لاسيّما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب ، وأعان طلبة العلم الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة ، والأيتام بالكتاب والخيرات الدارّة على الأيام ، فكانت حياةً له ثابتة إلى يوم البعث ، وإعادةِ حياة الأنام ، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً ، وفي الحقائق ماضياً ، سلطانه مُطاع ، والسلطان له مُطيع ، وفضلهُ جامع ، وشمل الفضل به جميع ، وهو واحد الزمـــان ، قــد خصّه الله بالمكانة والإمكان ، والسلطان رحمه الله من مفتتحاته فتوحه ، ومختتماتها ، ومبادىء أمور دولته وغاياتها ، ماافتتح الأقاليم إلاّ بأقاليد آرابه وآرائه ، ومقاليد غِناه وعنائه ، وكنتُ / من حسناته محسوباً وإلى مناسب (١٤٥/ظ) آلائه منسوباً ، أعرف صناعته ، ويَعرفُ صناعتي ، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي ولم يزل يجذب بضبعي ويحلب نفعي ، وما أوسعَ ذرعه للخطاب في شغلي ، إذا ضاق بالخطبِ الشاغل ذرعي ، وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدّهر ، وبراعته بارثة البر ، وعبارته نافثة للسحر ، وبلاغته للدولة مُجمّلَة ، وللمملكة مُكمّلَة ، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مُفَضّلَة ، ومُفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة ، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة ، وإنّما نسجتُ عــلى منواله ، ومزجتُ مــن جرياله (١) ، ورويتُ بزُلاله ، وهو الذي نسخَ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب ، وأغربه من الإبداع ، وأبدعه من الغريب ، ومــا ألفيته كرّر دعاءً ذكره في مُكاتبة ، ولا ردّد لفظاً في مخاطبةٍ ، بل تأتي فصوله مُبتكرة مُبتدعة ، لا مُفتكَرة بالعُرفِ والعرفان معرفة لا نكرة ، وكانت

---

(١) الجريال : صبغ أحمر .

الدولة بإدالته تُدال ، والزلّة بإزالته تُزال ، والكِرَامُ في ظلّه يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضلهِ يستقيلون ، وبعزّ حمى حمايته يعزّون . وبهزّ عطف عطفه يهتزون ،فإلى مَنْ الوفادة من بعده ؟ وممّن الإفادة ؟ وفيمن السيادة ؟ ولمن السعادة ؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة ، (وإنّا لله وإنّا إليه راجعون) (١) ، ولأمره منقادون .

وذكره العماد أيضاً في كتابه الخريدة ، في القسم الرابع منه في ذكر محاسن مصر وأعمالها (٢) ، فقال : وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزاينها ، أقدمُ ذكر من جميع أفاضل الدّهر ، وأماثل العصر ، كالقطرة في تيار بحره ، بل كالدرة (٣) في أنوار فجره ، وهو المولى القاضي الأجل الفاضل أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني ، واحد الزمان ، العديم الأقران ، ربّ القلم والبيان ، واللّسن
(١٤٦/و) واللّسان ، والقريحة / الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرّزة ، والفضل الّذي ماسُمع في الأوائل ممّن لوعاش إلى رمانه ، لتعلّق بغباره ، أو جرى في مضمارهِ ، فهو كالشريعة المحمدية الّتي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يَخترِعُ الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويُطلع الأنوار ، ويُبدع الأزهار ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٦ (قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) .

(٢) انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ ، بنصرف ، الخريدة ج ٤ ق١ ص ٣٥ — ٣٧ .

(٣) في الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ (كالزرة) .

وهو ضابط المُلك بآرائه ، ورابطُ السلك بآلائه ، إن شاء إنشاء في يوم واحد بل في ساعة مالو دُوِّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قُسٌّ عند فصاحته ؟ وأين قَيس في مقام حصافته ؟ ومَنْ حاتم وعمروٌ في سماحته وحماسته ، فضله بالأفضال حالٍ ، ونجم قبوله في أفق الإقبال عالٍ ،لا منٌّ في فعله، ولا مين في قوله،ولا خُلف في وعده، ولا بطء في وفده ، الصادق الشيم ، السابق بالكرم ، ذو الوفاء والمروءة ، والصفاء والفتوّة ، والتقى والصلاح ، والندى والسماح ، منشر رفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته ، وهو من أولياء الله الّذين خُصّوا بكرامته ، وأخلصوا لولايته ، قد وفّقهُ الله للخير كلّه ، وفضّل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله ، فهو مع مايتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهمّاته المستغرقة في العاجلة ، لايغفل عن الآجلة ، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته ونوافل صلاته ، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبثّ أصفاده وعوارفه ، ويختم كلّ يوم من القرآن المجيد ، ويضيف إليه ماشاء الله من المزيد . ثمّ ذكر كلاماً كثيراً من هذا النمط .

وكان والد القاضي الفاضل تولّى القضاء بعسقلان (١) ، وأنفذ ولده هذا إلى مصر ، فاتّصل بِكُتّابِ الدولة المصريّة ، كأبي الفتح بن قادوس ، والموفّق بن الخلاّل ، وأمثالهما ، ففتح الله عليه في هذه الصناعة إلى أن فاق فيها أهل عصره ، بل المتقدّمين كلّهم ، وقد سبق من ترسلاته وكتبه مايشهد بذلك ، فلا حاجة هنا إلى إيراد شيء منه ، ودفن رحمه الله بمقبرته الّتي بناها بالقرافة ، واتفق

(١) انظر تعريفها في القسم الأول – الحاشية رقم ٣ ص ٢٢١ .

(١٤٦/ظ) أنّ / يوم موته كان دخول الملك العـــادل إلى مصر مالكاً لها ، فدخل العادل من باب ، وخرجوا بالجنازة من باب .

وذكر قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري أنّ القاضي الفاضل لمّا سمع أن العادل (أخذ الديار المصرية) (١) دعا على نفسه بالموت خشيةأن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر الله ، أو يجري منه في حقّه إهانة ، فقد كان بينهما مايقتضي ذلك ، فأصبح ميتاً ، رحمه الله . وكانت له معاملة مع الله تعالى حسنه . وتهجد بالليل ، إلى غير ذلك من أعمال البرّ المتنوعة .

وذكرَ جماعة من أهل الديار المصريّة أنّه خلف مـــن الكتب مقدار مائة ألف مجلّد ، وكان يجمعها من سائر البلاد . رحمة الله عليه .

* * *

آخـــر المختصر والمضاف إليه كلاهما من كتاب الروضتين :

فرغ منه كتابةً وتنقيحاً خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي ، لطف الله بـــه في بكرة يوم الثلاثاء تاسع شهر ذي القعدة ، سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، بالمدرسة الصلاحية بالقدس الشريف ، رحم الله واقفها ، (والحمد لله ربّ العالمين) ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم تسليماً كثيراً دائماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) .

* * *

---

(١) مابين القوسين ليس في ل ود .

(٢) هذه خاتمة الكتاب . و في (ل) بعد ذلك ترجمة كاتب المخطوطة صلاح الدين ابن كيكلدي العلائي نقلا من كتاب (طبقات الحفاظ) للسيوطي وبخط مخالف ، وهذه صورتها .

« ترجمة كاتب النسخة من طبقات الحفاظ للشيخ جلال الدين السيوطي : =

= الشيخ الإمام العلامة الحافظ الفقيه ذو الفنون صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي ، عالم بيت المقدس ، ولد في ربيع الأول سنة ٦٩٢ ﻫ وسمع التقي سليمان وطبقته ولازم البرهان بن الفزاري ، والكمال الزملكاني ، وتخرج به ، وبرع في الفنون ، وكان إماماً محدثاً ، حافظاً متقناً ، جليلاً ، فقيهاً ، أصولياً ، نحوياً .

قال الذهبي : حافظ يستحضر الرجال والعلل ، وتقدم في هذا الشأن مع صحة الذهن وسرعة الفهم .

وقال الحسيني : كان إماماً في الفقه ، والأصول ، والنحو ، مفتياً في علوم الحديث وفنونه ، علامة فيه ، عارفاً بالرجال ، علامة في المتون والأسانيد ، ولم يخلف بعده مثله .

وقال الإسنوي : كان حافظ زمانه في الفقه وغيره ، سئل : من تخلف بعدك ؟ فقال العلائي . ألف في الحديث وغيره مصنفات منها : الوشي المعلم فيمن روى عن أبيه وجده ، والأربعين في أعمال المتقين ، والقواعد المشهورة وعاوم في الفرائض وأشياء كثيرة محررة ، متفننة نافعة ، وخرج ودرس بأماكن منها . الناصرية ، والأسدية ، والصلاحية بالقدس والسكرية وغير ذلك ، أخذ عنه العراقي ، وقال : مات حافظ المشرق والمغرب صلاح الدين في ثالث المحرم سنة ٧٦١ ﻫ . انتهى .

كتب القاضي الفاضل عقيب وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله إلى ولده الملك الظاهر غياث الدين ، صاحب حلب ، بطاقة مع الطير يعزيه به ، بلغ فيها الغاية في الايجاز والبلاغة وهي : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

كتب المملوك إلى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن الله عزاءه ، وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة ، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، وقد حضرت الدموع المهاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد ودعت أباك مخدومي وداعاً لا تلاقي بعده ، وقبلت وجهه عني وعنك ، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة ، ضعيف القدرة ، راضياً بصنع الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وبالباب من الجنود المجندة ، والأسلحة المغمدة ، مالم يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ، وإن العين تدمع ، وإن القلب يخشع ، ولا نقول إلا مايرضي الرب ، (وإنا عليك لمحزونون يايوسف) ، وأما الوصايا فما يحتاج إليها ، والآراء فقد شغلني المصاب عنها ، وأما لايح الأمر فإن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته ، وهو الهول العظيم ، والسلام » .

فهرس موضوعات القسم الثاني

الموضوع	الصفحة
كتاب فاضلي إلى بغداد عن السلطان	٢٦ — ٢٨
وصول شمس الدولة تورانشاه من اليمن إلى عند السلطان	٢٩
دخول بهاء الدين قراقوش إلى المغرب	٢٩
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة	
صالح السلطان الحلبيين والمواصلة ، وانتقم من الحشيشية وأغار ابن المقدم على الفرنجة وأسر عدداً منهم	٣١
وفيها غادر السلطان إلى مصر ودخل القاهرة والاسكندرية وشاهد مااستجد من أسوارهما	٣١ — ٣٢
وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحجاج	٣٥ — ٣٦
قدوم أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني إلى مصر ومدحه السلطان صلاح الدين	٣٦ — ٣٨
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة	٣٨
غزو السلطان صلاح الدين لغزة وعسقلان	٣٨ — ٤٢
نزول الفرنج على حماة	٤٢
عودة السلطان من مصر إلى دمشق	٤٢
كتاب فاضلي إلى بغداد	٤٢ — ٤٣
وفيها ولد للسلطان صلاح الدين ولد سمي داوداً	٤٣ — ٤٤
وفيها قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد	٤٥
ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة	
وفيها أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة	٥٠ — ٥١

الموضوع	الصفحة
ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقاهرة	
وفيها توفي بحلب الملك الصالح إسماعيل بن محمود ابن زنكي	٧٢ — ٧٥
وفيها زار السلطان الاسكندرية وشاهد الأسوار التي جددها	٧٥ — ٧٦
كتاب فاضلي إلى السلطان	٧٦ — ٧٨
وفيها ولى السلطان أخاه سيف الإسلام اليمن	٧٨
ذكر بعض مآثر صلاح الدين يوسف	٧٨ — ٧٩
وفيها غدر الفرنج بالمسلمين ونقضوا عهدهم	٧٩ — ٨٠
ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة	
وفيها رحل السلطان من مصر إلى الشام ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام	٨٠ — ٨١
الإغارة على طبرية وبيسان	٨٢
عبور السلطان الفرات وضمه عدداً من البلاد	٨٢ — ٨٣
كتاب فاضلي إلى الديوان ببغداد عن السلطان	٨٢ — ٨٦
حصار السلطان للموصل	٨٧
وفيها توفي بدمشق نائب السلطنة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين يوسف	٨٨ — ٩١
وفيها كانت نصرة الأسطول المتوجه إلى بحر القلزم لطلب الفرنج	٩١ — ٩٢
كتاب عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي	٩٢ — ٩٥

الموضوع	الصفحة
	١٣٩ — ١٤٤

الموضوع	الصفحة
	٣٢٨ — ٣٣٢

* * *

فهرس الأعلام
الواردة في القسم الأول والقسم الثاني

* * *

فهرس الأماكن
الواردة في القسم الأول والقسم الثاني

* * *

المصادر والمراجع

إسماعيل بن الأثير الحلبي :

– عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار/مخطوطة المتحف البريطاني رقم (٣٣٤ – ٢٣) .

إسماعيل بن عمر بن كثير :

– البداية والنهاية ، مكتبة المعارف / بيروت / ط٣ / ١٩٧٩ م .

إسماعيل بن محمد بن عمر ، أبو الفداء :

– تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ م.

– المختصر في أخبار البشر ، استانبول ١٩٦٩ م .

– الشاهنامة ، ترجمها نثراً الفتح بن علي البنداري ، حققها عبد الوهاب عزام ، القاهرة (١٩٣٢ م) .

اسمت غنيم

الإمبراطورية البيزنطية ، وكريت الاسلامية صفحة مشرقة ومشرفة في تاريخ المسلمين -في العصور الوسطى – جدة (١٩٧٧ م) .

– الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية ، جدة (١٩٧٨ م) .

الاتحاد الأممي للمجامع العلمية

– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، نشر أ.ى.ونسنك ، مكتبة بريل في مدينة ليدن ١٩٣٦

بدر الدين بن قاضي شهبة

– الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط بيروت ١٩٧١ م .

برناردين كلتي

– فتح القسطنطينية ، ترجمة شكري محمود نديم ، مراجعة جعفر خصباك ، بغداد ١٩٦٢ .

ثابت بن سنان الصابي وابن العديم والمقريزي
– تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ م .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
– بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢ (١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م) .
جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور
– معجم لسان العرب – دار صادر بيروت – بدون تاريخ .
حاجي خليفة
– كشف الظنون ، ليبزغ ١٨٣٧ م .
حسن حبشي
– نور الدين والصليبيون حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري - دار الفكر العربي ١٩٥٦ .
– الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربي .
الحسن بن عبدالله بن أبي حصينة
– ديوان ابن أبي حصينة ، تحقيق أسعد طلس ، دمشق ١٩٦٥ م .
حسين أمين
– تاريخ العراق في العصر السلجوقي – بغداد ١٩٦٥ م .
حمزة بن القلانسي
– تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ م .
خاشع المعاضيدي
– دولة بني عقيل في الموصل ، بغداد ١٩٦٨ م .
خير الدين الزركلي
– الاعلام ط٢ القاهرة
خليفة بن خياط
– تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار – دمشق ١٩٦٧ – ١٩٦٨ .
رفيق التميمي
– الحروب الصليبية – القدس ١٩٤٥ م .

رينيه غروسيه :
– جنكيز خان قاهر العالم ، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى ، راجعه وقدم له سهيل زكار ط١ دمشق ١٩٨٢ – ١٤٠٧ هـ .
زكريا بن محمد بن محمود القزويني :
– آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ م .
ستيفن رنسيمان
– الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه زكي علي ، القاهرة ١٩٦١ .
سعيد عبد الفتاح عاشور
– الحركة الصليبية – القاهرة ١٩٦٣ م .
– مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية .
سليم الجندي
– تاريخ المعرة ، دمشق ١٩٦٣ م .
سهيل زكار :
– تاريخ الحروب الصليبية ط٢ ، دار الفكر ١٩٧٣ م .
– الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين – تحقيق سهيل زكار دار الملاح دمشق ١٩٨١ .
– الحروب الصليبية ، اختارها وترجمها وحققها وقدم لها سهيل زكار ط١ دار حسان ١٩٨٤ .
السيد الباز العريني
– مؤرخو الحروب الصليبية – القاهرة ١٩٦٢ م .
السيد عبد العزيز سالم
– طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ م .
سيد علي الحريري
– الأخبار السنية في الحروب الصليبية ط٢ مصر (١٣٢٩ هـ – ١٩١١ م) .

عبد الجبار ناجي
– الإمارة المزيدية – البصرة – ١٩٧٠ .
عبد الرحمن اسماعيل المقدسي ، أبو شامة .
– الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل بيروت .
– تراجم رجال القرنين السادس والسابع – المعروف بالذيل على الروضتين – دار الجيل بيروت (ط١ ١٩٤٧ – ط٢ ١٩٧٤) .
عبد الرحمن بن الجوزي
– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ، الهند ١٩٤٠ .
عبد الرحمن بن خلدون
– العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٨ م .
عبد القادر بدران
– تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ، دار المسيرة ، بيروت ط٢ (١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م).
عبد القادر بن محمد النعيمي
– الدارس في تاريخ المدارس .
– دور القرآن الكريم في دمشق ، صححه وعلق عليه صلاح الدين المنجد ط٣ بيروت ١٩٨٢ م .
عبد الكريم رافق
– العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦ ط١ دمشق ١٩٧٤ .
عبد الكريم بن محمد السمعاني
– الأنساب ، حقق نصوصه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، نشره محمد أمين دمج ، بيروت (١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م) .
عبدالله بن أيبك الدواداري
– الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد – القاهرة (١٩٦١ م).
عبدالله بن عبد العزيز البكري ، أبو عبيد
– معجم مااستعجم تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .
عبدالله بن عبدالله بن خرداذبة ، أبو القاسم .
– المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي
– ديوان ابن سنان الخفاجي ، بيروت ، ١٨٦٨ م .
عبد المنعم ماجد
– صلاح الدين يوسف الأيوبي ط٢ ، بيروت ١٩٦٧ م .
عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي
– طبقات الشافعية الكبرى ، دار المعرفة ط٢ بيروت بدون تاريخ .
علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي الحسيني ، أبو الحسن :
– أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) ، تحقيق محمد اقبال ، لاهور (١٩٣٣ م) .
علي بن الأثير الجزري أبو الحسن (ت ٦٣٠ هـ) .
– الكامل في التاريخ /ط ليدن ، دار صادر / بيروت (١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م) .
– التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
علي بن الحسن بن عساكر (ت ٥٧١ هـ) .
– تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية / ٣٣٦٨،٣ / ٣٤٥٠،٦ / ٣٣٧٢،٨ / المجلد الأول والثاني حققهما صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥١ م ، المجلد العاشر حققه أحمد دهمان دمشق ، ١٩٦٣ م .
– تراجم النساء ، تحقيق سكينة الشهابي ط١ (١٤٠٣ هـ – ١٩٨٢ م) .
علي أبو نصر بن هبة الله بن ماكولا
– الإكمال ، حيدر اباد ، الهند ، ١٩٦٢ – ١٩٦٧ م .
عماد الدين خليل
– عماد الدين زنكي ، بيروت ط ، ١٩٧١ م .
عمر كحالة
– معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٥٧ – ١٩٦١ م .
عمر بن الوردي
– تتمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ، ١٨٦٨ م .
عوض محمد خليفات
– مملكة ربيعة العربية في وادي النيل ، ط ، عمان (١٩٨٣ م) .

فينر فولفغانغ مولر

– القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد الجلاد ، نشر مركز الدراسات العسكرية بدمشق ١٩٨٢ .

قمر كيلاني

– أسامة بن منقذ ، دراسة ١٩٨٠ م .

قوام الدين بن علي البنداري (ت ٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م) .

– سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان .

– تاريخ دولة سلجوق ، للعماد الكاتب ، هذبه الفتح البنداري – القاهرة (١٩٠٠ م) .

كامل بن حسين الغزي

– نهر الذهب في تاريخ حلب ، حلب ١٩٢١ م .

كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم

– بغية الطلب في تاريخ حلب ، مجلدتي أياصوفيا برقم / ٣٠٣٦ / وثمان مجلدات في أحمد الثالث برقم / ٢٩٢٥ / ومجلد في فيض الله برقم / ١٤٠٤ / استانبول .

– زبدة الحلب من تاريخ حلب/حققه سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ – ١٩٥٤ – ١٩٥٨ م .

محمد أبو يعلى بن محمد بن الهبارية

– ديوان الصادح والباغم ، القاهرة ، ١٢٩٢ هـ .

محمد أحمد دهمان

– في رحاب دمشق ط٢ ، دمشق (١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م) .

محمد بن أحمد الذهبي

– تاريخ الاسلام ، المتحف البريطاني (OR ٥٠ ، OR ٤٩) .

– العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط (١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م) .

– تذكرة الحفاظ ، ط٣ ، حيدر آباد ، الهند (١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م) .

محمد بن أحمد المقدسي

– أحسن التقاسيم ، ليدن ١٨٧٧ م .

محمد بن أحمد النسوي

– سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي مصر ١٩٥٣ م .

محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ، أبو عبدالله

– مفاتيح العلوم ، المطبعة المنيرية في القاهرة .

محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، صاحب حماة

– مضمار الحقائق ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة .

محمد بن جرير الطبري

– تاريخ الرسل والملوك – ليدن (١٨٧٩ – ١٩٠١ م) .

محمد جمال الدين سرور

– النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، (١٩٦٤ م) .

مجهول

– أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

مجهول

– حوادث السنين ، مكتبة أحمد الثالث رقم / ٢٩٨١ / .

محمد الحموي

– التاريخ المنصوري ، موسكو ١٩٦٠ .

المرتضى الزبيدي :

– ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٧١ .

محمد بن شاكر الكتبي

– عيون التواريخ ، المتحف البريطاني / OR – ٣٠٠٥ / .

– فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، ط دار صادر بيروت (١٩٧٣ م) .

محمد بن الشحنة

– الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ م .

ابن شداد :

– الأعلاق الخطيرة – قسم مدينة دمشق – دمشق ١٩٥٦ م ، قسم مدينة حلب ، حلب ١٩٥٣م.

محمد بن سالم بن واصل الحموي
– مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المجلد الأول حققه جمال الدين الشيال القاهرة ، ١٩٥٣ م ، الجزء الرابع حققه حسنين محمد ربيع ، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور/مصر ١٩٧٢ م .
– مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، الأعلمي ، بيروت ط٢ /(١٣٩٠ – ١٩٧٠ م) .
محمد بن سلطان بن حيوس
– ديوان ابن حيوس ، تحقيق خليل مردم بك ، دمشق ١٩٥١ م .
محمد صالح البنداق
– هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط١ (/١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م) .
محمد بن علي بن جنغل
– تاريخ ابن جنغل / ٥٩١٢ / .
محمد بن علي بن حزم الأندلسي
– جمهرة أنساب العرب ، القاهرة (١٩٦٢ م) .
محمد بن سليمان الراوندي
– راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدول السلجوقية ، ألف بالفارسية ، ونقله إلى العربية إبراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد ، القاهرة (١٩٦٠ م) .
محمد بن علي العظيمي
– تاريخ العظيمي ، مكتبة بيازيد رقم (٣٩٨ / .
Journale Asiatique 1938
محمد بن علي بن ميسر
– أخبار مصر ، تحقيق هنري ماسيه ١٩١٩ م .
محمد بن محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ – ١٢٠١ م) .
– الفتح القسي في الفتح القدسي ط مصر (١٣٢١ هـ) .
– البرق الشامي ، نسخة مصورة – المغرب .
– خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق (١٩٥٥ / ١٩٥٩ / ١٩٦٤) .

محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣ ﻫ) .
– غاية النهاية في طبقات القراء ، عني بنشره ج برجستراسر ط ١ مصر ١٩٣٢ م .
موهوب بن أحمد الجواليقي ، أبو منصور
– المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم ، تحقيق أحمد شاكر ، القاهرة (١٣٦١ ﻫ).
ناصر خسرو
– سفر نامه ، نقله إلى العربية ، يحي الخشاب ، القاهرة (١٩٤٥ م) .
نبيه عاقل
– الامبراطورية البيزنطية ، ط دمشق ١٩٦٩ م .
ياقوت بن عبدالله الحموي
– إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) القاهرة (١٩٠٧ – ١٩٢٧ م) .
– معجم البلدان ، بيروت (١٩٦٨ م) .
يوسف ، أبو المحاسن بن تغري بردي :
– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة (١٩٢٩ – ١٩٣٦ م) .
يوسف بن رافع بن تميم بن شداد
– سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .
يوسف قزاوغلي سبط ابن الجوزي ، أبو المظفر .
– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، المتحف البريطاني / OR٤٦٤ / مكتبة أحمد الثالث / ٢٩٠٧ / س ، المكتبة الوطنية بباريس / ١٥٠٦ / .

* * *